المملكة المغربية
المعهد الملكي
للثقافة الأمازيغية
مركز الدراسات التاريخية والبيئية

ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ
ⴰⴱⵔⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ
ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⵏ
ⴰⵎⵎⴰⵙ ⵏ ⵜⵖⵓⵔⵉⵡⵉⵏ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴷ ⵜⵡⵏⵏⴰⵡⵉⵜ



سلسلة الدراسات والأطروحات - رقم 2 -

تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط

(1 – 9 هـ / 7 – 15 م)

ⴰⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵓⵙⵍⵎⴷ ⴳ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ ⵏ ⵓⵣⵎⵣ ⵏⴰⵎⵎⵏⵙ

(1-9 ⵏⵓⵎⵎⵓⵜⵜⵉ / 7-15 ⵏ ⵜⵍⴰⵍⵉⵜ)

تأليف ذ. الحسين أسكان

الرباط 2004

تاريخ التعليم بالمغرب
خلال العصر الوسيط

تنبيه

نلفت انتباه القارئ الكريم إلى أنه، نظرا لأسباب تقنية، فإن حرف «الكاف المعقودة» في هذا المؤلف مرسوم على الشكل التالي " گ"، بدل من " ڴ"، (أي الكاف فوقه ثلاث نقط)، كما أن علامة السكون (ْ) تظهر كأنها دال مصغرة (د).

المملكة المغربية

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⴰⵖⵔⵉⴱ
ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ
ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ
ⴰⵎⵎⴰⵙ ⵏ ⵜⵖⵓⵇⵉⵖⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴷ
ⵜⵡⵏⵏⴰⴹⵜ

سلسلة الدراسات والأطروحات – رقم 2 –

تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط

(1-9 هـ/7-15م)

ذ. الحسين اسكان

الرباط 2004

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة الدراسات والأطروحات - رقم 1 -

العنوان : **تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط**

السلسلة : سلسلة الدراسات والأطروحات - رقم 1 -

التأليف : الأستاذ الحسين أسكان

الناشر : المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

الإخراج والمتابعة : مركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل

تصميم الغلاف : وحدة النشر (مركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل)

المطبعة : مطبعة المعارف الجديدة - الرباط

الإيداع القانوني : 2004/1460

شكر وامتنان

أشكر جزيل الشكر، أفراد أسرتي الصغيرة وزملائي الأساتذة، في مركز الدراسات التاريخية والبيئية، الأستاذ محمد حمام، الأستاذ مصطفى أعشي، الأستاذ عبدالله صالح، والآنسة أمينة أزركي على ما قدموه لي من مساعدة وتشجيع لإنجاز هذا العمل.

كما أشكر الأستاذ عبدالمجيد جحفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسيك على تفضله بمراجعة العمل قبل طبعه.

تقديم

من القضايا الحيوية التي ما تزال مطروحة في جل بلدان العالم، قضية التعليم لارتباطها بمسألة الهوية أولا وبالتنمية ثانيا. والمغرب كغيره من دول العالم لم يكن استثناءاً في ذلك إذ منذ حصوله على الاستقلال ظل يتخبط في قضايا التعليم، وقام بعدة تجارب ومر بعدة مراحل، منها مرحلتي المغربة والتعريب التي لم تحققا ما كان مسطراً لهما، مما فرض القيام بإصلاح شامل للمنظومة التعليمية. وقد تبين أخيراً، أن المكون الأمازيغي ظل مغيباً في هذه المنظومة. ووعيا منها بأهمية هذا المكون في الثقافة الوطنية، اتخذت السلطة العليا بالبلاد قراراً تاريخيا، ألا وهو إدارج تعليم اللغة الأمازيغية في المدرسة المغربية، وبذلك شرع المغاربة في التصالح مع هويتهم وتاريخهم.

وموضوع بمثل هذه الحيوية والأهمية، يستحق دراسة علمية جادة، ولعل أول ما ينبغي القيام به بداية، هو معرفة الظاهرة التعليمية معرفة عميقة في بعدها التاريخي. وهذا الأمر لم يحصل بعد. حقا، هناك بعض الدراسات الجزئية، لكنها لا ترقى إلى المستوى الأكاديمي المطلوب، شكلا ومضموناً، وتنحو منحى إيديولوجيا واضحاً مما يبعدها أكثر عن الواقع التاريخي الذي ينبغي أن لا يغيب عن ذهن الباحث في التاريخ لكي لا يسقط في الإنتقائية وبالتالي إهمال جميع الروافد المكونة لحضارة وتاريخ المغرب.

ويعتبر تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (1-9هـ/7-15م) من بين المقاربات التاريخية الجادة تتبع فيها المؤلف الأستاذ الحسين اسكان الإشكالات

التاريخية التي شهدها تاريخ التعليم بالمغرب، منذ وصول الإسلام إلى الشمال الإفريقي إلى غاية القرن الخامس عشر الميلادي، متتبعاً مسار هذا التعليم خلال هذه المدة الطويلة نسبيا ومحاولا استقصاء المصادر التي تختزن معلومات متنوعة قد تفيد الموضوع شرحاً وتحليلاً.

ورغم أن المصادر لا تتضمن إلا معلومات قليلة جداً، فقد تمكن الباحث بخبرة المؤرخ أن يرسم صورة واضحة عن التعليم بالمغرب الوسيط، مستجليا بعض عناصره الأساسية انطلاقا من لغة التدريس التي كانت تشكل فيها اللغة الأمازيغية لغة أساسية في التلقين، ووصولا إلى تدخل الدولة فيه، ومضمون المناهج الدراسية، وأماكن التدريس، والمربين، ومسألة المجانية إلخ... كل هذه العناصر رصدها المؤلف بدقة في مظانها المختلفة ووضعها في سياقها وبيئتها التاريخية شارحا معانيها.

وإذ يقوم مركز الدراسات التاريخية والبيئية بإدراج هذا المؤلف ضمن منشوراته، فلأنه يدخل ضمن الأهداف الكبرى لهذا المركز والمتمثلة أساساً في إبراز المكون الأمازيغي في التاريخ والحضارة المغربية. ولأهميته العلمية، فهو دراسة رصينة من شأنها أن تغني معرفتنا التاريخية بهذا الموضوع الذي ما يزال في حاجة إلى مزيد من الدراسات لتتوفر لنا كافة المعطيات التاريخية والموضوعية القمينة بفهم مسألة التعليم فهماً علمياً.

محمد حمام

مدير مركز الدراسات التاريخية والبيئية

المقدمة

تناول موضوع تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط ليس رجوعا إلى الوراء فقط للنبش أكاديميا في الماضي البعيد للإحاطة بملابساته المختلفة لتفسيره وفهمه، فبالإضافة إلى هذه الأهمية المعرفية القصوى لمثل هذا العمل، يمكن أن يقدم ذلك أيضا خدمة للنقاش الدائر الآن بالمغرب حول قضايانا التعليمية الحالية، من خلال التعرف على النظام التعليمي المغربي الذي تبناه المغاربة، في تلك الفترة، ودراسته من خلال الإحاطة بالملابسات التاريخية المحيطة بهذا الاختيار، والتعرف على المشاكل التي واجهها أجدادنا والتحديات التي كانت مطروحة بالمغرب منذ أكثر من اثني عشر قرنا في المجال التعليمي. وهي تحديات يتشابه بعضها إلى حد بعيد مع التحديات المطروحة علينا اليوم: مثل مسألة الحسم في لغة التدريس، هل التدريس باللغة العربية الفصيحة أو بالعامية أم بالأمازيغية أم بغيرها؟ ومثل قضية كيفية تمويل التعليم: هل تبني التعليم المجاني أو اختيار التعليم المؤدى عنه؟ ومثل مسألة العلاقة بين التعليم ومحيطه الاقتصادي والاجتماعي، أو مسالة مرونة البرامج والمقررات في التعليم الموجه للناشئة، والاختيار بين تكريس قيم التقليد أم ترسيخ قيم الإبداع والتجديد، وتخصيص تعليم موجه للراشدين، إلى غير ذلك من القضايا التعليمية الأخرى.

رغم العوائق العديدة التي واجهت المغاربة في الحسم في هذه القضايا التعليمية الشائكة آنذاك، فقد استطاع النظام التعليمي الذي تبنوه أن يتألق وينتج فطاحل من العلماء، نبغوا في مختلف العلوم كالفيلسوف ابن رشد، والرياضي ابن البناء المراكشي، والمؤرخ ابن خلدون وابن عذارى وابن أبي زرع، وغيرهم من أعلام المغرب ممن أثروا الفكر الإنساني، في مختلف ميادين العلم والفن.

ورغم هذه الأهمية التاريخية والعلمية، فإن موضوع تاريخ التعليم بالمغرب لم يستوف بعد، حقه من الدراسة والبحث خاصة في العصر الوسيط، باستثناء بعض الدراسات والمقالات القليلة التي تناولت جوانب معينة منه؛ وهذا النقص هو الذي حفزنا على تناول الموضوع رغم صعوبته. وقد انطلقنا لمقاربته من مجموعة من التساؤلات والإشكاليات التاريخية الكبرى التي يطرحها مثل هذا الموضوع: ما هي طبيعة النظام التعليمي والتربوي الذي تبناه المغاربة في تلك الفترة؟ وكيف مولوه؟ وما هي لغة التدريس التي تبنوها؟ وما هي أهم التطورات الأساسية التي عرفها النظام التعليمي المغربي خلال العصر الوسيط؟

وأهم الصعوبات الكبرى التي واجهتنا:

صعوبة الإمساك بالقضايا الجوهرية المميزة لهذا النظام التعليمي، نظرا لطبيعته الخاصة، والمتمثلة في كونه نسقا تعليميا يتميز بالحرية النسبية للمتعلمين، لأنه ليس منظما في إطار مؤسسات اجتماعية تشرف عليها الدولة أو غيرها من الجهات. وترتب عن هذه الحرية النسبية للمتعلمين والمعلمين، ظهور سلوكات و تصرفات تعليمية متباينة ومتباعدة أحيانا إن لم تكن متناقضة أحيانا أخرى، مما يجعل تحديد التقاليد التعليمية الأساسية من تلك التصرفات أمرا شائكا وصعبا، إذ يمكن، إذا لم نحتط في مثل هذه الحالة، تعميم بعض الأحداث التي قد تكون مجرد أحداث استثنائية ومعزولة وجعلها قاعدة عامة ضمن التقاليد التعليمية السائدة.

ترتبط الصعوبة الثانية بطبيعة المصادر الأساسية المتعلقة بالموضوع، خاصة كتب التراجم والفهارس، فأغلب معلوماتها دونها التلاميذ عن شيوخهم؛

ونظرا للتقدير والاحترام اللذين يكنونه لهم، كانوا يركزون في الغالب على ذكر خصالهم العلمية ومزاياهم الخلقية ومحاسنهم، ويغضون الطرف عن مثالبهم وباقي صفاتهم وسلوكاتهم، مما يترتب عنه إخفاء جزئي للواقع التاريخي في المجال التعليمي.

تتمثل الصعوبة الثالثة، في قراءة لغة تلك المصادر، مثل كتب التراجم والمناقب، التي تبدو لنا فيها المعلومات المقدمة لأول وهلة، متشابهة ورتيبة إلى درجة الملل، وبالتالي لا يمكن الخروج منها بمعلومات جديدة.

وقد حاولنا رغم هذه الصعوبات وغيرها، أن نميز بين الأنواع التعليمية والتربوية الكبرى، وقسمناها إلى صنفين: تعليم ديني موجه للراشدين، وتعليم موجه للناشئة سميناه التعليم الاحترافي. وأبرزنا مقومات وخصائص كل منهما والتطورات الأساسية التي طرأت عليهما خلال الفترة المدروسة. كما حاولنا أن نبرز الفرق الشاسع في التعليم بين الفئات الاجتماعية على عدة مستويات وخصوصا بين الرعية والحكام. وتوقفنا عند أهم تطور عرفه التعليم خلال العصر الوسيط والمتمثل في تغيير طريقة تمويل التعليم من التمويل الذاتي من طرف المتعلمين قبل القرن 7هـ إلى تمويله بواسطة الأحباس وجعله تعليما مجانيا، وتجسد هذا التحول أولا في ظهور المدرسة كمؤسسة وقفية جديدة، وتحبيس كراسي التدريس، وخزانات الكتب بالجوامع، بعد ذلك. وتتبعنا النتائج المترتبة عن هذا التحول في تمويل التعليم، كانتشار التعليم بين شرائح اجتماعية واسعة، وتأثير التحبيس على نوعية العلوم التي كانت تدرس، وغير ذلك من القضايا الجزئية الأخرى المرتبطة بالموضوع.

تمهيد

صنف جل الباحثين التعليم الإسلامي تصنيفات مختلفة بحسب المعايير التي اعتمدوها، فمنهم من اعتمد معيار المرحلة الدراسية الشيء الذي أدى بأصحاب هذا المعيار إلى الحديث عن تعليم ابتدائي وثانوي، وعن التعليم العالي، وإلى الحديث بالتالي عن وجود مؤسسات من "معاهد"، و"جامعات" كجامعة القرويين. ومنهم من اعتمد معايير من قبيل حرية المتعلم، فانتهى إلى وصفه تارة بأنه تعليم "إجباري"، وتارة أخرى بأنه تعليم تطوعي واختياري.

لا يساعد اعتماد مثل هذه المعايير التي تعكس-جزئيا- بعض مظاهر التعليم الإسلامي في المغرب، على فهم تاريخ التعليم وتفسير وقائعه وأحداثه، زيادة على أن المصادر لا تؤيد وجود مثل هذه التصنيفات والمصطلحات والنعوت. ويبدو أن التصنيف الأنسب هو التصنيف المعتمد على نوعية المتعلمين الذين يتوجه إليهم التعليم. ويبدو، حسب هذا المعيار، ومن خلال الأدبيات التربوية الإسلامية، ومن خلال الأحداث والوقائع التاريخية أن الحضارة الإسلامية عرفت صنفين رئيسيين من التعليم : تعليم ديني شفوي موجه للراشدين يعتمد اللغة الشفوية المحلية التي يفهمونها، وآخر علمي ومعرفي يعتمد الكتابة واللغة العربية، وهو موجه للناشئة والمتعلمين. وقد تنبه ابن خلدون إلى وجود هذين الصنفين، وبين أن الصنف الأول كان في صدر الإسلام والدولتين الأموية والعباسية، وتولاه أشراف العرب أول الأمر، مثل أب الحجاج بن يوسف الثقفي. والصنف الثاني سماه بالتعليم الصناعي المعاشي، وكان يمتهنه في عهده (القرن 8هـ)، من لا عصبية له [1]غير

(1) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ط. دار الكتاب اللبناني - بيروت 1997 ص 48-49.

أن ابن خلدون لم يفطن إلى استمرار التعليم الأول وتعايشه مع الصنف الثاني طيلة العصر الوسيط، إذ كانت تعقد في أغلب المساجد حلقات مخصصة للراشدين من العامة إلى جانب حلقات لتدريس العلم للطلاب، كما لاحظ ذلك الحسن الوزان بمسجد القرويين أواخر العصر الوسيط مثلا [2]، كما نجدهما جنبا إلى جنب في الرباطات قبل القرن 6هـ وفي الزوايا بعد ذلك، وفي أمكنة ومؤسسات تعليمية أخرى. غير أن التعليم الديني اتخذ في مسار تطوره عدة مظاهر وأشكال، فكان يسمى في بداية الفتوحات الإسلامية تعليم "الحلال والحرام" لسكان الأقاليم المفتوحة، وبعد أن أسلموا أخذ شكل الوعظ أو التذكير قصد دفع المذنبين إلى التوبة عن الذنوب التي اقترفوها؛ وهو نوع من التربية الأخلاقية والدينية، وهو ما سيعرف بالمغرب في نهاية العصر الوسيط وما بعده **بالتوريق**. وأثناء تطوره تفرعت عنه بعض الوظائف التي لها علاقة بتبيان مبادئ وأساسيات الدين الإسلامي وحمل الناس على تطبيقها، كمنصب الفتيا، ومنصب الحسبة المعتمد على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما سنبين فيما بعد. كما تتدخل الدولة في هذا الصنف من التعليم، ويكتسي تدخلها عدة أشكال كما سنرى لاحقا، في حين لم تتدخل في التعليم الاحترافي قبل القرن 7هـ، وقد ظل تدخلها مع ذلك محدودا.

وقد أجلنا التعليم الديني للراشدين، على الرغم من أسبقية من الناحية الزمنية على التعليم الاحترافي، إلى الفصل الخامس، لأن القارئ الكريم ينتظر من مثل هذه الدراسة أن تعالج النوع الأخير من التعليم، بينما النوع الثاني، يدخل أكثر في باب التربية الدينية أو التنشئة الاجتماعية بصفة عامة.

---

(2) الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1980 ج، 1، ص 177-178، وسنفصل القول في ذلك، في الفصل الخامس.

الفصل الأول
التعليم الاحترافي من نهاية القرن الأول إلى القرن السادس الهجري

ظهر التعليم الاحترافي الإسلامي باللغة العربية مع وصول الإسلام للمغرب في نهاية القرن الأول الهجري، واقتصر أول الأمر على تعليم القرآن وتحفيظه، وعلى عدد محدود من أبناء الموالي (القبائل الزناتية المتحالفة مع الفاتحين) من سكان الغرب الإسلامي في نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري. وتعايش مدة طويلة مع التعليم الموروث عن العهود السابقة، إذ ظل أغلب المتعلمين يدرسون باللغات القديمة حسب الجهات كما هو الشأن بالنسبة للمصامدة الذين ظلوا يكتبون بالسريانية وبكتابة تسمى الرموزيات وغيرها، حتى قيام الدولة الموحدية مطلع القرن 6هـ/12م[3]. ويشترك التعليم الاحترافي الإسلامي الجديد مع التعليم السابق له في خاصية أساسية، هي أن الطالب يتحمل المصاريف المختلفة التي يتطلبها تعليمه بداء بأجور المعلمين والمدرسين، وشراء الكتب والأدوات الدراسية، وانتهاء بتحمل نفقات الرحلة الدراسية من مركب وخفارة ومسكن ومأكل وملبس. فكيف كان المتعلمون من أبناء الرعية يواجهون هذه النفقات قبل ظهور المدارس في القرن 7هـ؟

---

(3) البيدق أبو بكر، المقتبس من كتاب الأنساب... م. س. ص 42، اسكان الحسين، الدولة والمجتمع... م. س ص23-24.

I - النفقات الأساسية في التعليم الاحترافي

1. الأجرة على التعليم

تميز التعليم في الإسلام بعدم تدخل الدولة في تسيير شؤونه كما كان الحال من قبل عند الإغريق والرومان، وقد أخبرنا القابسي"أن أئمة المسلمين في صدر هذه الأمة، فما منهم إلا نظر في جميع أمور المسلمين بما يصلحهم في الخاصة والعامة، فلم يبلغنا أن أحدا منهم أقام معلمين يعلمون الناس أولادهم من صغرهم في الكتاتيب، ويجعلون لهم على ذلك نصيبا من مال الله"(4)، فكان على أولياء وآباء الصبيان من الرعية والحكام أن يتكلفوا بتعليمهم وتحمل نفقاتهم الدراسية المختلفة، ومنها أجرة المعلمين في جميع المستويات الدراسية.

وكان فقهاء المذهب المالكي والحنفي قد أجازوا أخذ الأجرة على تعليم القرآن وحده، لكنهم لم يتفقوا حول الحكم الشرعي، على الإجارة لتعليم العلوم الآخذة في التكون مع القرن الثاني للهجرة، من فقه وفرائض وغيرها، فمنهم من يجيزها ومنهم من يحرمها(5). لكن أغلبهم اضطر في الأخير إلى إجازتها، إذ أجاز فقهاء الأندلس في القرن الثالث الهجري قبل فقهاء القيروان الإجارة على تعليم أغلب العلوم(6). وكانت تعطى دائما تبريرات لجوازها في القرون التالية منها، فتوى سعيد العقباني (720-811هـ) مثلا، الذي برر جواز الإجارة بضعف أرزاق العلماء في القرن 8هـ(7).

وتظهر كثير من الأحداث والوقائع التاريخية أن الإجارة على التعليم كانت قد أصبحت عادة متأصلة بالغرب الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري. ولاحظ

---

(4) القابسي أبو الحسن علي، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين، الملحقة بكتاب، التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي، لأحمد فؤاد الأهواني. دار إحياء الكتب- القاهرة 1955 ص292.
(5) سحنون، المدونة الكبرى، دار الفكر -بيروت، د. ت. ص. ص396، آدم ميتز، الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريدة محمد. دار الكتاب العربي- بيروت. ط4، سنة1967، ص 343.
(6) سحنون، المدونة الكبرى. م. س. ص303.
(7) الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ط. الرباط 1981 ج 8 ص237-236، 252 ج.11 ص7.

المقري أنه "ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة.فالعالم منهم بارع، لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه **وينفق من عنده حتى يعلم**"(8).

كانت الأجرة في التعليم الأولي تؤخذ عينا و نقدا، ويتم التعاقد مع المعلمين بالبوادي بعقد يسمى **المشارطة** مدة سنة، وتتخذ المشارطة أشكالا مختلفة حسب الظروف الاقتصادية والاجتماعية للجماعات، ففي الواحات الصحراوية والقطر السوسي جرت العادة خلال العصر الوسيط على تقسيم أجرة المعلمين على مياه العيون في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى على أيام دولة عيونهم، أو على الكوانين، أو على عدد الأوسق والغرائر من الإنتاج الزراعي، وبعض الجماعات تجعل شيئا من الأجرة على المياه وشيئا على الرجال والصبيان(9). وكيفما كانت نوعية الأجور في بعض البوادي، فإنها كانت كافية لضمان عيش المعلمين وجعلهم في مأمن من خطر المجاعات الدورية. يقول عبد الرحمان بن عبد الكريم الدكالي عن أبيه في القرن 7هـ الذي دعا له أبو محمد صالح بحفظ القرآن: "فحفظت القرآن وما برحت رحى رزقنا تدور لا في السنين الشديدة ولا في غيرها، وليس لي سوى تدريس القرآن العظيم"(10). أما في المدن فإن المعلمين يكترون دكاكين ويتقاضون أجرة من أباء الصبيان، بالإضافة إلى المكافآت المختلفة التي تقدم لهم في الأعياد والمناسبات المختلفة. وكان أهم مورد لهم في نهاية العصر الوسيط بالمدن، هي الشموع التي يحملها الصبيان بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي التي يبيعونها بفاس بمائة مثقال أو أكثر حسب عدد الصبيان(11)، لكن الأجور لم تكن كافية لبعض المعلمين فكانوا يلجأون

---

(8) المقري أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر-بيروت 1986 ط 1 سنة م 12 جزءا. ج 1 ص 220.
(9) الناصري الدرعي، الأجوبة الناصرية الدرعية، ط. الحجرية بفاس، ص 79.
(10) الماجري، المناهج الواضح .. م. س ص321.
(11) الوزان، وصف إفريقيا .م. س. ص103، الونشريسي، المعيار .م. س. ج. 8ص160، 162، ج. 12ص 33.

إلى وسائل متعددة لتحسين وضعيتهم، منها بعث الصبيان للنفائس[12]، أو يشتغلون بوظائف تكميلية، فهذا أحمد بقر الله الفشتالي (ت 685هـ) الذي كان يعلم بطالعة فاس، ينجر أعواد السرج في أوقات فراغه من التعليم[13].

ولا يقتصر دفع الأجور على المرحلة الأولى من التعليم في الكتاب وحده، بل يشمل مرحلة ما بعد الكتاب، ومن الأمثلة على المدرسين الذين أخذوا الأجرة من الطلاب على تعليمهم محمد بن طاهر أبو الخدب (ت583هـ) الذي استوطن مدينة فاس "وكان مشتطا على طلبة العلم فيما يشترطه عليهم **جُعْلا** (أجرا) على إقرائه إياهم، ضاغطا في اقتضائه إياه منهم، شديد المُشَاحَّة فيه، له في ذلك أخبار عجيبة"[14]. ويشبهه في مغالاته وتشدده علي بن محمد بن خروف الحضرمي (ت 609هـ)، الذي كان يتجول بالتجارة بين الأندلس ومدن سبتة وفاس ومراكش، وكان ينتصب للتدريس في كل بلد يتنزل به وكان"يستوفي الجعل على الإقراء من الطلبة ولا يسامح أحدا في القراءة إلا **بجُعْل** يرتبه عليه"[15]. فلم يميز بين الطالب الفقير والغني كما هو معتاد لدى المدرسين، إذ كان أغلب الأساتذة يقدمون المساعدة للطلاب الفقراء مثل أبي العباس أحمد بن العريف السبتي (ت 601هـ) الذي كان يدرس النحو والحساب بمراكش، ويأخذ الأجرة على ذلك وينفقها على الطلبة الفقراء[16]. وقد تمكن بعض المدرسين من جمع مبالغ مالية مهمة من مهنتهم، مثل محمد الأشقر الذي حصل على إقرائه للقرآن بمدينة أغمات على 700 دينار خلال مدة ثلاث سنوات فقط[17]، ومثل أبي عمرو الشلوبين (562-645هـ) الذي تصدر لتدريس النحو 60 سنة، واستفاد من ذلك جاها

---

(12) انظر عن هذه العادة، ابن القاضي، جذوة الاقتباس.م. س. ص .59ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. ط. دار المنصور- الرباط، 1973، ص.74.

(13) ابن القاضي، جذوة الاقتباس ... م. س. ص 126 - 127.

(14) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة.م. س. س5 ص.649.

(15) نفسه، س 5 ص.319-323.

(16) التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج .م. س. ص 16، بن الزيات، التشوف.م. س. ص 455.

(17) ابن القاضي، جذوة الاقتباس.م. س. ص216.

عريضا ومالا وافرا، إذ كان مستفاده من طلبته 400 درهم شهريا[18]، ومثل علي بن يوسف الأنصاري (ت 619هـ). غير أن أخذ الأجرة على التعليم لم يكن عاما، إذ نجد حالات استثنائية لأساتذة درسوا احتسابا دون أجر، وجُلُّهم ممن غلب عليهم منحى الزهد والتصوف، مثل عبد الجليل التونسي الذي درس الفقه مدة 30 سنة بمدينة أغمات محتسبا مع شدة فقره وفاقته[19]، ومثل أحد أشياخ القاضي عياض أبي عبد الله محمد الأموي (ت 517هـ) الذي درس الأدب والنحو بمدينة سبتة"وأخذ عنه الناس هذين العلمين كثيرا ودرسهما بغير أجر"[20]، ومثل الزاهد إبراهيم يسول الأشبيلي (ت 539هـ) الذي أقرأ القرآن بتلمسان محتسبا دون أجر[21]. ومثل أبي عمرو عثمان السلالجي (ت546هـ) الذي "انتصب للتعليم محتسبا" بمدينة فاس[22]، ولا يقبل حتى أن يخدمه طلابه كما يفعلون مع غيره، فكان يحمل خبزه للفران بنفسه. وحتى بعد ظهور أحباس المدارس في القرن السابع الهجري نجد بعض المدرسين يعلمون طلابهم مجانا مثل عبد الحق المصمودي (ت 955هـ) الذي درس الفرائض والحساب مجانا بفاس[23]. وكان البعض منهم عندما يفرغ من الدروس التي يتقاضى الأجر عليها من الأحباس الموقفة على كراسي التدريس، ينزل على الكرسي ويقعد على الأرض ويتبرع على طلابه بحصص إضافية حسب رغباتهم، كما كان يفعل أحمد المنجور (ت 995هـ) بفاس[24].

ولا يتحمل المتعلم أداء أجرة المدرسين فحسب، بل عليه كذلك اقتناء الأدوات التعليمية خاصة الكتاب الدراسي.

(18) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة. م. س س 5ص562-563.
(19) ابن الزيات، التشوف.م. س. ص174.
(20) القاضي عياض، الغنية.م. س. ص59.
(21) ابن الزيات، التشوف.م. س. ص294.
(22) ابن الزيات، التشوف.م. س. ص200.
(23) التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج .م. س.
(24) الكلالي إبراهيم بن عبد الرحمان الورياغلي، قطعة من "المسألة الأملسية"، نشرها المنوني محمد تحت عنوان، فصلة تصف الدراسة في القرويين أيام المنصور السعدي، مجلة البحث العلمي، عدد 7السنة الثالثة، يناير/أبريل .1966ص 248-249.

2- الكتب الدراسية

كان الكتاب ضروريا في حلقة الدرس، إذ ينطلق الدرس من نص معين، ويكون دور المدرس هو شرح ما غمض من النص، وذكر ما قيل في المسألة التي يعالجها النص المقروء، ويضيف الأستاذ بعض تأويلاته الشخصية منبها إلى ما فيه من صعوبات [23]. وكان يتكلف أنجب الطلاب بقراءته، وهو المعروف بقارئ المجلس أو قارئ الدولة أو نقيبها. وأطلق على أحد المدرسين بفاس لقب الكراس، لأنه يستظهر في تدريسه بكراس خلال القرن 8هـ. ويصبح الكتاب ضروريا أكثر لدى غير المتعربين كما هو شأن جل سكان المغرب إلى القرن 6هـ. وقد لاحظ ابن خلدون أن "الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهرا يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني"[26]. ويرفض بعض المحدثين إسماع الحديث حين تضيع أصولهم مثل محمد بن إبراهيم المهدوي نزيل فاس (ت 595هـ) [27]. وكان على الطالب أن يحضر الكتاب المدروس للحلقة، ويقتصر دور الطلاب المبتدئين على تصحيح قراءة الكتاب وفهم معانيه من خلال شرح المدرس، أما كبار الطلاب فكانوا يسجلون الفوائد على هامش الكتاب. ومن هذه التقاييد على هوامش الكتب ظهرت في القرن الثامن و القرن التاسع الهجري كتب عرفت بالطرر أو بالحواشي التي سجلها بعض الطلاب في مجالس أشهر الأساتذة كأبي الحسن الصغير(719هـ)، وأبي زيد الجزولي (ت 741هـ). وقد لقيت هذه التقاييد إقبالا كبيرا في فاس خلال القرن (10هـ) من طرف الطلاب، كما لاحظ المقري، "فإنك تجدهم يزدحمون عليها(في الخزانات) في كل زمان، وخصوصا في فصل الشتاء لا يلحق منها ورقة واحدة مع كثرة عددها بحيث ذكر، بل تجدهم يتنافسون في اقتنائها بالأثمان العظيمة المجحفة، ومن ذلك المسبع للجزولي، وتقييد اليحمدي عن أبي الحسن، ومن حصلت له العناية بنقلها فهو

---

(25) الوزان، وصف إفريقيا م. س. ج 1 ص 180.

(26) ابن خلدون، المقدمة، م. س. ص. 1054.

(27) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص273.

عالم العالم بأسره"[28] . البعض كان يحفظ تلك التقاييد عن ظهر قلب مثل الحسن بن منديل المغيلي (ت964هـ)، ويحضر مجلسه لهذا السبب ثلاثة آلاف طالب بمسجد القرويين[29].

وكان ثمن الكتب باهظا جدا، سواء اتخذ من الرق أو من الورق، إذ بلغ ثمن الورقة المنسوخة الواحدة خلال القرن الخامس الهجري بالأندلس ربع دينار[30]، ويزيد من ارتفاع أثمانها أنها كانت خاضعة للعرض والطلب والبيع بالمزايدة، بالإضافة إلى تدخل عوامل أخرى كالتجليد وجودة الخط وشهرة الكتاب، فابن المجلوم عيسى بن يوسف الفاسي (ت643هـ) "ابتاع من أبي عمر الغساني أصله من سنن أبي داوود الذي سمع فيه من أبي عمر بن عبد البر، وهو أصل أبي عمر بمال جليل، وكان قد صار إليه من أبي علي بابتياعه من أبي عمر بعد أن نسخ منه أبو علي وقابل وأتقن فرعه"[31]؛ وكان ثمن شرائه 5000 دينار [32]. وبما أن الكتب كان ثمنها باهظا، أصبحت من الأشياء الثمينة التي كان الأفراد يتنافسون على اقتنائها من أجل التباهي والافتخار، كما تؤكده رسالة موجهة إلى أبي الحسن الشاري محبس أول خزانة بسبتة، جاء فيها "ودفاتر العلم يغالى بقيمتها فتدخر، ليس إلا ليتباهى باكتسابها ويفتخر"[33]. بالفعل كانت المجلدات تشكل إحدى مكونات التزيين بدور الوجهاء والأعيان، فقد شاهد ابن الخطيب عند أسرة مخزنية بسفح جبل درن أشكالا من الأثاث الفاخر، وأوعية للكتب تضم نسخا من القرآن والحديث منقوشة ومحلاة بالإبريز ومقلدة بمحامل الحرير الفاخر بين السيوف على الحائط. ونظرا لقيمتها كانت أول ما يتعرض للسرقة في فترات

---

(28) المقري أحمد، أزهار الرياض... م. س، ج 3 ص 36.

(29) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س، ص 178.

(30) ابن الآبار، التكملة... الترجمة رقم 1078 على اعتبار أن الدينار يساوي تقريبا غرام من الذهب، فيكون ثمن كتاب من 300 صفحة = 300 غرام أي 75 دينار.

(31) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص258، أمثلة أخرى في نفس الصدر،ص. 265، 302.

(32) كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي. دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط. 2 سنة 1961ص86.

(33) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص 198.

الاضطرابات، كما حدث لخزانة بلاط الموحدين في عهد المأمون، وكلف ابن القطان مزوار الطلبة بإعادة ترتيبها[35] . وكان المتعلمون يضطرون إلى جلب الكتب الجديدة من الأندلس أو المشرق، فقد رجع ميمون اللمتوني (ت 530هـ) من المشرق وحمل معه مجموعة من الكتب النادرة بمال جسيم، ونسخ بعضها في حجم صغير قصد محملها[36]. أو كانوا يستعيرون الكتب من العلماء لنسخها كما فعل العبدري مع الدباغ بالقيروان[37]. وتذكر المصادر أول من سبق بإدخال كتاب معين لأول مرة للمغرب أو فاس كالمدونة أو مختصر ابن الحاجب وغيرهما[38].

وكانت أغلب الكتب تأتي من الأندلس منذ القرن الرابع الهجري، كما فعل يصلتن بن داوود الأغماتي (ت 372هـ)، الذي رحل إليها في طلب العلم، وسمع من عدة شيوخ "وجمع كتبا عظيمة"[39]. كما أرسل أبو عبد العزيز الركوني من جنوب دكالة في القرن 6هـ لشراء الكتب منها[40]، بل كانت حتى كتب المبتدئين تأتي منها أحيانا [41] وجل محتويات خزانات المرابطين والموحدين من بعض العلوم كان أصلها من الأندلس، مثل الكتب الفلسفية التي أخذها يوسف بن عبد المومن من منزل أبي الحاج المرواني[42]، أو الكتب التي أرسلها سانشو ملك قشتالة إلى أبي يوسف يعقوب المريني بمناسبة الهدنة المبرمة بينهما سنة 684هـ/1285م، البالغ عددها 13حملا، وحبسها على مدرسته بفاس[43] كما حمل الأندلسيون

---

(34) ابن الخطيب، نفاضة الجراب. م. س. ص51
(35) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة.م. س، س 8ص174
(36) ابن الزبير، صلة الصلة. م. س. ص405
(37) العبدري محمد الحاحي، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، منشورات جامعة محمد الخامس- الرباط 1968، ص67
(38) مدخل مختصر ابن الحاجب لفاس مثلا التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج .م. س. ص 258، أو مدخل ألفية المرادي إليها، ابن القاضي، جذوة الاقتباس.م. س.، ص 237.
(39) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، تحقيق عزت العطار،ط. مصر، 1954، ج2 ص210-211
(40) ابن الزيات، التشوف.م. س. ص260-261.
(41) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س5 ص 232.
(42) المراكشي، المعجب.م. س. ص238-239.
(43) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب .م. س. ص 363، المنوني محمد، ورقات عن الحضارة المغربية.م. س. ص197 .

المهاجرون تحت الضغط المسيحي في القرن السابع الهجري معهم كتبا كثيرة، منهم أبي بكر محمد بن البناء (ت 646هـ) إذ خرج من إشبيلة ومعه 500 مجلد[44].

إن ارتفاع أثمان الكتب وجلب أغلبها من خارج المغرب حصر اقتناءها على فئات اجتماعية محدودة جدا، هي فئة الحكام والأعيان في الغالب، لذا كان من يتوفر على خزانة ضخمة يوصف بأنه "جماعة للكتب مملوكي الخزانة" [45] وكانت أفخم وأضخم الخزانات قبل القرن السابع الهجري هي خزانة البيت الحاكم بدار ملكهم كخزانة الموحدين بمراكش، في القرن السادس الهجري[46]، لأن الحكام كانوا يتخذون النساخ لنسخ الكتب مثل يحيي الرابع من الأدارسة، أو المرتضى الموحدي[47] أما الخزانات الخصوصية فقد كان عددها محدودا جدا، اشتهر منها أربع خزانات بمراكش، وأربع بفاس[48] وكان بسبتة، أحد المراكز العلمية قبل القرن 7هـ، 45 خزانة كانت بدور الأكابر وذوي الأقدار، لم يبق منها في بداية القرن 9هـ سوى تسع خزانات خصوصية [49]. وكانت بعضها إما في ملكية بيوتات علمية ثرية كبيت بني الملجوم بفاس، أو بيت بني العجوز الكتاميين بسبتة، وأغلبها في ملكية رجال العصبية الحاكمة وكبار رجالها، مثل خزانة طبيب الخليفة أبي عبد الله محمد بن غلندة (ت 581هـ) بمراكش، في عهد الموحدين، أو المكتبة التي كونها بفاس أبو عبد الله محمد بن يحي تكاعت المسوفي (ت609 هـ) الذي كان أبوه عاملا للمرابطين ثم للموحدين بفاس، ومثل خزانة ابن القطان مزوار الطلبة[50]، وأغلب ما كان منها لدى بعض العلماء حصلوا عليه كهبة من الدولة، مثلما فعل يعقوب المنصور مع أبي موسى الجزولي (ت 607هـ) حين

---

(44) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة م. س س 5ص 681.
(45) المقري، أزهار الرياض م. س. ج 3ص185.
(46) انظر عن ناظر هذه الخزانة، نفسه، س. 8ص. .174-175المنوني، العلوم والآداب م. س. ص282.
الوزان، وصف إفريقيا م. س. ج 1ص .105.
(47) المنوني محمد، تاريخ الوراقة المغربية. منشورات كلية الآداب بالرباط سنة .1991ص. 17، 28.
(48) المنوني، العلوم والآداب. م. س. ص.283.
(49) الأنصاري محمد بن القاسم السبتي، اختصار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، ط. 2 سنة 1983 ص.29.
(50) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة م. س. س. 8 ص 194.

أعطاه دارا بمراكش تشتمل على كل الضروريات ومنها خزانة كتب[51]. أما أغلب الطلبة المنحدرين من الرعية فإن ما يتقنونه من الكتب كان هزيلا يتكون مما يقومون بنسخه بأنفسهم، في الغالب، من الكتب التي يعيرها لهم بعض الأساتذة.

ورغم الأهمية العملية للكتاب في حلقات الدرس والتعليم وفي نشر المعرفة، فإنه لم تكن له مكانة كبرى ضمن الأدبيات التربوية الإسلامية، كما يظهر مما تناقلته عن كراهية كتابة العلم وتخليده في الصحف من أقوال السلف، وإن كان الفقهاء قد أجازوا كتابة العلم في نهاية المطاف[52]. ويلح أغلب المربيين على أن يكون التلقين مباشرة من الشيوخ، وليس بمطالعة الكتب، كما يظهر من حالة الطبيب المصري علي بن رضوان (ت 453هـ) الذي أخذ الطب من الكتب دون إشراف معلم وانتقده معاصروه، في القرن 5هـ، على سلوكه بحجج نقلية وعقلية

فألف كتابا للرد عليهم[53]. وكان الفقهاء في الغرب الإسلامي يعتبرون النقل مباشرة من الكتب بدعة يهجر صاحبها[54]، وأن من لم يلق الشيوخ لا يجوز له أن يتصدر للتعليم والفتيا[55]، ويطلقون على من يأخذ العلم من الكتب لفظ صحفي، ومنها جاءت كلمة التصحيف. ويعلل الآبلي (ت 757هـ) ذهاب العلم وفساده في القرن 8هـ، بترك الرحلة التي هي أصل العلم، ويضيف أحمد المقري، "ثم تركوا الرواية فكثر التصحيف وانقطعت سلسلة الاتصال"[56]. هذا السلوك يمكن تفسيره بكون التعليم في صدر الإسلام كان شفويا، خاصة تعليم الحديث والقرآن، بالإضافة إلى تخوف الفقهاء أيضا من خطورة ترك الحرية للمتعلم لأخذ العلم من الكتب لما قد يؤدي إليه من جنوح فكري أو انحراف مذهبي، "وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بتلقيه العلم من الكتب، من غير مفتاح

---

(51) نفسه، س. 8 ص215.
(52) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، دار الفكر-بيروت. د. ت. ج.1 ص 76-84.
(53) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء وطبقات الأطباء، بيروت 1965 ص563.
(54) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص801.
(55) الونشريسي، المعيار. م. س. ج. 8ص.188، 359-360.
(56) التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج م. س. ص247، المنوني محمد، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط. 1979ص 215.

المعلمين" كما فعل مع ابن حزم الظاهري بالأندلس، الذي نقم عليه ذلك وأنكروه عليه وحظر بيع كتبه بالأسواق(57)، غير أن أخذ العلم عن الشيوخ يقتضي الرحلة إليهم للأخذ عن مشاهيرهم، الشيء الذي يتطلب مصاريف إضافية أخرى.

3- *نفقات الرحلة الدراسية*

أصبحت الرحلة الدراسية عادة أساسية في طلب العلم منذ القرن 2هـ، فرضها التدوين والطريقة الشفوية الأولى لأخذ العلم مع بداية انتشار الإسلام، وخاصة طلب علم الحديث الذي يتطلب الدقة والتحري وتنويع الروايات والبحث عن علو الإسناد. ويوضح السراج ذلك: "ولا ريب في اتفاق أئمة الحديث قديما وحديثا على الرحلة إلى من عنده الإسناد العالي، وإن قد حصل لكم ذلك بنزول ممن سمعه من الشيخ الذي يرحل إليه"(58)، ويعتقد أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة تزيد في اكتمال التعليم، وعلى قدر كثرة الشيوخ وتعددهم يكون حصول ملكات التعليم ورسوخها في ذهن الطالب(59). وقد اهتم علماء المسلمين بالرحلات العلمية خاصة إلى مراكز العلم الشهيرة: القيروان، قرطبة، الإسكندرية، بغداد، البصرة، الكوفة. وكان بعض العلماء يوصفون، في كتب التراجم، بجملة من قبيل "وله رحلة "أو رحل في طلب العلم" للتأكيد على مكانتهم ودرجتهم الفكرية. وذكر المقري 307 عالما أندلسيا ممن رحلوا إلى المشرق(60). وكان الطلاب يتحملون نفقات السفر من كراء أو شراء دواب الركوب، وأداء الخفارة، ومكس المرور على القناطر كقنطرة أم الربيع الذي طولب فيها ابن تومرت وتلاميذه بأداء المكري سنة 514هـ(61)، وأداء كراء المسكن، وتوفير المأكل والملبس. وتزداد هذه المصارف كلما طال أمد ومدى الرحلة، فيوسف أبو عمر المغامي الأندلسي (ت 228هـ)"رحل إلى المشرق وأقام أحد عشر عاما ومضى

---

(57) ابن خلدون، المقدمة. م. س. ص 801.
(58) السراج، فهرسة السراج ... م. س. ص 26.
(59) ابن خلدون، المقدمة.م. س. ص 1044-1045.
(60) المقرّي، نفح الطيب... م. س.ج. 1 ص2 وما بعدها.
(61) البيدق، أخبار المهدي.م. س، ص19، 26.

بألفي دينار وأتى وعليه الدين، أنفقها في طلب العلم"[62]، وهو مبلغ كبير جدا آنذاك، لا يستطيع الكثيرون توفيره، مما يضطر بعض الطلاب للاشتغال قصد توفير نفقاتهم أثناء الرحلة، مثل أبي الوليد الباجي (ت 474هـ) حين رحل للمشرق سنة 426هـ وأقام به وبالعراق 13سنة،"فأجر نفسه لحراسة درب، فكان يستعين بإجارته على نفقته"[63]. وكان من عادة صغار طلاب مدينة فاس، في نهاية العصر الوسيط، أن يشتغلوا كما فعل الحسن الوزان في شبابه حين اشتغل كاتبا في البيبيمارستان مدة سنتين بمبلغ ثلاثة مثاقيل في الشهر[64]. ويلتجئ البعض منهم إلى الجمع بين التجارة وطلب العلم في رحلاتهم قصد تغطية مصارف الرحلة الدراسية، مثل سعيد بن إبراهيم بن حمام الذي رحل في القرن 4هـ من سبتة"ودخل القيروان طالبا وتاجرا للأخذ عن شيوخها"[65]، ومثل حدور بن فتوح بن حميد الزناتي في نفس القرن من أصيلا الذي"سافر تاجرا فطلب العلم بالأندلس والمغرب"[66]. وقد يرافقون أقاربهم التجار الذين يساعدونهم على تغطية نفقاتهم الدراسية، مثل محمد بن عمران المزدغي (ت 653هـ) الذي "رحل إلى الأندلس طالبا العلم صحبة أبيه في بعض تردده إليها تاجرا، فروى بإشبيلية وقرطبة وغيرهما"[67]. وقد يضطر البعض للرجوع إلى وطنه حين تنفذ نفقاتهم، مثلما حدث عندما رحل القاضي عياض للأخذ على أبي على الصدفي سنة 480هـ، الذي اختفى لرفضه تولي القضاء "فوجد الرحالين إليه قد نفذت نفقات بعضهم، ومنهم من ابتدأ كتابا-مع الشيخ المذكور-لم يتمه، فأخذ أكثرهم في الرجوع إلى مواطنهم"[68]. أما الذين لا يتوفرون على الإمكانيات اللازمة للرحلة فإنهم يبقون ببلدانهم كما فعل الفقيه عبد السلام سحنون (ت 240هـ) الذي لم

---

(62) ابن فرحون، الديباج المذهب.م. س. ص357.
(63) ابن فرحون، الديباج المذهب.م. س. ص 120 .
(64) الوزان، وصف إفريقيا.م. س. ج. 1ص 181 .
(65) عياض قاضي السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تحقيق مجموعة من الباحثين. ط. وزارة الأوقاف المغربية في 8 أجزاء. الرباط 1983، ج. 8 ص79.
(66) نفسه، ج. 8 ص 179 ابن الفرضي، 130، 179.
(67) نفسه، س. 8ص365، وانظر أمثلة أخرى، نفسه، ج.8، 169،171.
(68) المقري أحمد، أزهار الرياض.م. س. ج.3 ص7.

يتجاوز في رحلته بعض مدن إفريقية، وعلل عدم ملاقاته للإمام مالك بقوله: "قلة الدراهم ولحى الله الفقر"(69). وكان البعض منهم يغتنمون فرصة توافد العلماء على مدنهم إن كانت من الحواضر الكبرى كفاس، فيأخذون عنهم العلم دون تحمل مشاق الرحلة ونفقاتها الباهظة، كما فعل أبو الحجاج بن نموي (ت 614هـ) الذي تميز بكثرة شيوخه، "إذ كان لا يرد على فاس عالم إلا لقيه وأخذ عنه فكان بعض المصنفين يدعونه **بالظاعن المقيم**"(70). ويحرص الرحالة على جلب الكتب الجديدة التي تظهر في البلدان التي رحلوا لها، مثل العبدري في القرن 8هـ، فقد حصل من أبي زيد عبد الرحمان على أكثر من عشرة أجزاء من الكتب والفوائد والفهارس(71).

وقد أضفت الرحلة على التعليم بالغرب الإسلامي طابع الترحال، إذ كان جل أصناف المتعلمين، من فقهاء وشعراء ومتصوفة وغيرهم، يرحلون في طلب العلم، وساهمت الرحلة في تشجيع المبادلات الثقافية بشكل كبير، وانتقال الأفكار خاصة أفكار فئة معينة (72). وتوثقت بفضلها الروابط الثقافية التي تشد أجيالا من المعلمين والمتعلمين بعضهم إلى بعض على مر القرون واختلاف أصقاع البلاد الإسلامية، وساهمت في تبلور وتوحيد ثقافة إسلامية بدار الإسلام، تستمد جذورها من القرن الأول الهجري وتعكس المؤلفات التاريخية والأدبية هذا الطابع. وبعد القرن السابع الهجري، تناقصت الرحلة لطلب العلم تدريجيا، وخاصة الرحلة البعيدة المدى بالغرب الإسلامي، وأخذت الدائرة الجغرافية لرحلة المتعلمين تضيق شيئا فشيئا، لأسباب متعددة، إلا ما كان من الرحلة الحجية، منها ما هو مرتبط بالأوضاع الأمنية أو الاقتصادية، إذ تقلصت الإمكانيات الاقتصادية لتجار المدن كما يظهر من حالة بيت المقري (ت 759هـ)

---

(69)ابن فرحون، الديباج المذهب.م. س. ص 357.

(70) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة. م. س. 8 ص427.

(71) العبدري، الرحلة المغربية. م. س. ص 67.

(72) De Premarre (A). Le Maghreb et l'Andalousie aux XIV siècle; Presse universitaire de Lyon, 1981 p. 94

بتلمسان. فبعد أن كونت العائلة ثروة مالية من التجارة مع بلاد السودان يديرها الأبناء، بتلمسان وسجلماسة وإولاتن والتكرور، واتسعت أموالهم خلال القرن السادس الهجري تحت ظل الدولة الموحدية، تغير مصير هذا البيت بعد ذلك. ويقول عنه المقري: "وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلاطين، فلم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان، فها أنذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة اتخذتها فضوله عيشا وأصوله حرمة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، **وأسباب كثيرة تعين على الطلب** فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة"[73]. وقد أثر تدهور الوضع الاقتصادي لسكان المدن على طلاب العلم كما حدث بفاس حيث لاحظ راشد بن راشد الوليدي (ت 675 هـ) في النصف الثاني من القرن السابع الهجري أن" طالب العلم إنما يعيش على السؤال أو من الزكاة أو يجلس على الفتح من غير سؤال"[74]. ويقترح على الطلبة أن يشتغلوا ليوفروا نفقات متابعة الدراسة. وتؤكد فتاوى غيره التجاء الطلاب للزكاة والأعشار[75]. وازدادت الأزمة في نهاية القرن 9هـ، فعندما أقبل أحمد رزوق من المشرق في القرن 10هـ خرج فقهاء فاس لاستقباله، فسألهم عن أسباب معاشهم فأجابوه أن أكثرها من الأوقاف المحبسة على الموتى[76].

4- *إعانة الطلاب*

رغم أن التعليم كان يموله المتعلمون أنفسهم، فإن ذلك لم يحل بين بعض أبناء البيوتات التي تعيش على الكفاف وبين نيل نصيبهم من التعليم، قبل ظهور المدارس في القرن 7هـ. ويبدو أن أغلب الطلاب المغاربة اعتادوا على طلب العلم رغم فقرهم، حسبما يفهم من قول ابن الخطيب عن ابن تومرت: "بأنه اشتغل

---

(73) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان، 4 أجزاء، القاهرة 1973 ج. 2 ص171.
(74) الونشريسي، المعيار. م. س . ج. 11 ص220.
(75) نفسه، ج. 8 ص197 ج. 9 ص315.
(76) ابن عسكر محمد بن علي الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالغرب من مشايخ القرن العاشر. تحقيق محمد حجي. ط. دار الغرب الإسلامي 1979. ص 21- 49.

بطلب العلم فقيرا على شاكلة البربر"[77]، إذ كان المحسنون والأساتذة يعملون على تقديم المساعدة لطلاب الفقراء والمعوزين، كأبي جعفر محمد يوسف الصنهاجي (ت 608هـ) ببلاد تادلة الذي كان يصطاد الأسماك من نهر أم الربيع، ويتخذ الأجباح ويبيع العسل والأسماك، ويدفع ثمنهما لحملة القرآن والعاكفين على قراءته[78]. ومثل بعض الأساتذة كأحمد بن العريف (ت 601هـ)، الذي كان يدرس بمراكش الحساب والنحو، ويأخذ على ذلك الأجرة ويدفعها للطلاب الفقراء[79]، ومثل محمد بن عياش التجيبي كاتب يعقوب المنصور الذي كان نفاعا بجاهه وماله، كثير الاعتناء بطلبة العلم والسعي الجميل لهم وإفاضة المعروف على قصاده مستعينا في ذلك بما نال من الثروة والحظوة والجاه[80]. وهناك من يعينهم بإعارة الكتب لهم، مثل أحمد بن محمد المعروف بابن الرومية (ت637هـ)، الذي كان "كثير الكتب، جماعا لها في كل فنون العلم، سمحا لطلبة العلم، ربما وهب لملتمسه الأصل النفيس الذي يعز وجوده، **احتسابا وإعانة على التعليم**، له في ذلك أخبار منبئة عن فضله وكرم صنعه"[81]. كما كان بإمكان الطلاب المحتاجين أن يغطوا نفقاتهم الدراسية بالاستعانة بجمع الأعشار والزكاة [82]، ولكن أغلبية من تعوزهم الإمكانيات يفضلون الاشتغال بمهنة أخرى، كالاشتغال بتعليم المبتدئين بالموازاة مع الدراسة[83]، أو الاشتغال ككتاب في بعض المنشآت العامة على عادة الطلاب الصغار بفاس خلال القرن 9هـ. ويذكر الحسن الوزان عن نفسه أنه اشتغل كاتبا بيبيمارستان فاس لمدة عامين حسبما هو معتاد عند صغار الطلبة في عصره، وكانت هذه الوظيفة تدر عليه ثلاثة

---

(77) ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق مختار العبادي وإبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964، ص. 76.
(78) ابن الزيات، التشوف. م. س. ص403.
(79) التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج .م. س. ص 61 ابن الزيات، التشوف. م. س. ص 455.
(80) ابن الخطيب، الإحاطة... م. س. ج 2 ص 482.
(81) نفسه، ج. 1 ص207.
(82) الونشريسي، المعيار.م. س طبعة الحجرية ج.1 ص 315، ج. 5 ص95، ج. 8 ص 125.
(83) السيوطي جلال الدين، بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، ج. 2 ص 125-126.

مثاقيل في الشهر[84]. فلم يكن الفقر حائلا كبيرا بين ذوي الهمم وبين التعليم، وأكثر ما كان يدفع بالطلاب إلى الانقطاع عن مواصلة الدراسة هو الفتن والاضطرابات السياسية، أو المجاعات، أو الزواج وكثرة العيال.

الخلاصة

إن تحمل الطالب لجل النفقات الدراسية قبل ظهور المدارس، خلال القرن السابع الهجري، جعل التعليم بالمغرب نخبويا ينحصر في البيوتات التي تمتلك الثروة كبيوتات الحكام وذوي الجاه السياسي والديني؛ فمن لم يكن من ذوي الكفاف لا يحصل العلم غالبا. وعد ابن تومرت عدم الكفاف من بين قواطع العلم[85]. وقد سبق لنا أن أوضحنا أن العامل الحاسم في توزيع الثروة وفي الفوارق الاجتماعية الأخرى، خلال العصر الوسيط، هو العامل السياسي، وهو ما جعل المجتمع ينقسم إلى كتلتين: كتلة الحكام وكتلة الرعية، تفصل بينهما هوة شاسعة تتجلى على مختلف المستويات: السياسية والاقتصادية، والقضائية، وعلى مستوى العيش والسكن [86]، ونضيف الآن تفاوتا آخر يهم المستوى التعليمي كذلك.

II- التفاوت بين تعليم الرعية وتعليم الحكام

يمكن ملاحظة فوارق شاسعة بين الحكام والمحكومين في فرص التعليم، وفي مستواه ونوعيته، إذ إن لكتلة الحكام تعليم يفوق بكثير مستوى تعليم الرعية، سواء في نوعيته أو في العلوم التي تقبل عليها. وداخل كل كتلة، يوجد كذلك تفاوت في المستوى العلمي حسب مكانة الفرد في سلم الهرم الاجتماعي داخل كتلته. كما يلاحظ تفاوت جغرافي سواء بين المدن والبوادي، وتفاوت بين المدن نفسها حيث تكون **"دار الملك"** التي يتركز بها أكبر قسط من الجاه ومن الثروة، هي **"دار العلم"**، أو **"بغداد"** البلد حسب تعبير عبد الواحد المراكشي، تليها المدن

(84) الوزان، وصف إفريقيا. م. س. ج1، ص181.
(85) ابن القطان حسن بن علي الكتامي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمن، تحقيق محمود علي مكي، ص 128-129.
(86) انظر عن هذه الاختلافات الصارخة، اسكان الحسين، الدولة والمجتمع. م. س. ص 257-270.

المهمة حيث مقر السلطة السياسية الإقليمية كإشبيلية، أو تونس، أو بجاية مثلا، في العهد الموحدي. كما يظهر هذا التفاوت منذ مرحلة التعليم الأولي، حيث كان الحكام يتخذون لأبنائهم مؤدبين خصوصيين كما سنبين بعد حين، في حين كانت الرعية تتخذ مربيا مشتركا كان يسمى "معلم العامة"(87).

1- *تعليم أبناء كتلة الرعية*

لم يعمل تمويل التعليم من طرف المتعلمين، إلا على تكريس الوضع الاجتماعي القبلي القائم، وإعادة إنتاج الفوارق الاجتماعية بين كتلة الحكام والرعية، والفوارق بين البادية والمدينة، وبين المدن نفسها. فبالنسبة لكتلة الرعية أو العامة المهمشة سياسيا والمقلة اقتصاديا، لا يتوفر السواد الأعظم من أبنائها على الإمكانيات المالية لمتابعة التعليم وتحصيل العلم. لهذا يرد مصطلح العامي في المصادر التاريخية كمرادف للأمي أو الجاهل في مقابل الطالب. وحتى المتعلمون منهم يقتصر أغلبهم على حفظ القرآن فقط، ولا يتجاوزون مرحلة الكتاب، المؤسسة التعليمية الأساسية للرعية. وأقل الأوساط حظا في التعليم داخل هذه الكتلة هي الرعية بالبادية، تليها رعية المدن حسب أهميتها.

أ – تعليم الرعية بالبادية

في البوادي، حيث ينتشر الفقر بين الفلاحين، لا يكاد يتعلم من أبناء الرعية إلا نسبة قليلة مقارنة بالمدينة، وحتى المتعلمون منهم يقتصرون على حفظ القرآن، إذ لم تكن العامة بالبادية تطمح إلى أكثر من أن يحفظ بعض أبناء الفلاحين القرآن، وكان البعض منهم يذهب للصالحين للدعاء لهم لتحقيق هذه الأمنية، مثل موسى بن سدرماح الرجراجي الذي زار العديد من مشايخ الصالحين فحفظ واحد من بين أبنائه الذكور الثلاثة القرآن (88). وفي بلاد بقوية بالريف كان سرور الجد أبي داوود بن مزاحم كبيرا لكون حفيده إبراهيم قد حفظ القرآن، وقال:"قد قبل الله دعائي فيك وأنالني قرة عيني منك لكونك حفظت كتاب الله

---

(87) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 6 ص158.

(88) ابن الزيات، التشوف.... م. س. ص356-357.

العزيز" (89). ومثل عبد الرحمان الدكالي في القرن 7هـ الذي حفظ القرآن بفضل دعاء أبي محمد بن ينصارن (90). وحتى عندما يتجاوز بعض المتعلمين منهم حفظ القرآن إلى طلب العلم تكون ثقافتهم متدنية في الغالب، وكان يطلق على ضعاف التكوين "فقيه القرية" (91). ويقول ابن عباد في القرن 8هـ عن فقهاء البادية : "ومن أين للبربر وأهل البوادي ومن أشبههم من غيرهم أن يكون لهم حظ من علم أو فهم يحملون به الأحاديث محملها ويعرفون مفصلها ومجملها حتى تكون أحوالهم على السداد وينتهجون في عقائدهم وأعمالهم سبيل الرشاد. ومن ظن منهم أنه عالم محقق فهو جاهل مغرور"(92). لكن في المقابل كان أبناء القبائل الحاكمة أو القبائل المتحالفة معها ينالون نصيبا أوفر من التعليم.

ب – تعليم الرعية في المدن

تتوفر في المدينة شروط ملائمة لازدهار الحركة التعلمية، منها تركز الثروة والجاه لدى بعض بيوتاتها، إذ يلاحظ أن تحصيل العلم كان مقرونا في الغالب بامتلاك الجاه السياسي والثروة أو الحسب، كما يظهر من تكرار المصادر، عندما تذكر الأصول الاجتماعية لبعض العلماء الكبار، لعبارة "من بيت جلالة وثروة، أو ترف وعلم"(93). ويظهر بالفعل، من الوقائع التاريخية أن بيوتات معينة بالمدن كانت تتوارث العلم بالمغرب عدة قرون تجاوز في البعض منها أكثر من 8 قرون، كبيت ابن الملجوم مثلا. هذا البيت دخل العلم من باب الجاه السياسي، من خلال تولي جد هذا البيت مصعب بن عمير من عقب يزيد بن المهلب بن أبي صفرة لمنصب الوزارة في عهد المولى إدريس (187-213هـ) (94). وبعد زوال حكم الأدارسة، تعاطى أفراد هذا البيت للقضاء والفتوى والشهادة والتدريس، طيلة

---

(89) البادسي، المقصد الشريف.... م. س. ص55.
(90) الماجري، المنهاج الواضح ... م. س. ص321.
(91) ابن فرحون، الديباج المذهب.م. س ص196.
(92) ابن عباد الرندي، الرسائل الكبرى. ط. حجرية بفاس 1320هـ، ص55.
(93) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى... م. س ص 10-15.
(94) نفسه، ص 10 وما بعدها.

بقية العصر الوسيط، ومنهم يوسف بن عيسى بن الملجوم معاصر القاضي عياض الذي كان إمام المغرب في وقته [95]. وبرز علماء هذا البيت أكثر في العهد المرابطي والموحدي إذ كان لأفراده ولع كبير بجمع الكتب النادرة والنفيسة [96]، وكونوا خزانات كتب ضخمة، اشتهر منها خزانة عبد الرحمان بن الملجوم الشهير بابن رقية (ت 605هـ) التي بيعت كتبها الغير المجلدة وحدها بستة آلاف دينار[97]. وكان يملك رباعا كثيرة بفاس تدر عليه ثلاثة آلف دينار شهريا[98]، ويملك قصرا فخما بفاس هدمه يعقوب المنصور سنة 582هـ لأنه كان يطل على حمام بحارة لواتة، وركبت دفوفه التي أزيلت منه لجامع القرويين [99]. ورغم التقلبات السياسية التي شهدها المغرب والخراب الذي تعرضت له فاس في القرن 7هـ، تمكن هذا البيت من الحفاظ على مكانته العلمية، واستطاع أحد أفراده أن يتولى قضاء الجماعة في عهد أبي الحسن المريني[100]. وبرز في هذا البيت عالم، في القرن 9هـ، هو عبد الرحمان بن الملجوم (ت917هـ) كأحد الشيوخ الكبار المدرسين بجامع القرويين [101].

كما استمر العلم في بيت القاضي عياض مدة تزيد عن أربعة قرون، واشتهر عدة أجيال منه باليسر والثراء، مثل جده الرابع عبدون (ت 397هـ) الذي كان موسرا ومن أكبر أعيان فاس أثناء احتلال الفاطميين لها، واستوطن مدينة سبتة بعد ذلك واشترى بها عدة أملاك[102] ، كما ورث القاضي من أبيه 17 ألفا من الذهب دون الممتلكات الأخرى كالعقار والكتب [103].

---

(95) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص549، 532.
(96) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س. 8 ص258، 439، 542، 546.
(97) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 396.
(98) ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط. دار المنصور- الرباط 1972، ص 45.
(99) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب.... م. س، ص 67-68.
(100) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص44.
(101) نفسه، ص406، حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. ط. الرباط، 1976ص، 189.
(102) المقري، أزهار... م. س. ج. 4 ص 29.
(103) نفسه، ج 5 ص 84.

ومن أشهر البيوتات العلمية خلال العصر الوسيط بيت بني عشرة بسلا(104)، وبيت بني أمغار بطيط نفطر في دكالة التي كانت تتوارث الصلاح كما يتوارث الناس المال مدة تسعة قرون(105)، وبيت ابن الغازي بسبتة مدة 5 قرون(106)، وبيت بني سمجون التي تردد القضاء في 18 فردا منها(107).

ومن العوامل المساعدة أيضا على توارث العلم، في هذه البيوتات، أن أبناءها لا يصادفون صعوبات أثناء تعلمهم كالتي يصادفها أبناء الرعية والعامة، لأنهم نشأوا على العلم وتعودوا عليه منذ نعومة أظفارهم، من خلال حضورهم للمجالس العلمية في سن مبكرة التي تعقد بدورهم، مثل عبد الرحيم بن الملجوم الذي أجازه ابن الكماد بداره وفي حجر أبيه سنة 527هـ وهو ابن ثلاث سنوات فقط(108). ويعود الفضل في نبوغ عدد من الأعلام بالمغرب إلى دراستهم المبكرة في بيوتهم مثل محمد بن غازي (ت 919هـ) الذي حفظ من أمه رحمة بنت الجنان حديثا كثيرا فلم يتعب في حفظه بعد الكبر، كما تعلم منها الكثير من قصص القرآن وأخباره مما كان له أثر في تحصليه الدراسي بعد ذلك (109). وهذا محمد بن معطي العبدوسي (ت 849هـ) حفظ في صغره مختصر مسلم للقرطبي، وكان يحفظ كل خميس خمسة أحاديث ويكافئه أبوه على ذلك بدرهم (110).

وعندما يرغب أحد أبناء العامة من ذوي المهن في التعلم، فإنه يصادف صعوبات عديدة، مثل ابن الصقيل المشتهر بحرفة أبيه (ت 520هـ) الذي كانت تستهويه في صغره حلقات الدروس في المساجد، وكان يتوقف طويلا لمشاهدتها، حتى عندما يرسله أبوه ليقوم له بعمل ما، فكان أبوه يعاتبه على ذلك.

(104) ابن شريفة، أسرة بني العشرة ودورها الحضاري، مجلة تطوان عدد 10 سنة 1965، ص 175 ومابعدها.
(105) الشيخلي صباح إبراهيم، آل أمغار، البحث العلمي عدد 33 نونبر 1982، ص 167-180.
(106) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة.... م. س. س 8 ص287، ابن الزبير، صلة الصلة... م. س. ص 503
(107) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 8 ص323.
(108) ابن الزبير، صلة الصلة... م. س. ص 502.
(109) ابن غازي، الروض الهتون... م. س. ص24.
(110) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س.. ص 425.

ولما لمس فيه عمه التاجر هذا الشغف بالدراسة تكفل بتعليمه وبنفقاته الدراسية. وبما أن الميدان جديد عليه فقد قضى وقتا طويلا حتى كاد ييأس من الحصول على مبتغاه [111]. هكذا نلاحظ أن التعليم لا يساهم كثيرا في الترقية الاجتماعية في صفوف أبناء كتلة الرعية، لأن أغلب المهن والمناصب كانت متوارثة، تتحكم في توارثها الأصول الإثنية والاجتماعية، بما في ذلك مهن ووظائف القلم والوظائف الدينية.

غير أن هذا لم يمنع البعض من المتعلمين من تحقيق الترقية الاجتماعية بواسطة التعليم قبل القرن 7هـ، ومن أبرزهم أبي محمد عبد الله بن المحلي (ت 661 هـ) الذي ينتمي لوسط متواضع بسبتة، إذ كان أبوه قوالا يغني في المحافل والأسواق، وهي حرفة محتقرة في نظر الفقهاء ويعرف المتلبس بذلك في المغرب بالمحلي. وقد تعلم وأصبح في شبيبته كاتبا لأبي عبد الرحمان يعقوب بن أبي حفص بن عبد المومن لما كان واليا على إشبيلية، وتولى بعد ذلك القضاء بمدينة سبتة وتصدر للتدريس بها مدة سبع سنوات قبيل وفاته[112]. وتستعمل المصادر عبارة في وصفها لمثل هؤلاء العلماء بقولها كان "ممن ساد بنفسه في العلم ولم يكن فيه سلف"[113].

ج- تعليم البنات

رغم أن الفقهاء كانوا يحبذون تعليم البنت بحكم أنها يشملها طلب العلم كالذكر، فإن بعضهم كانوا لا يرون أن تتعلم كل ما يتعلمه الولد كالكتابة لأنها قد تضر بها في نظرهم [114]، لذا كان نصيبها من التعليم محدودا جدا مقارنة بالذكور. وانحصرت دائرة المتعلمات في صنفين من البيوتات: البيوتات الحاكمة، والبيوتات العلمية الحضرية.

---

(111) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 5 ص229.
(112) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة.... م. س س 8 ص 289-290.
(113) نفسه، س 5 ص 229.
(114) القابسي، الرسالة المفصلة... م.س. ص 292.

في الصنف الأول، اشتهرت بعض بنات الحكام، حسب مكانتهن في سلم هرم السلطة، بنيل نصيب وافر من العلم، ويأتي في مقدمتهن بنات البيت الحاكم؛ إذ أصبح بعضهن عالمات وأديبات شهيرات مثل زينب ابنة يعقوب المنصور في البيت المومني من الموحدين التي "أخذت علم الكلام، وكانت عالمة صائبة الرأي معروفة الشفوف على نساء زمانها محدث بنباهتها [115]. غير أن المستفيدات أكثر من بنات البيوتات الحاكمة من التعليم بالمغرب الوسيط هن النساء المرابطيات، لأن المجتمع المرابطي لم يتخلص كليا من تقاليد الأسرة الأميسية مما مكن المرأة المرابطية من الحفاظ على مكانة تفوق أحيانا وضعية الرجل، واشتهر الكثير منهن بالأدب والعلم كما جاء في كتب التراجم [116]. ولاحظ الوزان في عصره بمدينة تيشيت الصنهاجية أن "النساء هن اللائى يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للبنات والبنين"[117].

أما البيوتات العلمية الحضرية فقد كانت تحرص على تعليم بناتها جل العلوم التي يتعلمها الذكور منهم، مثل أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي التي" نشأت في حجر أبيها لا يدخر عنها تدريجا ولا سهما حتى نهض إدراكها وظهرت في المعرفة حراكها، ودرسها الطب ففهمت أغراضه"[118]، وكانت تقرئ الطب وتنظم الشعر. وتعلمت بنت أبي الحسن الشاري السبتي (ت 649هـ) الحديث على أبيها وأصبحت مسندة محدثة [119]. وتمثل أسرة العبدوسيين بمكناسة مثالا واضحا على تسلسل العلم وتوارثه عدة قرون في نساء البيوتات العلمية بالمدن المغربية خلال العصر الوسيط. يقول عنها ابن غازي: «وهم بيت كبير من بيوت العلم أقام فيهم العلم ورياسته دهرا طويلا حتى في نسائهم وآخر

---

(115) المنوني، العلوم والآداب... م. س، ص 33 نقلا عن تكملة ابن الآبار.
(116) انظر عن بقايا الأسرة الأميسية لدى المرابطين، اسكان الحسين، المجتمع والدولة في العصر الموحدي.. م. س. ص203-221.
(117) الحسن الوزان، وصف إفريقيا... م. س ج 2 ص116.
(118) ابن الخطيب، الإحاطة... م. س. ج 1 ص 430.
(119) الأنصاري، اختصار الأخبار... م. س. ص21.

علمائهم أم هاني العبدوسية"[120]، واشتهرت أختها فاطمة العبدوسية في القرن 9هـ بالعلم، وكانت تحضر مع شقيقتها السابقة ومع جدة أحمد رزوق حلقات ودروس شقيقهما عبد الله العبدوسي (ت 849هـ) "فكانتا فقيهتين صالحتين". وكان تعلم البنات في هذه البيوتات يسهل توارث العلم في أبنائها، إذ يساعد على تعليم الذكور منذ نعومة أظفارهم، كما هو شأن محمد ابن غازي (ت 919هـ) الذي حفظ من أمه رحمة بنت الجنان حديثا كثيرا، في صغره، فلم يتعب في حفظه أثناء الدراسة، كما تعلم منها تفسير قصص القرآن[121]، أو يعزى أوهدى الذي كان لجدته من جهة أمه دور كبير في تربيته وتعليمه[122]، أو عبد الله بن سلمون الكناني (ت741هـ) الذي أجازته سارة بنت أحمد الحلبية، إذ نالت من العلم ما يسمح لها بإجازة أحد كبار علماء فاس وتبادل الشعر مع ابن رشيد السبتي[123].

أما في البادية فقد كان الآباء يرسلون بناتهم للكتاتيب لحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ويندر أن يتعلمن العلوم التي يتعلمها الولدان، وما ذكر في بعض المصادر المتأخرة عن تعلم فتيات البوادي أكثر من الذكور خلال العصر الوسيط تطبعه المبالغة الواضحة [124].

وعلى العموم كان إقبال أبناء الرعية الذين تيسرت لهم الدراسة على العلوم الدينية أكثر من غيرها وخاصة حفظ القرآن قصد التبرك به، وعلى الفقه، وقلما كانوا يهتمون بالعلوم اللغوية والعقلية، إلا بقدر ما يسمح بفهم العلوم الشرعية أو له علاقة بها كعلم الفلك، للحاجة إليه في التوقيت.

---

(120) ابن غازي، الروض الهتون... م. س. ص13.
(121) ابن غازي، الروض الهتون... م. س. ص 24.
(122) المختار السوسي، المعسول... م. س. ج 10ص 167.
(123) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 424.
(124) من ذلك ما ذكره المختار السوسي، من أن 676 رجلا ببني دغودغ في دكالة، و500 صبية ممن اتفق اسمهن مماس، فضلا عمن يسمين بغير هذا الاسم حفظن القرآن والمدونة، المعسول ج4 ص9، كما يقال بأن بمقبرة الكرسفيين في قبيلة أمانوز في سوس جناحا خاصا للنساء الحافظات للمدونة، في القرن 7هـ، السوسي المختار، سوس العالمة... ص 155.

2- تعليم الحكام وخصائصه

يمكن تلخيص أهم مميزات تعليم الحكام في أربع خصائص على الأقل :

أولا، كان الحكام، بوصفهم أرستقراطية متعالية، يستنكفون من تعليم أبنائهم وحشرهم مع أبناء الرعية بالكتاتيب التي يمكن اعتبارها مؤسسة خاصة بأبناء الرعية. فقد كانوا يتخذون بمنازلهم مؤدبين لأبنائهم مقابل أجور مرتفعة، فكل قصر من قصور أعيان الموحدين مثلا بتمراكشت كان مستقلا بمرافقه من حمامات وإسطبلات، ومكان تعليم الأبناء "حتى يغلق الرئيس منهم بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج... **ولا يقرئ أولاده خارج داره**"[125]. وذكرت المصادر والمراجع عددا من المؤدبين في العصر الموحدي[126]، منهم محمد الفهري (ت 618هـ) مؤدب أبناء يعقوب المنصور الذي اقتنى "الضياع الجيدة بمراكش وغيرها، وانتهى استغلاله من رباعه بمراكش وحدها إلى 500 درهم من دراهمهم (أي الموحدين) في اليوم الواحد" [127] ومنهم المؤدبون المختصون في تعليم الخط [128]، بل اتخذ الموحدون مؤدبات كالأديبة حفصة بنت الحاج الركونية (ت 586هـ) التي علمت النساء في دار يعقوب المنصور[129]، فكان التعليم يشمل حتى وصفان وعبيد البلاط.

وفي العهد المريني نجد أن أب الشريف التلمساني كان "يدرس أولاد الشرفاء والعظماء بفاس"[130]، وعبد الله بن أبي مدين الذي اشتغل كمؤدب لأبناء الحاجب الكناني، وأبناء الوزير المريني عمر سعود في النصف الأول من القرن 8هـ[131] كما أن الولاة على الأقاليم كانوا يتخذون المؤدبين، كالوالي المرابطي

---

(125) العمري، الممالك والمسالك... القطعة المنشورة ضمن المنوني، العلوم والآداب... م. س. ص249.

(126) المنوني محمد، العلوم والآداب... م. س. ص 24.

(127) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 5 ص399.

(128) نعرف منهم 4 مؤدبين المنوني، تاريخ الوراقة المغربية... م. س. ص 27.

(129) ابن الخطيب، الإحاطة... م. س. ج1 ص 318، المنوني، العلوم والآداب... م. س. ص 23-24.

(130) التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص 151.

(131) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى... م. س. ص 56-59.

الذي عرض على أحمد بن الصقر الأنصاري (ت 569هـ) ألف دينار مرابطية ليتوجه معه إلى دكالة لتأديب ابنه[132]؛ أو أحمد القضاعي البلوي الذي اضطر بسبب ضائقة مالية حوالي سنة 653هـ إلى الذهاب إلى "حاحة من أعمال مراكش وبواديها لتعليم العربية بني أحد رؤساء البربر" مدة 7 أشهر[133] وهذا القاضي إسماعيل الخزرجي (ت 685هـ)، أدب ابن والي المرينيين على مدينة باديس ب 15 دينار في القرن السابع الهجري [134]، ويطول تعداد الأمثلة عن مؤدبي أبناء الحكام خلال هذه المرحلة.

ثانيا، يختلف تكوين أبناء البيت الحاكم وأعيان عصبيته القبلية عن تعليم أبناء الرعية بالجمع بين التكوين العلمي والأدبي والتدريب العسكري، قصد إعدادهم لتولي وظائف السيف ووظائف القلم، فهو تكوين وظيفي. ويلاحظ هذا في تكوين المولى إدريس الذي رباه مولاه راشد، وأدبه، وعلمه "القرآن فحفظه، وعلمه السنة والفقه والنحو والحديث والشعر، وأمثال العرب وحكمها، وسير الملوك وسياستها، وعرفه بأيام الناس، **ودربه مع ذلك على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكايد الحروب**"[135] وهو ما ربي عليه الخليفة يوسف بن عبد المومن وإخوانه، إذ "أن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف، فنشأ في ظهور الخيل بين **أبطال الفرسان**، وفي قراءة العلم **بين أفاضل العلماء**"[136]. ومن مظاهر هذا التكوين المزدوج ما قام عبد المومن حين استدعى بين سنوات 546-550هـ أطفالا نجباء من أبناء المصامدة من الموحدين من عدة مدن مغربية وأندلسية كإشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان إلى مراكش، منهم 50 طفلا جاءوا من إشبيلية برفقة أستاذين لهم، وبلغ عددهم 3000 طفل كأنهم أبناء ليلة واحدة، ورباهم بحفظ موطأ الإمام مالك وصحيح مسلم «وبحفظ تواليف المهدي، وعلى

(132) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س. ص49.
(133) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 1 ص 459.
(134) البادسي، المقصد الشريف... م. س. ص131.
(135) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 24.
(136) الناصري، الاستقصا... م. س ج 2 ص151.

الفروسية والرماية والسباحة في صهريج كبير، وركوب القوارب مدة ستة أشهر، "وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده، وخيلهم وعدتهم كذلك» [137]، وكان ضمنهم ثلاثة عشر ابنا لعبد المومن، وكلهم خطاطون، وعينهم بعد ذلك على الولايات، وعين معهم أبناء شيوخ الموحدين. كما أوصى يعقوب المنصور شيوخ الموحدين، سنة 595هـ، على طلبة الحضر الذين يدرسون ولي عهده البالغ آنذاك 19سنة، قائلا: "تجعلون لهم موضعا يكون لخاصتهم **يشتغلون فيه بالمذاكرة حتى يشب محمد ويكمل عقله بعقولهم**"[138]. واستمرت بعد هذا تربية الأمراء وأبناء الأشياخ بمدرسة القصر حتى نهاية القرن 6هـ. فقد ربي الناصر ولد الشيخ أبي محمد بن أبي حفص مع ولده يوسف المستنصر واختصه كولده. ونظرا لهذا التكوين المزدوج، كان للحفاظ من أبناء أشياخ الموحدين تكوين وثقافة واسعة مع كفاءة عسكرية وسياسية في الغالب، مثل يحيي ابن سنان من أبناء الخمسين الذي تولى على حصن طبيرة وشنتمرية العليا سنة 565هـ، مدة 12سنة، ثم نقل بعدها إلى أشغال مرسية، ومكنه تكوينه من أن يعد "من أحد الطلبة المتفننين في العلوم المتطلبة على مذاهب الأيمة بالمعقول والمفهوم" كان قد حفظ كتاب الموطأ وعرضه في مجلس عبد المومن، وظهرت نجابته قبل الأربعين من عمره[140]. وهذا التعليم الأولي الذي تلقوه يؤهلهم للمرحلة الموالية لتركيزه على اللغة والأدب والخط.

ثالثا، عقد المجالس العلمية: بعد التكوين الأولي للأمراء وأبناء أعيان العصبية الحاكمة على يد المؤدبين، يعينون على رأس الولايات لإدارتها، فيحتاجون إلى استكمال تعليمهم، ولا يمكنهم القيام برحلة في طلب العلم كأبناء الرعية، لذا كان

---

(137) مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر زمامة، وسهيل زكار. ط. دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء 1979م. ص 150-151، ابن القطان، نظم الجمان.... م. س. ص139-140.

(138) ابن عذاري، البيان المغرب... قسم الموحدين. م. س. ص232.

(139) التجاني، رحلة التجاني... م. س. ص361.

(140) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة... م. س ص9-310، 217-218، وعن حفاظ آخرين، نفسه، ص128، 75، 66، 295.

يوجه مع كل أمير منهم كاتبا مشهورا "**على جهة التأديب والتعليم**"(141)، كما فعل عبد المومن مع أبنائه عندما عينهم ولاة على مدن الإمبراطورية. فكانوا يعقدون المجالس العلمية في ولايتهم، مثل يوسف بن عبد المومن الذي "كان مؤثرا للعلم، شديد التعطش إليه، وكان أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، **صرف عنايته لذلك أيام كونه بإشبيلية واليا عليها في حياة أبيه**"(142). وعندما تولى الحكم استمر في ذلك، بل كان يشتغل بالمذاكرة مع طلبة الحضر في المسائل العلمية حتى أثناء الحرب كما حدث في حصار وبدة سنة 567هـ، إذ ذهب إليه قائد أندلسي يطلب منه العون "فلم يجاوبه لانشغاله مع الطلبة في المذاكرة"(143). وتقتضي عادة عقد المجالس العلمية جلب العلماء وهو ما أصبح بدوره عادة أخرى.

رابعا، عادة استجلاب كبار العلماء: وبما أن الأمراء وأبناء أعيان الحاشية لا يستطيعون حضور حلقات العلماء الكبار بالمساجد لانشغالهم بتسيير الشؤون الإدارية، أو لترفعهم عن ذلك، فقد كانوا يستدعون إلى بلاطهم أفضل العلماء للأخذ عنهم، سواء بدار الملك أو في الولايات التي يتولون تسييرها. فعوض أن يقوموا بالرحلة في طلب العلم كعادة أبناء الرعية، كانوا يستجلبون العلماء الكبار في كل فن ومن كل ناحية إلى دار ملكهم، كما فعل الأغالبة في القيروان بإفريقية إلى نهاية القرن3هـ (144)، وكما فعل الأمويون بقرطبة. وفي المغرب انقطع إلي يوسف ابن تاشفين بعد ضم الأندلس من طرف المرابطين "من أهل كل علم فحوله **حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم**"(145)، كما "اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"(146).

---

(141) مجهول، الحلل الموشية... م. س. ص151.
(142) المراكشي، المعجب... م. س. ص346.
(143) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة ... م. س. ص406-408.
(144) المراكشي، المعجب... م. س. ص502.
(145) نفسه، ص 243.
(146) نفسه، ص 243، 255.

ولم يخالف الموحدون هذه العادة، "وكان عبد المومن مؤثرا لأهل العلم، محبا لهم، محسنا لهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم"[147]. من ذلك أنه أقرضهم مالا أول الأمر للاتجار به وتحسين وضعيتهم المادية [148]، ومنها استدعاء الشعراء سنة 555هـ بجبل طارق لأول مرة في تاريخ الدولة الموحدية [149]. ومنذ هذا التاريخ أصبح استدعاء العلماء والأدباء عادة متأصلة، إذ"جرت عادة الموحدين بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن، وخاصة أهل علم النظر، فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقلون. ولا بد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم، من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم"[150]، ويستدعون في الغالب طوعا، لكن قد يحدث أن يستدعي البعض رغما عنه كما حدث في عهد أبي عنان الذي اختار الشريف التلمساني (770-771هـ)"لمجلسه العلمي مع من اختار من المشيخة ورحل به إلى فاس فتبرم الشريف من الغربة واشتكى فغضب السلطان لذلك"[151]. ويشار في كتب التراجم لهؤلاء المستدعيين بأنهم"من طلبة المجلس السلطاني"[152]. وممن "دعي لمراكش للسماع عليه" عبد الله الحجري (ت 590هـ) نظرا لسنده العالي [153]. وفي العصر المريني كان أبو الحسن، مثلا، "يعتني بجمع العلماء لمجلسه، فاستدعاه (أي الآبلي) من فاس فنظمه في طبقة العلماء، فعكف على التدريس والتعليم ولازمه"[154].

ونتيجة لاستجلاب العلماء تصبح دار الملك تعج بالعلماء من كل فن، وتصبح أيضا "**دار العلم**" وأكبر المراكز العلمية في الدولة، وبلغ مثلا عدد العلماء

(147) المراكشي، المعجب.... م. س. ص 293.
(148) ابن القطان، نظم الجمان... م. س. ص 137-138.
(149) المراكشي، المعجب... م. س. ص311.
(150) نفسه، ص 484.
(151) التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج ... م. س. ص256.
(152) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 8 ص560.
(153) نفسه، ص 135.
(154) التمبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج ... م. س. ص 245.

المرافقين لأبي الحسن المريني إلي إفريقية 400 عالم[155]، وإليها يشد الطلاب الرحال لطلب العلم. ولا يستجلب العلماء فقط للمجالس العلمية بل لتولي بعض المهام كالكتابة وغيرها، وقصد التجمل والتفاخر والتباهي بهم[156]. ونظرا لأهمية المجالس العلمية، نتوقف عند تطورها واستعراض بعض نتائجها على الحياة الفكرية بالبلاد.

3- *المجالس العلمية*

كانت طبيعة المجالس العلمية التي يعقدها الحكام تختلف، حسب الدول المتعاقبة على حكم المغرب، وحسب عمر الدولة وأوضاعها السياسية والاجتماعية. في العهد المرابطي، كان الجيل الأول من الأمراء حتى عهد يوسف بن تاشفين غير متعلمين، وليست لهم سوى ثقافة دينية شفوية تلقوها على يد الوعاظ، مثل عبد الله بن ياسين برباطه في الصحراء. لكن الجيل الثاني تكون على يد المؤدبين تكوينا علميا متينا، وكان من بين مؤدبي الأمراء في العهد المرابطي ابن حرزهم مثلا (157). فحرص هذا الجيل على التعمق في العلوم، مثل علي بن يوسف الذي حرص على الحصول كباقي طلاب الحديث على السند العالي فيها والإجازة. وكان أبو عبد الله الخولاني، الذي كان له سند عال من ضمن الشيوخ الذين أجازوه (158). وكما فعل الأمير إبراهيم بن تاشفين، حين أرسل إلى أبي علي الصدفي وهو في مجلس درس للقدوم عليه لسماع الحديث عليه" ورغب إليه أن تكون له منه دولة في منزله، فأسعفه، على أن يصل بعد الفراغ من إسماع أصحابه والقيام من مجلسه" (159). فكان أمراء هذا الجيل يعقدون المجالس العلمية في دار ملكهم مثل المجالس التي تعقد في عهد علي

---

(155) المقري، نفح الطيب... م. س. ج 6 ص214-215.
(156) صحب يعقوب المنصور، سنة 582 هـ، إلى إفريقية العالم ابن الفخار مباهيا به، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 6ص 78-90.
(157) ابن الزيات، التشوف... م. س. ص169.
(158) ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت 1995، ج 2 ص56.
(159) ابن الآبار، المعجم، ص 54-55.

بن يوسف (ت-537- 500هـ). فعندما وصل بن تومرت لمراكش اقترح الوزير ينتان بن عمر على الأمير: "أشركه في بساطك يعلمنا العلم" [160]. أهم ما يميز مجالس المرابطين هيمنة الدراسات الفقهية عليها، نظرا لتحكم الفقهاء، خاصة الأندلسيين منهم، في زمام الأمور في عهدهم.

وكانت دروس هذه المجالس موجهة لأبناء البيت الحاكم ولأعيان العصبية اللمتونية. ومن المستفيدين منها، ميمون بن ياسين اللمتوني (ت 530هـ) من قبيلة بني محمد اللمتونية، من رؤساء لمتونة المشتهرين بالعلم، والذي قام برحلة إلى المشرق وحمل معه كتبا كثيرة وأخذ عنه العلماء الكبار بالمدن المغربية والأندلسية [161]، ومنصور بن داوود بن عمر اللمتوني (ت 550هـ) الذي كان من المحدثين الكبار، وقد اقتنى من الكتب ما لم يكن لأحد مثله في عصره، وهو فخر لمتونة العلمي ممن دخل الأندلس[162]، ومحمد بن تاشفين بن يوسف بن أبي بكر من كبار المعتنين بالعلم والرواية[163]. ومن مواليهم المستفيدين محمد بن خير مولى إبراهيم بن محمد بن يغمورااللمتوني (ت 573هـ) الذي اشتهر بكثرة شيوخه الذين يتجاوزن المائة، وتنافس الناس على الأخذ عنه في القرن 7هـ. كما عقدت النساء المرابطيات، نظرا لوضعيتهن الاجتماعية، مثل هذه المجالس وأنشدن الشعر[164].

في العهد الموحدي، بلغت المجالس العلمية التي شهدها المغرب الوسيط، درجة رفيعة من حيث الغنى الفكري والتنوع العلمي والضخامة. فهي دولة وضع أسسها عالم يدعو إلى التعليم والتحريض عليه، ويبدأ مؤلفه بجملة "أعز ما يطلب، وأفضل ما يكتسب، وأنفس ما يدخر، أحسن ما يعمل، العلم الذي جعله

---

(160) البيدق، أخبار المهدي... م. س. ص28.
(161) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س8 ص405.
(162) نفسه، س8 ص 378.
(163) نفسه، س8 ص 283.
(164) تعود مكانة المرأة وبروزها كزينب النفزاوية في الدولة المرابطية إلى كون الأسرة في المجتمع الصنهاجي أميسية، اسكان الحسين، الدولة والمجتمع ... م. س. ص 213 وما بعدها.

الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير"(165). وقد اعتاد ابن تومرت أن يناظر علماء المدن التي مر منها في طريق عودته من المشرق، ومن أشهر مناظراته مع العلماء المناظرة التي عقدها في بلاط المرابطين بمراكش، والتي كان له فيها الشفوف على المتناظرين معه(166). وعندما أسس نواة دولته بتينمل سنة 518هـ، أدمج الطلبة ضمن تنظيماتها الإدارية (يسمون طلبة الموحدين)، وأضيف إليهم بعد فتح مراكش، سنة 541هـ، طلبة المدن الذين سموا بطلبة الحضر، تمييزا لهم عن الطلبة المنتمين للقبائل الموحدية، وعين عليهم عبد المومن نقيبا يعرف بمزوار الطلبة. وكانوا يجتمعون في مكان خاص بهم بجوار خزانة الكتب في القصر يعرف بمحاضر الطلبة (167) أو بالمدرسة حسب العمري الذي لاحظ أن : "في هذه الرحبة المدرسة وهي مكان جليل به خزائن الكتب"(168). ويذكر الحسن الوزان أن ضمن بقايا قصور تمراكشت الموحدية قصر مخصص لمدرسة الأمراء، وهو"قصر جميل آخر يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته، ترى فيه قاعة مربعة في غاية الحسن، يحيط بها ممر مع نوافذ رائعة ذات زجاج ملون، وحول القاعة خزانات كبيرة مصنوعة من الخشب المزخرف بنقوش مذهبة، طليت مختلف أجزائها بطلاء الذهب وباللازوردي الرفيع"(169).

كان من بين المهام العديدة لمزوار الطلبة، الإشراف على تنظيم عقد المجالس العلمية والمناظرات التي اعتادت الدولة أن تعقدها منذ انطلاقتها، وكانت تخضع لترتيب معين، فكان يجلس بجوار الخليفة، الخطيب بصفته مزوار الطلبة، يليه قاضي الجماعة، ثم مزوار الأطباء، ثم كبار العلماء حسب مراتبهم(170). وكانت تعقد مجالس خاصة لكل فن، منها مجالس للأدب وأخرى للعربية (171)،

(165) انظر تحليل النجار لهذه الجملة، المهدي بن تومرت... م. س. ص 163 وما بعدها.
(166) البيدق، أخبار المهدي... م. س. ص 27-28، المراكشي، المعجب.... م. س. ص271-274.
(167) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة.... م. س س 8 174
(168) العمري، المسالك والمالك، المنشورة، في العلوم والفنون... للمنوني م. س. ص 250.
(169) الوزان، وصف إفريقيا.... م. س. ج1 ص 105.
(170) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء وطبقات الأطباء... م. س. ص529، المنوني، العلوم والآداب.. م. س. ص 39.
(171) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء وطبقات الأطباء... م. س. ص533.

وثالثة لعلم الأصول كالتي كان ابن عات يحضرها؛ ومجالس للحديث، وكان محمد العجلاني الفاسي (ت 609هـ)، هو المعين لقراءة الحديث لحسن صوته وطيب نغمته[172]، ثم أبو الحسن ابن القطان لتريثه في القراءة (ت 628هـ)[173]. وكانت هذه المجالس تفتتح بإلقاء الأسئلة، "فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه، وكان عبد المومن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم"[174]. وكان من عادة المنصور "كلما وقعت إليه مسألة غريبة، وقد وقع شذوذها ذكرا أو فهما عن الحاضرين بمجلسه من أهل العلم. أجرى ذكرها بينهم، فوقعت المذاكرة فيها حتى إذا استوفى كل منهم ذكر ما حضره فيها ثم يعقب عليهم باستقصاء ما لم يذكروه من الأجوبة". وكان عدد العلماء الذين يحضرونها كثيرا في بعض الفترات، يعرف منهم أكثر من 11عالما استدعوا لسماع العلم عليهم[175]. وتصفهم كتب التراجم بجملة "كان من طلبة المجلس السلطاني" [176] وكان هؤلاء العلماء يعقدون أيضا مجالس عامة في المساجد الجامعة بمراكش، مثل أبو بكر محمد السلاقي (ت 601هـ) الذي كان يدرس علوما مختلفة في جامع المنصور من قراءات وعربية وغيرهما[177]، وخلفه في مجلسه صهره محمد الياني الأنصاري حتى وفاته سنة 617 هـ [178]. وكان جل الذين يحضرون هذه المجالس يدرسون بهذا المسجد، كأبي بكر بن ميمون العبدري (ت567هـ).

وكان الأمراء بدورهم يعقدون مثل هذه المجالس العلمية في المدن التي يديرونها، مثل مجالس الأمير الموحدي أبي زكرياء يحي التي كان يحضرها

(172) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة.... م. س. س8 ص278.
(173) نفسه، س 8 ص169.
(174) المراكشي، المعجب... م. س. ص 484.
(175) المنوني، العلوم والآداب... م. س ص40-41.
(176) العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س. ج 8 ص 382. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س8 ص560.
(177) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 6 ص381.
(178) نفسه، س 6 ص 385.

المراكشي[179]، أو المجالس التي كانت تعقد في تينمل، ومن الذين شاركوا فيها أحمد بن مضاء القرطبي الذي التحق بها في العشر الأربعين وخمسمائة[180].

في العهد المريني، سرعان ما اقتبس المرينيون عادة عقد المجالس العلمية، رغم أصولهم البدوية، وعدم قيام الفقهاء بدور مهم في المرحلة الأولى لظهور دولتهم. وقد عقدوا مجالس علمية منذ الجيل الثاني، مثل أبي يوسف يعقوب (655-685هـ) الذي كان رغم ضعف تكوينه العلمي، تقرأ بين يديه كتب السير والقصص وفتوح الشام، وسار خلفاؤه على نفس النهج. وكانت أشهر المجالس المرينية هي مجالس أبي الحسن المريني التي وصفها ابن مرزوق بتفصيل كبير، وذكر أنها كانت تعقد حسب انشغالاته إما بعد الصبح، أو بعد العصر، أو بين العشائين. وكانت الكتب التي تدرس في مجلسه هي كتب الفقه، وكتب الوعظ والرقائق والحديث، خاصة صحيح البخاري[181]. ولا تقتصر هذه الدروس على الحضر بل كانت تعقد في الأسفار، مثل مجلس الحديث من صحيح البخاري الذي عقده أبو الحسن على نهر أم الربيع، سنة 745هـ، وحضره ابن الحاج النميري[182]. ومنها المجالس التي عقدت بمدينة تونس واقترح فيها العالم أبو عبد الله السطي (ت 749هـ) على أبي الحسن أن يضم إليها الفقيه التونسي ابن عرفة وأن يلازم مجلس السلطان قائلا له :"حتى ينتفع به أصحابنا، وتنتفع بطريقته"[183]. وعقد أبو عنان مجالس علمية مماثلة لمجالس أبيه من حيث نوعية العلوم المدروسة [184]، كما كان بدوره يعقدها في أسفاره وحركاته، واعتاد أن يحمل معه خزانة الكتب لذلك، ومن ضمن المكلفين بحزم كتبها وحملها أبو الربيع سليمان البرغواطي[185].

---

(179) المراكشي، المعجب... م. س. ص 356.
(180) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 1 ص 212.
(181) ابن مرزوق، المسند ص138، 122، المنوني، ورقات ص 194.
(182) ابن الحاج النميري، المذكرات المنشورة De Premare. Maghreb et Andalousie ... op. Cit. p. 17
(183) المقري أحمد، أزهار الرياض... م. س. ج 3 ص 28.
(184) وصف ابن بطوطة ما يدرس من العلوم في هذا المجلس، رحلة ابن بطوطة. ط. المكتبة التجارية الكبرى. مصر 1964. ص 183.
(185) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س. ص 283.

وتتميز مجالس المرينيين، عن أسلافهم الموحدين، بالاقتصار على دراسة كتب الفقه وكتب الوعظ والتصوف منذ البداية، وبالميل نحو التضييق على الحرية الفكرية، فهي مجالس للقراءة أكثر مما هي للمناظرة، كما يظهر من موقف أبي الحسن الذي "كان ينهى عن الخوض في أدلة المعتزلة وغيرهم ويزدجر ذاكره" أثناء دراسة كتاب الإرشاد لأبي المعالي في علم الكلام"[186]. كما كانت تعقد مجالس الحديث للتبرك به وتزايد الاهتمام بصحيح البخاري، منذ تلك الفترة، للاعتقاد بأنه يفرج الشدائد[187]. وبدأت دراسة الحديث لدى عدد من الطلاب تفقد الكثير من الصرامة العلمية السابقة، إذ أخذت الإجازة الشكلية تحل محل الرواية المباشرة عن الشيوخ، وأصبح الكثير من الطلاب يصرفون جزءا من أعمارهم في إحصاء الروايات بهدف الانتساب إلى أكبر عدد من الشيوخ، وليس بهدف تحقيق الألفاظ والمعاني ونقد السند. ولعل عنوان فهرسة ابن غازي الذي سماه "التعلل برسوم الإسناد"، يشير إلى هذا الوضع الذي آلت إليه دراسة الحديث. ومع تنامي حركة التصوف وانتشارها، أصبحت تغلب على دراسة الحديث المظاهر الاحتفالية، حيث كان الحكام والعامة، يحضرون عند بعض الفقهاء حفل اختتام صحيح البخاري في رمضان[188]، بل يحضره السلطان بنفسه، كما فعل أبو عنان عندما حضر بمدرسته بفاس[189]. وشاع آنذاك بين بعض المتعلمين بفاس، أن تحرير بعض المدن كالمعمورة تم بفضل تدريس كتاب الشفاء للقاضي عياض في السيرة النبوية [190]. وكان تدريس الحديث، في الغالب، يتم في شهور رجب شعبان ويختم في رمضان. وتدريسه في هذه الشهور، عوض تدريسه في الفصل الدراسي الأساسي من السنة، أواخر الخريف إلى أوائل الربيع، يدل على أن مكانته كانت ثانوية.

---

(186) ابن مرزوق، المسند الصحيح... م. س. ص 113.

(187) ابن فرحون، الديباج... م. س.. ص 326.

(188) نفسه، ص326، السوسي، سوس العالمة... م. س. ص 36.

(189) ابن الأحمر، بيوتات... م. س. ص 64، وانظر عن استمرار هذه العادة في القرن 10هـ، الكلالي إبراهيم، قطعة من «المسألة الأملسية..» م. س. ص 247-257.

(190) المقري، أزهار الرياض... م. س. ج 5 ص 85، 89.

وبالإضافة إلى مجالس دار الملك، كان الأمراء يعقدون مجالس علمية في مدن الولايات التي يتحملون إدارتها، ولا تقل أهمية عن مجالس دار الملك[191].

4- *نتائج المجالس العلمية*

كان من أهمها :

أ- أن أصبح أغلب ملوك وأمراء المرابطين والموحدين والمرينيين، علماء كبارا لهم ثقافة موسوعية كبيرة وتكوين علمي جيد كالخلفاء الموحدين، وفي مقدمتهم عبد المومن[192]، ثم ابنه يوسف بن عبد المومن الذي كان له تكوين رفيع [193]، أو يعقوب المنصور مثلا[194]، أو أبي عنان [195]. وكأنهم بتكوينهم الرفيع هذا يستجيبون للشرط النظري الذي كان الفقهاء يشترطونه في متولي منصب الخلافة، وهو صفة العلم : "فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذا لأحكام الله إذا كان عالما بها، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها، ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهدا، لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال"[196].

ب - تتميز سوق العلم لدى العصبية الحاكمة بالبلاط وبقصور الأمراء ببعض الحرية مقارنة بسوق الرعية، ولو خلال فترة قصيرة من عمر الدولة، ولكنها، رغم قصرها، تكون حاسمة ومتوهجة ومؤثرة على تطور العلوم، خاصة على تطور العلوم العقلية والأدبية منها. ويمكن أن نلاحظ هذا التفتح من خلال

---

(191) للمزيد من المعلومات حول المجالس الموحدية، انظر المنوني محمد، العلوم والآداب... م. س. ص39-41.

(192) ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. ص 203.

(193) المراكشي، المعجب... م. س. ص 346-347 انظر عن صفة العلم لدى حكام الموحدين النجار، المهدي بن تومرت.. م. س. ص 382-385.

(194) المقري، نفح الطيب... م. س. ج 3 ص99، 104 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب... م. س. ص 215.

(195) حسب الناصري، الاستقصا... م. س. ج 3 ص 203-205 «كان فقهيا يناظر العلماء الجلة، عارفا بالمنطق وأصول الدين، وله حظ صالح من علمي العربية والحساب، وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه، حافظا للحديث عارفا برجاله، فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع.

(196) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 342.

نموذج تعامل الدولة الموحدية مع الفلسفة الذي يبدو متناقضا : انفتاح على الفلسفة وتشجيعها، في فترة يوسف بن عبد المومن (558-580هـ)، الذي اشتهر باهتمامه وعنايته الفائقة بالعلوم النظرية ومنها الفلسفة، وجمع كتبها حتى اجتمع له منها قريب ما اجتمع للحكم المستنصر الأموي، وبالبحث عن علمائها إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب، ومنهم أبو بكر بن طفيل، وهو الذي نبه على أبي الوليد محمد بن رشد، وبإيعاز من الخليفة يوسف لخص هذا الأخير كتب أرسطاليس وشرحها[197]. لكن بعد أقل من 30 سنة من تشجيع ورعاية الموحدين للفلسفة ومن الانفتاح عليها، سيقلبون لها ظهر المجن ويحاربونها، سنة 593هـ، على يد يعقوب المنصور الذي اضطهد الفلاسفة، وفي مقدمتهم ابن رشد. إذ تعرضوا للعنات الناس وبصاقهم واتهامهم بالزندقة. فلماذا هذا التعامل المتناقض مع الفلسفة، ومع الشخص ذاته في أقل من فترة جيل واحد؟

قدم أحد الباحثين تفسيرا لنكبة ابن رشد ومحاربة الفلسفة في هذه الفترة[198]، وحاول أن يتجاوز الأسباب المباشرة التي وردت في المصادر التاريخية، وأن يعطي تفسيرا علميا موضوعيا لها، وانتهى إلى أن سببها الأساسي كان سياسيا يتمثل في حادثين: حادث تأليف ابن رشد لكتاب "جوامع سياسة أفلاطون" الذي كان يتضمن انتقادا للأوضاع السياسية بالأندلس؛ وحادث وقوف ابن رشد بجانب أخ المنصور الذي حاول الثورة عليه بالأندلس سنة 586هـ. ولم يلاحظ أن النكبة لم تطل ابن رشد وحده، بل نكب معه عدد من الفلاسفة الآخرين مثل محمد بن إبراهيم المهري[199] قد يكون لهذا التفسير جانب من الصواب، لكنه لا يكفي وحده لفهم هذه النكبة، إذا لم توضع في سياقها التاريخي

---

(197) المراكشي، المعجب.م. س. ص 354-394، انظر عن وصف محتويات خزانة الأمويين بالأندلس، الحلة السيراء ج 1 ص 200.

(198) الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية الإسلامية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، منشورات مركز الدراسات الوحدة العربية، ص119-153.

(199) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 8 ص 271-272.

الذي أفرزها، والمتمثل في تغيير الوضعية الاجتماعية والسياسية للدولة الموحدية في عهد يعقوب المنصور عما كانت عليه في عهد أبيه يوسف: فاهتمام يوسف بالفلسفة والعلوم النظرية لا يعود فقط إلى ميوله الشخصية أو إلى شرف نفس وعلو همة هذا الخليفة حسب تبرير المؤرخ عبد الواحد المراكشي[200]، بل جاء في ظرفية تميزت بكثرة الأموال لدى الموحدين، وبالاستقرار النسبي للأوضاع السياسية والأمنية داخل الإمبراطورية الموحدية، نظرا لتحكم عصبية الدولة في زمام الأمور من خلال اعتمادها على إمكانياتها العسكرية الذاتية، وعلى عدلها النسبي تجاه الرعية، "فلم يكن في بني عبد المومن، فيمن تقدم منهم ومن تأخر، ملك بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا" [201] وبعبارة أخرى، كان يوسف حرا ولا يحتاج إلى قوة عسكرية من غير العصبية الموحدية الحاكمة للحفاظ على وحدة وأمن الإمبراطورية الشاسعة، فقد أغنته تلك القوة عن الحاجة إلى التحبب للرعية والتقرب منها. هذا الوضع الملائم سينقلب، في أواخر عهد يعقوب المنصور، حين أصبحت العصبية المصمودية الحاكمة متخاذلة ومتهاونة، وتزايد ظلمها للرعية لأسباب اقتصادية واجتماعية، سبق لنا بسط القول فيها، في مكان آخر [202] ومن شأن ذلك أن يهدد الأمن الداخلي والخارجي للإمبراطورية. وهذا التحول هو ما دفع بيعقوب المنصور إلى التحبب والتقرب للفقهاء والمتصوفة والرعية لكسب تأييدهم، بطرق مختلفة، لمواجهة الخطر المسيحي بالأندلس، وللتخفيف من حدة ثورات الرعية في الداخل، مما دفعه إلى محاربة الفلسفة والأمر بإحراق كتبها في جميع بلاده، ونكبة المشتغلين بها وأولهم ابن رشد. ومن الدلائل الإضافية على أن المسألة لها علاقة بظرفية سياسية محددة بالأندلس، أن يعقوب المنصور عفا عنهم بعد سنتين [203] ويذكرنا موقف يعقوب المنصور هذا من الفلسفة والفلاسفة بموقف الحاجب ابن أبي عامر الذي

---

(200) المراكشي، المعجب... م. س. ص 347.

(201) نفسه، ص 355.

(202) اسكان الحسين، الدولة والمجتمع... م. س. ص 308- 307، 309-314.

(203) المراكشي، المعجب... م. س. ص435 -337، انظر كذلك ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. ص 272، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء وطبقات الأطباء... م. س ص 532.

أحرق بدوره كتب الفلسفة، رغم اشتغاله بها، لأنه كان في حاجة إلى كسب تأييد الرعية والعلماء لإضفاء الشرعية، على اغتصابه لملك الأمويين بالأندلس، أواخر القرن 4هـ [204] ويذكرنا كذلك بموقف العباسيين الذين امتحنوا ابن حنبل مع جماعة أخرى من العلماء، بين سنوات (118-234هـ)، في مسألة خلق القرآن، لكنهم اضطروا إلى الرجوع إلى رأي أهل المذهب السني بعد ذلك، سنة 234هـ، على يد المتوكل [205]. ومثل هذه الظرفية السياسية والاجتماعية هي ما يفسر الموقف المشابه الذي اتخذه المرينيون من الفلسفة ويفسر- جزئيا- اختلاف مجالسهم العلمية عن سابقتها لدى الموحدين، إذ لم تكن لهم عصبية قبلية قوية مستقلة بذاتها كافية للحكم وحدها، تستطيع فرض تصوراتها وأفكارها بحد السيف.

ج-كانت هذه المجالس تغني الحياة الفكرية والأدبية وتساهم في تطورهما؛ فبفضل تشجيع الحكام ورعايتهم، ظهرت أهم المؤلفات العلمية والأدبية، إما بطلب مباشر من الحكام، مثل مؤلفات ابن رشد الحفيد بمراكش التي وضعت بطلب من يوسف بن عبد المومن، وإما أن يؤلفها أصحابها للتقرب بها من الحكام. وهكذا يتضح أن ازدهار أو ضعف الحياة الفكرية والنشاط التعليمي مرتبط إلى حد ما بقوة الدولة وضعفها، ويعود ضعف التعليم والحركة الفكرية بالمغرب الأقصى، قبل القرن الخامس الهجري، إلى غياب دولة مركزية تنفق سوق العلم، عكس ما سيحدث بعد ذلك، حتى منتصف القرن 8هـ، حين سيضعف، من جديد، مع ضعف الدولة المرينية. وتعمل الدولة كذلك، بطرقة مباشرة أو غير مباشرة، على نشر وسيادة مذهب فقهي أو فكري، كالمذهب المالكي في العهد المرابطي، أو المذهب التومرتي في عهد الموحدين كما سنرى [206] .

---

(204) المقري، نفح الطيب... م. س. ج1 ص221.

(205) الجابري، المثقفون في الحضارة ... م. س. ص 68-110.

خلاصة

إذا كانت الفوارق السابقة في التعليم، بين الرعية والحكام وبين البوادي والمدن، مقبولة إلى حد ما في الفترة الممتدة، من القرن 2هـ إلى القرن 6هـ، أي في الوقت الذي كان يترسخ فيه إسلام أغلبية سكان المغرب، والمتزامن مع تفوق الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط على الضفة الشمالية، ومع ظرفية اجتماعية واقتصادية وسياسية ملائمة شبيهة بما حدث في العصرين المرابطي والموحدي، فهل ستكون هذه الفوارق الشاسعة مقبولة في القرن السابع الهجري بعد كارثة معركة العقاب، سنة 609هـ، التي غيرت كثيرا من المعطيات السابقة؟ هل يمكن ضمان استمرار تعليم الرعية، بعد أن أصبحت مسلمة وسنية، بطريقة التمويل الذاتي السابقة؟ أم لا بد من إيجاد طريقة تمويل جديدة؟ هذا ما يتطرق له الفصل الموالي.

الفصل الثاني

نحو تعليم مجاني بين القرن 7هـ/13م والقرن 9هـ/15م

حدثت، خلال القرن 7هـ، تحولات تدريجية ومهمة، همت بالأساس طريقة تمويل التعليم، التي تحولت من التمويل الذاتي للمتعلمين إلى التمويل بواسطة الأحباس. وتجسد ذلك في ظهور مؤسسة جديدة هي المدرسة، التي أثرت طريقة تمويلها بالأحباس على المؤسسات التعليمية السابقة لها. فما هي المدرسة؟

I- ظهور المدارس وتغيير طرق تمويل التعليم في القرن 7هـ

لعبت المدرسة، بوصفها مؤسسة جديدة تنضاف للمؤسسات التعليمية بالمغرب في القرن السابع الهجري، دورا مهما في تطور المسار التعليمي بالمغرب الوسيط وما بعده، إذ غيرت كثيرا من التقاليد التعليمية الإسلامية التي كانت سائدة قبل ظهورها في القرن السابع الهجري وأرست تقاليد جديدة، وأثرت بصفة خاصة في طرق تمويل التعليم وفي أهدافه وحتى في مضامينه، إلى غير ذلك من التغييرات. وقبل متابعة ورصد أهم التحولات التي أحدثها ظهور المدرسة على التقاليد التعليمية، من الضروري أولا، إعطاء تعريف للمدرسة كمؤسسة تعليمية متميزة، وتحديد تاريخ ظهورها بالمغرب الأقصى وبالغرب الإسلامي عموما، والتعريف بالظرفية التاريخية العامة لظهورها، وتحديد الملابسات العامة لانتشارها الجغرافي في ربوع البلاد بعد ذلك، والوقوف، أخيرا، عند تأثيرها في مسار تطور التعليم المغربي خلال القرن السابع الهجري وما بعده.

1. *مفهوم المدرسة*

قد يتبادر إلى الذهن عند سماع لفظ المدرسة أن مفهوم المدرسة لا يتجاوز معناها اللغوي الذي يعني أي مكان تلقى فيه الدروس، سواء كان هذا المكان مسجدا أو رباطا أو زاوية أو منزلا... غير أن للكلمة مفهوما تاريخيا محددا ودقيقا، يختلف عن المعنى اللغوي وعن مفهوم المؤسسات التعليمية السابقة؛ وينبغي التعرف عليه رفعا لكل التباس أو خلط تاريخي بينه وبين تلك المؤسسات وأماكن الدراسة خلال العصر الوسيط. ويمكن القول إن المدرسة مؤسسة تعليمية جديدة ظهرت في المشرق خلال القرن الخامس الهجري، وتتميز عن غيرها من المنشآت التعليمية بأربع ميزات أساسية :

الميزة الأولى: هي بناية مستقلة عن أية بناية عمومية أخرى كالمسجد مثلا، وتنحصر مهمتها **في القيام بوظيفة واحدة** هي التعليم دون غيرها، على عكس المسجد أو الرباط أو الزاوية التي كانت تزاوج بين التعليم ووظائف أخرى عديدة، كالعبادة أو الجهاد أو الإطعام بالرباطات، مثلا.

الميزة الثانية: تعتمد كليا في أداء وظيفتها التعليمية **على الأحباس** الموقوفة عليها والتي يخصص مدخولها للإنفاق على الطلاب الغرباء والفقراء المسجلين بها، وتوفر لهم مؤونتهم ولباسهم السنوي، وتؤدى منها أجور المدرسين والقائمين على تسييرها. وتشمل أحباسها خزانة من الكتب العلمية الموقوفة لفائدة الطلاب المنتمين إليها؛ كما تتوفر بنايتها على غرف لإيواء الطلاب الغرباء. فالمدرسة تعفي الطلاب، بفضل موارد أحباسها، من تحمل مصاريف الأمور التي كانوا مضطرين لتحملها قبل ظهور المدرسة، وهي أربعة: أجرة المدرسين، وتكاليف المبيت، ومصاريف الأكل واللباس، وشراء الكتب الدراسية أو كرائها لنسخها؛ بل يكون ضمن أحباسها أحيانا مقبرة لدفن من يتوفى من

---

(206) انظر نقطة المحتوى الدراسي في الفصل الثالث من هذا العمل.

طلابها، كما هو الشأن بأقدم مدرسة بسبتة (207). ويمتد هذا الإعفاء لمدة سبع سنوات (208). وبهذه الطريقة حولت المدرسة التعليم من تعليم مؤدى عنه، في أغلب الأحيان، يموله الطلاب أنفسهم، إلى تعليم مجاني يعفي الطلاب الفقراء من عادة الجمع بين العمل والدراسة. والهدف من اختيار طريقة التمويل المجاني بواسطة الأحباس، هو ضمان نوع من الدوام والاستمرارية لنشاطها.

ومعلوم أن أحباس المدرسة كغيرها من الأوقاف، أصلها أملاك شخصية للمحبسين سواء كانوا من الرعايا أو من الحكام. والحاكم عندما يحبس على المدرسة، يتصرف كغيره من المسلمين الأتقياء ويحبس على نشر العلم ابتغاء مرضاة الله. ولا ينبغي أن نفهم أن بناء المدارس من طرف السلاطين على أنه عمل رسمي، أو على أنه مظهر من مظاهر تدخل الدول في الميدان التعليمي قصد توجيهه. لقد كان القضاة والأئمة وغيرهم من الأطر قبل ظهور المدارس يتلقون أجورهم مباشرة من بيت المال، وكانوا كذلك بجانب هذه المهام يدرسون، ولا يعني هذا أن الدولة تتدخل في توجيه التعليم أو التحكم فيه.

الميزة الثالثة: المدرسة مؤسسة حضرية بامتياز، وليست مؤسسة تعليمية بدوية، إذ إن المؤسسة التعليمية البدوية المشابهة للمدارس، تمول بأعشار وصدقات القبائل، ولا تمول في الغالب بالأحباس الشخصية، كمدارس المدن. كما ترتبط المؤسسات البدوية بالأستاذ المؤسس الذي يضع لها أنظمة وتقاليد دراسية، خلافا لمدارس المدن التي يضع المحبسون تقاليدها الدراسية. وأقدم مؤسسة من هذا النوع، في بوادي المغرب، كانت رباطا جمع بين التعليم والجهاد والعبادة كما هو معروف بالرباطات، وهو رباط ظهر في القرن 5هـ، على يد وكاگ بن زلو اللمطي، شيخ عبد الله بن ياسين الذي"بنى **دارا** سماها **دار المرابطين لطلبة** العلم وقراء القرآن"(209)، ولكن كذلك للدعاء إلى الخير (210).

---

(207) الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار... م. س ص21.

(208) الوزان، وصف إفريقيا... مصدر سابق، ج1 ص 179 وانظر نموذج الراتب الذي كان يعطى للطلاب المدارس في عهد المولى إسماعيل، ابن زيدان، الإتحاف... م. س. ص198-199.

(209) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س 89.

(210) القاضي عياض، ترتيب المدارك.. م. س. ج 8 ص81، ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب... م. س. 1973 ص123.

الميزة الرابعة : المدرسة مؤسسة تعليمية سنية صريحة، منذ ظهورها أوائل القرن 5هـ، بخرسان، و استخدمت كأداة لنشر المذهب السني ومحاربة الفرق والمذاهب غير السنية، على امتداد الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي؛ إذ ارتبط ظهورها بانبعاث حركة أهل السنة بالشرق الإسلامي، على حساب مختلف فصائل التيار الشيعي؛ وهو الدور الذي ستقوم به المدارس أيضا بالمغرب. لهذا، أضاف أحد الباحثين، أن لمفهوم المدرسة "**نكهة تقنية خاصة** "مرتبط بهذا الدور [211]. فمتى ظهرت المدرسة بهذا المفهوم بالمغرب الإسلامي بصفة عامة؟

2. ظهور المدرسة بالمغرب وملابساته

إذا كان جل الباحثين يتفقون على أن المدرسة بالمفهوم السابق قد ظهرت بالمشرق، في القرن الخامس الهجري، فإنه يوجد اختلاف بين المؤرخين المغاربة حول تاريخ ظهور المدرسة بالمغرب، وهو اختلاف ناتج عن تضارب روايات المصادر التاريخية وعدم تمييز بعضها بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي لكلمة المدرسة، وناتج كذلك عن تأخر فترة كتابتها عن زمن تأسيس المدارس الأولى بالمغرب. كما ورد في عدة مصادر متأخرة ما يوحي بأن تاريخ ظهور المدارس، يرجع إما إلى وقت ظهورها بالمشرق، في القرن الخامس، كما جاء في "الإعلام" الذي نسب ليوسف بن تاشفين (452-499هـ)، أنه أسس مدرسة الصابرين بفاس[212]. وإما إلى القرن السادس الهجري، وبالضبط، إلى عهد يعقوب المنصور(580-595هـ) الذي نسب إليه، أنه حبس مدرسة وزاوية على أبي العباس السبتي بمراكش[213]، أو أنه بنى مدرسة شمال الجامع الأعظم من مدينة سلا [214]، كما نسب إليه ابن أبي زرع، أنه بنى مدارس بكل من إفريقية والمغرب والأندلس دون تحديد عددها أو أماكنها[215]، كما نسب له الوزان أنه بنى مدارس

(211) القبلي محمد، قضية المدارس المرينية، ملاحظات وتأملات، مقال ضمن، في النهضة والتراكم. دراسات مهداة للأستاذ محمد المنوني، ط. دار توبقال للنشر الدار البيضاء 185 ص57.
(212) العباس بن إبراهيم، الإعلام... م. س. ج 8 ص 96.
(213) نفسه ج.1 ص 283-284.
(214) الناصري أحمد السلاوي، الاستقصاء... م. س. ج. 2 ص 188.
(215) ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب،... م. س. ص 217.

بالرباط[216] هذه الروايات الأربع المتأخرة لا تؤيدها المصادر المعاصرة أو التي جاءت بعد القرن6 هـ، بل على العكس تتناقض معها، حين تنفي ظهور المدارس قبل القرن السابع الهجري، مثل المقري أو ابن مرزوق حتى سنة 674هـ الذي يؤكد "**إن إنشاء المدارس كان غير معروف** حتى أنشأ مولانا المجاهد مدرسة الحلفاويين" [217] ويقول المقري : "ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة. فالعالم منهم بارع لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه **وينفق من عنده حتى يعلم**"[218] وهذا ابن جبير، في سنة 580هـ، يوصي الطلاب الفقراء ببلاد الغرب الإسلامي للذهاب إلى مدارس المشرق، قائلا: "فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة **فأولها فراغ البال من أمر المعيشة**، وهو أكبر الأعوان وأهمها، وإنما المخاطب كل ذي همة، يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك" [219] كما أن المصادر المعاصرة لتأسيس المدارس الأولى، لم يفتها أن تشير إلى جدة الحدث، كما سنرى لاحقا، ومنهم ابن الخطيب الذي يشير إلى جدة الحدث في الأندلس، في النصف الأول من القرن 8هـ، بقوله عن مدرسة غرناطة التي أحدثها الحاجب (الوزير) رضوان النصري، بين سنوات 740-734هـ، : "**ولم تكن بها** وسبل الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة **وانفرد بمنقبتها**..."[220]. ومن خلال تصفح ودارسة المصادر المتاحة، يتضح أن المدرسة وصلت المغرب، بعد قرنين من ظهورها بالمشرق، وبالضبط سنة 635هـ، إذ أحدثت أقدمها بمدينة سبتة، على يد أحد الخواص، وليس على يد المخزن.

---

(216) الوزان، وصف إفريقيا ... م. س ج1 ص 160. قد يكون يعقوب المنصور بنى أماكن للدراسة، في بعض الأماكن المشار إليها، لكن دون أن يحبس عليها على الطريقة المشرقية السابقة الذكر.

(217) ابن مرزوق، المسند الصحيح... م. س. ص 405 وما بعدها.

(218) المقري، نفح الطيب... م. س. ج 1 ص 220.

(219) ابن جبير محمد، رحلة ابن جبير، تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار ومكتبة الهلال- بيروت 1981 ص 252.

(220) ابن الخطيب، الإحاطة.... م. س. ص 508-509، انظر وصف المقري لهذه المدرسة أزهار الرياض. م. س. ج.1 ص 272.

أ - مدرسة أبي الحسن الشاري بسبتة 635 هـ

تمثل هذه المدرسة أقدم مدرسة بمفهومها الدقيق في المغرب والغرب الإسلامي، أسسها أحد الخواص من العلماء، وهو أبو الحسن علي الغافقي الشاري (ت 649هـ)، بجوار باب القصر، أحد أبواب سبتة سنة 635هـ. وعين لها مؤسسها أحسن أملاكه" وقفها عليها سالكا في ذلك طريقة أهل المشرق"[221]، وحبس عليها خزانة للكتب مشتملة على مصنفات في مختلف العلوم العلمية اقتناها المؤسس لهذا الغرض. وقد أكد مؤرخ متأخر من القرن 8هـ جدتها قائلا: إن"خزانة الشيخ علي الشاري المذكور التي بالمدرسة المنسوبة إليه والتي ابتناها من ماله، هي **أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم**"[222]. وبما أن المبادرة جديدة بالمغرب فقد تلقى المؤسس مجموعة من الرسائل من طرف عدد من معاصريه من العلماء والأدباء المغاربة والأندلسيين تتضمن قصائد لتهنئته على التنبه لهذه المنقبة والتفرد بهذا السبق، احتفظ لنا مؤلف "الذيل والتكملة" بنماذج منها. ويتضح من خلال قراءة تلك الرسائل والقصائد، ومن خلال مصادر أخرى، أن حدث تأسيس المدرسة على النمط المشرقي غير مسبوق بالمغرب، قبل سنة 635هـ[223]. فلماذا ظهرت أول مدرسة في هذا التاريخ، وبالضبط بمدينة سبتة دون غيرها من مدن الغرب الإسلامي؟

لم يكن إنشاء هذه المدرسة مجرد تقليد للمدارس المشرقية، بل يجب البحث عن أسباب ظهورها في طبيعة شخصية المؤسس، وفي الظرفية العامة التي يجتازها المغرب ومدينة سبتة على الخصوص خلال الثلث الأول من القرن السابع الهجري.

---

(221) بن عبد المالك محمد المراكشي، الذيل والتكملة... م. س. س. 8 ص197.
(222) الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار... م. س. ص 29.
(223) انظر عن جدة الحدث، ابن الزبير، صلة الصلة، قسم الغراء منه المنشور آخر الذيل والتكملة س 8 مصدر سابق ص 555-557، جاء فيه، "وبنى مدرسة ببلده سبتة ووقف عليها من الكتب ما يحتاج إليه، وشرع في تكميل ذلك على السنن الجاري ببلاد المشرق"، وانظر كذلك ما جاء في ترجمته لدى ابن الخطيب في الإحاطة. وما لدى الأنصاري، في اختصار الأخبار... م. س. ص 21، 29.

ينتمي المؤسس لأسرة علمية أندلسية عريقة هاجرت إلى مدينة سبتة سنة 562هـ واستقرت بها، بالإضافة إلى أنها أسرة ثرية "**ذات يسار واسع**"، لذا تفرغ ابنها أبو الحسن لتحصيل العلم وحصل على ثقافة موسوعية مع ميل خاص لعلوم الحديث، كما انفرد بالسند العالي في الحديث، مما جعل علماء المغرب والأندلس يتنافسون في الأخذ عنه. وقد كرس الرجل حياته للعلم مفيدا ومستفيدا، ولم يكن يولي أهمية لأمور المعيشة "حيث لم يباشر قط دينارا ولا درهما، وإنما كان يتصرف له في ذلك وكلاؤه واللائذون بجنابه"[224]. كما مكنته هذه الثروة من اقتناء خزانة كتب ضخمة قلما توفر نظيرها لأمثاله من العلماء المعاصرين له أو من المتقدمين. يتضح من هذه المعطيات أن المؤسس كانت له الإمكانيات المادية والعلمية اللازمة للقيام بمثل هذا المشروع، إلا أن أهم دافع وراء مبادرته، هو طبيعته الشخصية، إذ اشتهر بكونه "**سنيا منافرا للبدع والأهواء معروفا بذلك**"[225]. فالرغبة في الدفاع عن السنة، هي التي حدت به إلى تأسيس المدرسة لاستخدامها لمحاربة الانحرافات المذهبية والبدع، كما حدث من قبل بالمشرق، وقد باشر التعليم فيها بنفسه. أما ظرفية تأسيس المدرسة فقد تميزت بتعرض شمال المغرب ومدينة سبتة بالخصوص لسلسة من الأزمات المتنوعة دامت أزيد من ربع قرن (610-637هـ)، منها: عدد من المجاعات والأوبئة التي استفحل أمرها، خاصة في سنوات (635-637هـ)، ومنها الأزمة السياسية التي تتخبط فيها المدينة بسبب ضعف الدولة الموحدية، والمتجلية في الاضطرابات السياسية التي خلقها الأمراء الموحدون الذين تولوا أمرالمدينة، إذ كان بعضهم يثور على البعض الآخر، منذ سنة 629هـ، مما دفع بالمدينة إلى الاستقلال عن الحكم الموحدي، فترة قصيرة حتى سنة 635هـ. زيادة على تعرض المدينة للضغط المسيحي، إذ حوصرت المدينة لمدة سنة من طرف سفن الجنويين عام 633هـ، ولم يرفع عنها الحصار إلا بدفع سكان المدينة لغرامة مالية كبيرة

---

(224) بن عبد الملك، الذيل والتكملة.... مصدر سابق س 8 ص197.
(225) نفسه ص 201.

للمحاصرين بلغت 400000 دينار [226]. لا شك أن هذه الاضطرابات والأزمات المتنوعة، التي دامت أزيد من ربع قرن، قد أثرت على المستوى التعليمي بالمدينة وذهاب العلم بها لانقطاع التدريس، لدرجة أن المتصوف أبا القاسم الصبان الذي كان يقرئ التصوف بمسجد المحلة "**قطع الإقراء ولزم بيته**" طيلة مدة السنوات الثلاث التي استغرقتها إحدى المجاعات[227]. وخلق كل ذلك مناخا ملائما لظهور البدع والأهواء وتزايدها، فكان الهدف من إنشاء المدرسة، سنة 635هـ، هو إحياء العلم والسنة بهذه المدينة، كما حدث بالمشرق قبل قرنين.

وحسب المصادر، فإن هذه المدرسة الأولى بالمغرب، كانت حديثية خلافا للمدارس المرينية التي جاءت بعدها والتي تهيمن عليها الدراسات الفقهية، لأن تكوين المؤسس يغلب عليه الحديث. وقد باشر التعليم فيها بنفسه منذ نشأتها، حتى نفاه اليانشتي أمير سبتة، سنة 641هـ، إلى الأندلس، خوفا من منافسة أبي الحسن الشاري له على زعامة المدينة. وظل يدرس الحديث بمنفاه حتى وفاته، سنة 649هـ[228]. وخلف المؤسس بنتا محدثة ومسندة [229]. واستمر تدريس الحديث بالمدرسة، حتى القرن 8هـ، إذ درس بها أبو عبد الله الغافقي الحديث وتولى نظارة خزانتها[230]. وبهذا تكون هذه المدرسة الحديثية نموذجا للمدارس الموحدية والحفصية التي جاءت بعدها، وكانت بدورها مدارس حديثية أكثر منها مدارس فقهية انسجاما مع المذهب التومرتي.

هكذا تزعم الخواص مشروع المدارس بالمغرب، قبل أن يتبناه المخزن المغربي بعد ذلك، كما حدث في المشرق، خلال القرن الخامس الهجري. فبعد23 سنة من تاريخ ظهور مدرسة سبتة ظهرت مبادرتان مخزنيتان؛ الأولى من طرف المخزن الموحدي، والثانية من طرف المخزن المريني.

(226) عن هذه الأزمات، انظر ابن أبي زرع، روض القرطاس.... م. س. ص 272-276، ابن عذاري، البيان المغرب... ص، 294، 344، 350.

Du Fuorcq, la question de Ceuta au XIII siècle, in Hespéris, 1ér et 2é tri, 1995 67-128.

(227) البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف... م. س ص 68.

(228) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة ... م. س. ج. 4 ص189.

(229) الأنصاري، اختصار الأخبار... مصدر سابق ص21.

(230) مجهول، بلغة الأمنية... م. س. ص177.

ب- مدارس المخزن الموحدي والحفصي

بعد حوالي ربع قرن من تأسيس مدرسة سبتة، أنشأ المخزن الموحدي مدراس بالمفهوم السابق، لكن لا نعلم عنها شيئا كثيرا، سوى ما عثر عليه الأستاذ محمد المنوني من وقفية كتابين للحديث حبسهما المرتضى(646-666هـ)، واحد على مدرسة القصبة وآخر على مدرسة جامع المرتضى، ويعود تاريخ تحبيسهما، إلى سنة 558هـ؛ أو الوصف الذي قدمه لنا الحسن الوزان عن بنايات مدرسة القصبة الموحدية والتي كان تضم 30 غرفة لإيواء الطلبة [231]. ولاحظ أحد الباحثين أن هذا التاريخ، يتزامن مع تاريخ ظهور المدرسة الأولى بإفريقية على يد الحفصيين، حين أسست المدرسة المنتصرية بطرابلس البعيدة عن دار ملك الحفصيين، خلال سنوات (555-558هـ). ويعلل هذا التزامن بالمنافسة السياسية القائمة بين الحفصيين والموحدين[232]. غير أن ظهور المدارس بإفريقية يعود إلى ما قبل هذا التاريخ[233]. ومهما كان عدد المدارس الموحدية ووضعيتها، فإن تأثيرها على الحياة الدراسية، كان محدودا، لأنه جاء في الفترة الأخيرة من حكمهم، أي قبل 8 سنوات فقط من سقوط دولتهم، فجاءت المبادرة الهامة لتشييد المدارس، في تاريخ المغرب، على يد المخزن المريني.

ج - مبادرة المخزن المريني

جاءت مبادرة المخزن المريني بعد أربعين سنة من تأسيس مدرسة سبتة، وذلك حين أقدم أبو يوسف يعقوب على تدشين مدرسة بالحلفاويين قرب رحبة البقر إلى القبلة من القرويين سنة 675هـ، وعرفت فيما بعد بمدرسة الصفارين.

---

(231) المنوني محمد، معالم ثقافية في مراكش الموحدية، مجلة دار النيابة، السنة 4 ، العددان 15-15سنة1987، ص 6 الوزان الحسن، وصف إفريقيا ... م. س. ج1 ص 104.

(232) القبلي محمد، قضية المدارس المرينية، مرجع سابق، ص 53. التجاني، رحلة التجاني، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب. ط. الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس 1981 ص 251-253.

(233) يبدو أن الحفصيين قد أسسوا أقدم مدرسة حوالي 633هـ وهي المعروفة بمدرسة الشماعين، ثم المدرسة التوفيقية التي أسستها عطف أم المستنصر وذلك قبل 657هـ حسب إشارة الشماع أبي عبد الله محمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري. الدار العربية للكتاب، تونس 1984 ص 56، 63.

وقد بنيت على يد قاضي الجماعة مفضل بن محمد الدلاي العذري، **"وهو أول من سن سنة بناء المدارس بحضرة فاس"**(234)، إذ لم تكن فاس تعرف المدارس حتى ذلك الوقت، حسب إفادة ابن مرزوق السابقة الذكر. وحبس عليها 13حملا من الكتب التي بعثها له الملك سانشو، إثر عقد صلح بين الطرفين سنة 684هـ/1285م(235). وقد نسب لهذا الأمير أنه بنى مدارس عديدة، دون تحديد لعددها أو أماكن بنائها(236). غير أن مؤلف الذخيرة السنية يحدد بناء بعضها بكل من فاس ومراكش (237). والمدرسة المؤكد بناؤها، بعد مدرسة الحلفاويين بفاس ،هي المدرسة المسماة الشهود أو القاضي بمكناسة والتي تزامن بناؤها مع مدرسة فاس(238)، مما يدل بالفعل على بناء مدارس أخرى بعدة مدن في عهد هذا الأمير.

وبعد هذه المدارس الأولى، في عهد أبي يوسف، توقف المشروع المريني نصف قرن تقريبا، ليستأنف من جديد سنة 721هـ. فما سبب هذا التوقف؟ هل بسبب معارضة الفقهاء لفكرة إنشاء المدارس، أم لأسباب أخرى؟

بالفعل، واجه مشروع بناء المدرسة الأولى بفاس معارضة قوية من طرف فقهاء المدينة، واتخذت هذه المعارضة أشكالا مختلفة، منها:

تشكك فقهاء المدينة في صحة اتجاه قبلة المدرسة التي وضعها المعدل ابن الحباك الموالي للسلطان والمختص في علم الهيأة، مستندين على أنها منحرفة عن قبلة جامع القرويين (ثبت بالبوصلة حاليا أنها صحيحة)، وأثير، أثناء النقاش المتسم بالمزايدات، وجود انحراف قبلة مساجد فاس بعضها عن بعض.

(234) ابن القاضي أحمد، جذوة الاقتباس... م. س. ص339.
(235) القرطاس ص 363، الناصري، الاستقصا... م. س. ج 3 ص64.
(236) ابن أبي زرع، روض القرطاس... مصدر سابق ص 298.
(237) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط 1972. ص 162-163.
(238) ابن أبي زرع، محمد المكناس، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الأمنية الرباط 1951، ص 14.

واضطر الأمير إلى عقد مناظرة في الموضوع بين الفقهاء انتهت إلى قبول رأي وسط يقول: إن المطلوب، في القبلة، جهة مكة لا عين الكعبة بذاتها(239). وظهرت هذه المعارضة مرة أخرى، حين أراد السلطان تدشينها، فصلى صلاة الجمعة بجامع القرويين القريب منها، والتقى بالفقيه إسحاق بن مطهر الورياغلي أحد أشهر زعماء المعارضة الدينية بفاس آنذاك (ت 683هـ)، وسلم عليه السلطان واستفتاه في ثلاث مسائل، فرفض الفقيه أن يجيبه معللا رفضه: "لا فائدة في السؤال **فإنك لا تعمل بالجواب**" (240). ويستنتج من سياق هذه الرواية ومن توقيتها، أن هناك خلافا عميقا، بين هذا الفقيه وأتباعه وبين السلطان أبي يعقوب يوسف، حول قضية تهم المدرسة المزمع تدشينها، وحول قضايا أخرى مجهولة. هذان المثالان يوضحان بعض مظاهر معارضة الفقهاء بفاس لبناء المدرسة الأولى وتحفظهم إزاءها. فما الذي دفع الفقهاء لاتخاذ هذا الموقف المعارض؟

إذا رجعنا إلى المشرق، نجد أن الفقهاء أظهروا نفس المعارضة للمدارس. غير أن معارضتهم لم تكن موجهة ضد فكرة بناء المدرسة في حد ذاتها، بل كانت موجهة ضد طريقة تمويلها من مداخيل مشبوهة كالمال المغصوب(241)، أما إذا بنيت بالمال الحلال وعلم حال مؤسسها فإنه يتم التنويه والإشادة بها(242). وهو نفس الموقف الذي اتخذه الفقهاء المغاربة الذين يوصون بأخذ الاحتياطات والتحفظ من المدارس لنفس الأسباب، وقالوا بكراهية الصلاة ببعضها وبأخذ مرتبها إذا ثبت أن المال الذي أنفق عليها حرام. ومعلوم أن أغلب الفقهاء المالكيين وغيرهم لا يجيزون أحباس السلطان والحكام على العموم لأن "**ذممهم مستغرقة**" ولكون أموالهم مغصوبة. والمورد الوحيد الحلال ببيت المال في نظر الفقهاء هو جزية اليهود، أو غنائم الروم. وهذا ما يفسر لجوء السلطان المريني

---

(239) الجزنائي علي، جني زهرة الآس... م. س. ص 81-82.
M. Shatzmeller Les premiers Mérinides et le milieu religieux de Fès, Introduction aux Médrasas; in studia Islamica t. XLIII. p. 109-116

(240) البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف... م. س. ص 111.
(241) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب بدون تاريخ ج. 4 ص 307.
(242) ابن جماعة بدر الدين الكناني، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ط. دار الكتاب العلمية- بيروت بدون تاريخ ص 193-198.

إلى صرف مرتبات المدرسين من جزية اليهود وليس من الأحباس، كما في مدرسة سبتة أو مدارس المشرق، وأنفق منها أيضا، على ثريا الجامع الأعظم من المدينة البيضاء بفاس، وأجرى منها مرتب إمام المسجد المذكور، وأنفق منا على مرستان فاس[243]، كما جدد السور الشرقي لجامع القرويين سنة 682هـ من جزية اليهود والأعشار[244]، أي أن هناك حرصا من طرف هذا الأمير على الإنفاق على مشاريعه الخيرية والإحسانية من المال المتفق على حليته وهو الجزية. غير أن تمويلها من موارد الجزية لن يضمن لنشاطها الاستمرار والدوام، مثلما يضمنه لها التمويل بالأحباس.

لم تكن إذن معارضة الفقهاء لطرق تمويل المدارس سببا في توقف المدارس، خلال نصف قرن، لأنه وجد لها حل من جزية اليهود، بل يرجع السبب إلى الاضطرابات السياسية التي عرفتها الدولة المرينية والمتمثلة في الثورات المزمنة التي تزعمها أمراء داخل البيت الحاكم، وفي الصراع مع الإمارات المجاورة: بني عبد الواد بتلمسان، وبني الأحمر بغرناطة، والمسيحيين [245]. وفي مثل هذه الظروف، يصعب توفير الأموال الضخمة اللازمة لبناء المدارس، زيادة على توفير الأملاك المغلة والمرافق التي ستحبس عليها[246].

بدأت المرحلة الثانية في المشروع المريني، سنة 720هـ إلى وفاة أبي عنان 760هـ، ودامت حوالي 40 سنة، أسست فيها أزيد من 20 مدرسة، منها: ثلاث مدارس شيدها أبو سعيد عثمان (709-731هـ) في دار ملكه بفاس، بعد تمكنه، خلال 10 سنوات، من توطيد سلطته على البلاد. وأضاف لها ابنه ثلاث مدارس أخريات، لما كان وليا للعهد. ولما استقل بالملك (731-749هـ) أسس خارج فاس 12مدرسة موزعة على أهم مدن مملكته بالمغرب الأقصى وحده. وواصل أبو

(243) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية.... مصدر سابق، ص162-163.

(244) ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. ص 68-69، وأنفق من الجزية كذلك على الفقراء والجذماء والعميان نفسه، ص268.

(245) نفسه، ص 374-413.

(246) تشير المصادر إلى النفقات الباهضة التي صرفت عليها، الوزان، وصف إفريقيا... م. س ج1 ص 179. الناصري، الاستقصا... م. س. ج 3 ص176.

عنان (749-760هـ) تأسيس العديد من المدارس بمدن مختلفة، أشهرها وأضخمها المدرسة التي تحمل اسمه بفاس. ولم تمول مدارس هذه المرحلة من جزية اليهود كالمدارس الأولى، بل مولت بواسطة الأحباس[247]. وهذا التغيير في نوعية تمويل المدارس راجع -جزئيا- إلى توطد السلطة المرينية، بشكل كبير، مقارنة بعهد أبي يوسف، وإلى الرغبة في ضمان نوع من الاستمرارية والدوام لنشاطها، وإلى أسباب أخرى يتعين دراستها لاحقا، كضعف العصبية القبلية المرينية وتواكلها مما دفع بالسلاطين إلى التحبب للرعية بمثل هذه المشاريع الخيرية.

---

(247) انظر الأملاك المحبسة على المدارس الثلاثة بفاس المبنية 620هـ، ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. 411-413.

التوزيع الجغرافي لمدارس المدن بين القرن 7وبداية القرن 10هـ

مكان المدرسة	عددها	مؤسسها	المصادر
أزمور	1	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
آسفي	1	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
أغمات	1	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
أنفا	1	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
الرباط	1	مجهول	رباط الفتح.. ص154
العباد بتلمسان	1	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
تازة	3	ملوك بني مرين	وصف إفريقيا.. ج1 ص 176
سبتة	القديمة الجديدة	أبو الحسن الشاري أبو الحسن المريني	بلغة الأمنية.. ص177، 178
سجلماسة	3+	مجهول	وصف إفريقيا.. ج2 ص127
سلا	2	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
شالة	1	أبو عنان المريني	فيض العباب.. ص40
طنجة	1	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
فاس	11	ملوك بني مرين	وصف إفريقيا.. ج1ص178
قصر كتامة	1	أبو الحسن المريني	المسند الصحيح.. ص 405
مراكش	3	الموحدون والمرينيون	مجموعة من المصادر
مكناس	3	ملوك بنب مرين	وصف إفريقيا.. ج1 ص170
المجموع (249)	35>	(248)	

(248) حسب ابن زيدان، أسست المدرسة الجديدة بمكناسة سنة 730هـ، الإتحاف 122-123، وأسست مدرسة الشهود أو القاضي 674 سنة هـ الإتحاف ص 117،118،166، ومدرسة الخضارين ص 123.

(249) مجموع المدارس يفوق 35 مدرسة موزعة على 16مدينة، تستحوذ دار الملك على حوالي ثلثها، وحوالي نصفها كان من بناء أبي الحسن المريني.

يبدو العدد المشيد من المدارس بالمغرب، رغم كثرته، قليلا مقارنة بما شيد منها بالمشرق، خاصة بمصر، وهو ما لاحظه العمري: "فأما المدارس والخوانق والربط، فمما خلت صحائف أهل المغرب من أجورها إلا النزر اليسير"(250)، لأن أحد أسباب استكثار بناء المدارس والتحبيس عليها في مصر، هو أن أمراء الترك منذ صلاح الدين الأيوبي كانوا يخافون على أبنائهم، لكونهم أرقاء، من تعسف السلطة، فحبسوا الأوقاف المغلة على المدارس وغيرها، وكانوا يجعلون حصة من ذلك محبسة على أبنائهم (251)؛ ومثل هذا العامل الاجتماعي لم يكن موجودا بالمغرب.

أصيبت حركة بناء المدارس المخزنية بالفتور في تاريخ المغرب بصفة عامة، وكادت تتوقف كليا بسبب التحولات العميقة التي عرفها المغرب بعد وفاة أبي عنان سنة 760هـ، واسترجعت المساجد والزوايا تدريجيا مكانتها التعليمية السابقة من خلال تبنيها لطريقة المدرسة في تمويل نشاطها التعليمي بالأحباس، كما سيأتي ذكره فيما بعد.

3- *دور المدارس في التعليم*

لفهم الدور التاريخي للمدارس بوصفها مؤسسات تعليمية جديدة، ينبغي طرح التساؤل التالي: ما الهدف من تأسيسها؟ هل كان المؤسسون يرمون إلى ما كان يرمي إليه الفقيه أبو الحسن الشاري السابق الذكر من إحياء العلم وترسيخ المذهب السني، أم يهدفون لشيء أخر؟

أ- الهدف من تشييد المدارس

أعطى جل الباحثين الذين تناولوا ظاهرة المدارس تأويلات مختلفة لأسباب بنائها والأهداف التي يتوخاها منها المخزن المريني. وأهم تلك التأويلات أطروحة مايا شاتزملر التي تفسر بناء المدارس المرينية برغبة الحكام في تكوين

(250) العمري، المسالك والممالك... م. س ص 295.
(251) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 778.

أطر دينية وإدارية مخلصة للبيت الحاكم، خصوصا بعد المعارضة التي واجها الحكم المريني في النصف الثاني من القرن 7هـ من الوسط الثقافي الفاسي(252). إن مثل هذا الاستنتاج لا تسمح المصادر التاريخية بتأكيده بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. كما أن دراسة أصول الطلاب الذين أسندت لهم وظائف في الجهاز الإداري للدولة المرينية لا تؤيد ذلك، إذ من المعلوم أن إسناد الوظائف المخزنية كان يخضع، إن كانت من "وظائف السيف"، لاعتبارات سياسية يحددها الانتماء للعصبية القبلية الحاكمة. أما إن كانت من "وظائف القلم" التي تتطلب كفاءة أدبية وعلمية، فإنها تسند للموالين للدولة من ذوي الكفاءات بصرف النظر عن انتماءاتهم القبلية، بل إن التعيين في الوظائف الدينية كان يخضع في الغالب للزبونية والمحسوبية. كما أسندت بعض الوظائف للغرباء، مثل الأندلسيين وغيرهم، بل أسندت أحيانا لبعض اليهود. كما أن طبيعة الدارسة بالمدارس لم تكن موجهة لهذا الغرض، نظرا للدور الثانوي للمقررات الأدبية، ولغياب التكوينات الإدارية والعسكرية بها، كما في مدارس الأمراء(253). وأحسن طريقة لمعرفة أهداف بنائها هو التعرف على ظرفية ظهورها، واستنطاق النصوص التاريخية، خاصة وقفيات التحبيس على المدارس.

كان الهدف الأساسي من وراء بناء المدارس، والذي تلح عليه النصوص التاريخية، هو إحياء العلم وتوفير الظروف المعيشية المواتية لطلاب العلم والمدرسين ليتفرغوا لتحصيل العلم، هذا ما نجده واضحا في أغلب وقفيات التحبيس على المدارس. جاء في وقفية تحبيس المدرسة العنانية على سبيل المثال:"**قصد أيده الله ببنائها** وجه الله تعالى **في إحياء رسوم العلوم وتجديد**

(252) M. Shatzmeller, Les premiers Mérinides et le milieu religieux de Fès.op. cit. p. 109-116.

(253) أعطيت تأويلات أخرى منها، أن المخزن المريني سعي من وراء تشييدها لنشر المذهب المالكي ومحاربة المذهب الموحدي كما جاء لدى

Brignon (J) et autre, Histoire du Maroc, éd. Librairie Nationale. Casablanca 1967. p.165.

وانظر كذلك مادة مدرسة في الموسوعة الإسلامية الفرنسية؛ التاجي رضوان، من تاريخ التعليم الرسمي بالمغرب، تجربة المدارس المرينية ونتائجها، مجلة فكر ونقد، عدد 19 ص 59-62.

العناية بالمنقول والمفهوم ابتغاء حسن الثواب على تخليد أعمال البر وإجراء الصدقات الباقية بقاء الدهر... **حبس أيده الله على هذه المدرسة إرفاقا لطلبة العلم وأرفادا وإعانة لهم على طلبه**"(254). ويقر العلماء، كابن مرزوق مثلا، في القرن 8هـ، أن العلم "لا يحفظ إلا بمعونة طلابه على طلبه وبعثهم على تعليمه وتعلمه، **فإن تعليمه وتعلمه يمنعان من التسبب ويقطعان على الطلب**"(255). وحسب فتاوى فقهاء المغرب فإن ما يأخذه الطلاب والمدرسون في المدارس ليس معاوضة أو أجرا على التدريس، بل هو "**إحسان وارتزاق وإعانة وارتفاق**"(256). كما أن الكثير من المصادر تؤكد هذا الهدف، مثل وصية ابن جبير السالفة الذكر للطلاب الفقراء المغاربة سنة 580هـ، بالتوجه للمشرق حيث المدارس. ويعلق الناصري عن نتائج استكثار المرينيين لبناء المدارس وتحبيس الأوقاف عليها بقوله: "**فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم، وأحيوا مراسمه، وأخذوا بضبعيه**"(257).

أما الظرفية التاريخية التي ظهرت فيها المدارس بالمغرب في القرن السابع الهجري، فقد تميزت بظهور أزمة تعليمية تحدث عنها المؤرخون المعاصرون لها، خلال القرنيين 7 و8هـ، عبر عنها العبدري الحاحي، أواخر 7هـ، بموت العلم، ببلاد القبلة بالمغرب الأقصى ومدن المغرب الأوسط، وقلة الراغب في التعلم والمعين عليه(258)، ولم يستثن إلا مدينة تونس، وعبر عنها الآبلي بموت العلم وفساده(259)، ولامس تلميذه ابن خلدون جانبا آخر من هذه الأزمة، في القرن 8هـ، وعبر عنها بقلة جودة التعليم في المغرب وقلة سند التعليم فيه، الذي كان ينقطع فيه باختلال عمرانه وتناقص دوله(260). وإذا كان من الصعب الحكم،

---

(254) Bel (A); Les inscriptions arabes de Fès, *Journal asiatique*, T. X. 1917 et XII 1918, p. 363-364

(255) ابن مرزوق، المسند الصحيح... م. س. ص405.

(256) الونشريسي أحمد، المعيار المغرب... م. س. ج7 ص353.

(257) الناصري، الاستقصا... م. س. ج 3 ص 111.

(258) العبدري الحاحي، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، ط. الرباط 1965 ص8، 13، 24، 26، 42،64، 76، 91، 76.

المنوني محمد، ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين ط. الرباط. ص125- 126.

(259) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة... م. س. ص 771-774، 781، 893.

(260) نفسه، ص653.

من خلال هذه الأدبيات وغيرها، على درجة تراجع التعليم بالمغرب، من الناحية الكمية والكيفية، فإنه يمكن على الأقل اعتبارها مؤشرا على وجود أزمة تعليمية، يمكن فهمها على ضوء الأزمات السياسية والاقتصادية التي عرفها الغرب الإسلامي، بعد معركة العقاب 609هـ. وتمثل أزمات مدينة سبتة التي سبق ذكرها، في النصف الأول من القرن 7هـ، نموذجا مصغرا لها. وكان من نتائج هذه الأزمات تناقص عمران المغرب الأقصى "نقصا ظاهرا محسوسا، وكاد يلحق بأحوال إفريقية،"خاصة بين السودان والبحر الأبيض المتوسط، بالمقارنة عما كان عليه في العصر الموحدي، حسب ملاحظة ابن خلدون[261]، والتي تؤكدها المصادر التاريخية. فقد توالى الخراب على المنشآت العمرانية بمدينة فاس مثلا، أزيد من 20سنة، من 617 إلى 637هـ، بسبب الفتن والحروب والمجاعات، خاصة في عهد كل من العادل والمأمون[262]. ومن مؤشرات هذا التراجع الحضاري أن الثريا الكبرى التي صنعت لجامع القرويين، في عهد الناصر الموحدي تعطل إسراجها منذ 618هـ، لعدم القدرة على توفير الكمية الكبيرة مما تستهلكه من الزيت (قنطار و 7 قلل من الزيت كل ليلة)، واقتصر إشعالها على ليلة القدر وحدها، مدة قصيرة إلى أيام القاضي الحيوني، وتعطل نهائيا حتى سنة 687هـ، ليستأنف إسراجها في ليلة القدر فقط، إلى ما بعد سنة 724هـ، على الأقل[263].

يبدو، في ظل هذه الظروف، أن العصبية الحاكمة التي كانت تحتكر العلم والتعليم، قد أدركت أن الرعية التي ترسخ إسلامها منذ العهد الموحدي، أصبحت في حاجة ماسة لتوفير حد أدنى من التعليم الديني لضمان وحدتها الدينية. وبما أن الرعية لا تتوفر على الإمكانيات اللازمة. لذلك، كان الحل، هو إحداث المدارس الممولة بالأحباس، لجعل التعليم مجانيا.

---

(261) ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. ص49.
(262) نفسه، ص67.
(263) نفسه، ص67.

ب- الآثار المترتبة على ظهور المدرسة بالمغرب

بالإضافة إلى مهمة إحياء العلم، كان لظهور المدرسة نتائج عديدة، منها:

- ***النتيجة الأولى:*** "دمقرطة" التعليم نسبيا. لقد ساهمت المدارس بدون شك، نظرا لمجانية الدراسة بها، في نشر التعليم بين فئات اجتماعية واسعة حضرية وبدوية، وفي جعله في متناول أكبر عدد ممكن من الرعية، وخاصة الفقراء منهم، فخففت بذلك من استئثار وهيمنة الحكام والأعيان الدائرين في فلكهم بالقسط الأوفر من العلم والتعليم، وخففت بالتالي من حدة التفاوت الثقافي والاجتماعي بين المخزن (الحكام) والرعية (المحكومين)، وأصبح الحكام لا يستنكفون من الذهاب للمدارس وحضور حلقات العلم بها بجانب الطلاب، كما فعل أبو عنان الذي كان يحضر أحيانا دروس صحيح مسلم في الحديث بمدرسته التي أسسها بفاس(264).

- ***النتيجة الثانية:*** تدهور المستوى التعليمي. في مقابل ما تقدم، ساهم بناء المدارس، على المدى البعيد، في تدني المستوى التعليمي وتقلص جودته. ويعود هذا التدني إلى عدة أسباب، منها:

أولا، إن التحبيس على المدارس وجه التعليم حسب رغبات المحبسين وشروطهم، مما جعل التعليم يفقد -تدريجيا- حريته وديناميكيته السابقة، كما اتجه مضمونه نحو العلوم النقلية، بينما أقصيت بعض العلوم العقلية كالفلسفة مثلا، فكان الطالب الفقير الذي يلجأ إلى المدارس، لا يجد من العلوم إلا ما حبس عليه بهذه المدارس، وتقلص مجال الاختيار أمامه.

ثانيا، وبما أن المدارس أعدت للدراسات الدينية أساسا، من فقه وحديث، وموجهة لشريحة واسعة من الطلاب الفقراء من الرعية، فإنها قد ساهمت في تعطيل عادة الرحلة العلمية ولقاء المشايخ التي كانت أصل العلم سابقا(265). كما

---

(264) ابن الأحمر، بيوتات فاس... م. س. ص 46.

(265) انظر عن دور الرحلة والمختصرات في التعليم، الفصل الثاني من هذه العمل.

تزامن ظهورها مع ظهور كتب المختصرات التي قصد منها تسهيل التعليم وربح الوقت والمال، لكن، بالمقابل، كانت أضرارها كبيرة.

ثالثا ، تضرر التعليم من إشراف الدولة على المدارس: إن المحبسين، سواء كانوا من الحكام أو من الرعية، لا يقصدون تدجين التعليم وتطويع المدرسين، بل كان هدفهم المعلن هو ابتغاء الثواب ومرضاة الله بتخليد أعمال البر كما سبق الذكر. ولم يكن المخزن في حاجة إلى بناء المدارس للتحكم في التعليم، لأنه كان يملك دائما الوسائل والقوة لفرض نوع من التعليم أو منع تدريس مواد بعينها كعلم الكلام، أو منع كتب محددة مثل كتاب الإحياء للغزالي، في العهد المرابطي، أو إحراق كتب الفروع في عهد يعقوب المنصور، فلم يكن في حاجة لإنشاء المدارس قصد تدجين التعليم ومراقبته، إذ كان يشرف عليه دائما ويراقبه بوسائل عديدة. لكن الظاهرة الجديدة مع ظهور المدارس، هو تحكم القاضي في تعيينات المدرسين وفي تسيير الأحباس، سواء كان أصلها من الرعية أو من رجال المخزن. ولا تتم هذه التعيينات دائما، حسب كفاءة المدرسين العلمية، بل تتم غالبا، حسب اعتبارات أخرى كالزبونية والمحسوبية. ومن جهة أخرى، كان أغلب ذوي الكفاءة العلمية، لا يقبلون أن يأخذوا الراتب من المدرسة، لأنهم يعتبرونها مالا حراما ومغصوبا كما تقدم، مما جعل المستوى العلمي والتربوي للمدرسين المعينين بالمدارس متدنيا في الغالب. وقد أجمل الآبلي النقائص المترتبة عن نظام المدارس، وحمل مسؤولية فساد العلم وموته إلى بنيانها، بقوله: "إنما أفسد العلم كثرة التآليف وأذهبه بنيان المدارس"(266). ويوضح المقري المقصد من كلام شيخه: "وذلك إن التآليف نسخت الرحلة التي هي أصل جمع العلم. وأما البناء فلأنه يجذب الطلبة لما فيه من مرتب الجرايات فيقبل بهم على من يعينه **أهل الرئاسة** للإجراء والإقراء منهم أو من يرضى لنفسه الدخول في حكمهم، ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة، الذين لا يدعون لذلك، وإن دعوا لم يجيبوا، وإن

(266) المنوني محمد، ورقات عن الحضارة ... م. س. ص215-216.

أجابوا لم يوفوا بما يطلبون من غيرهم" [267]. وبعد أربعة قرون من ظهور المدارس، انتهى الأمر إلى انحطاط علمي بالمغرب، مع نهاية القرن 10هـ، وصفه أحد المعاصرين وبين بعض أسبابه، بقوله: "فلقد أدى ذلك **لذهاب العلم** بهذه المدن المغربية التي هي بلاد العلم من قديم الزمان، كفاس وغيرها، حتى صار يتعاطى الإقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة أصلا، فضلا عن غيرها، بل من لم يفتح كتابا للقراءة قط، فصار ضحكة. وسبب ذلك أنها **صارت بالتوارث والرئاسات**، أعادنا الله، حتى خلت الساعة ممن يعتمد عليه في علمه" [268] ويؤكد لنا الوزان تدني مستوى المدرسين في عدة مناسبات، منها وصفه للمستوى العلمي لأستاذ مدرسة القصبة بمراكش، في عهده، أوائل القرن 10هـ، بقوله: "جهله بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية وغامضة بالآداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى" [269].

النتيجة الثالثة: أثرت المدرسة على المؤسسات التعليمية السابقة لها، حين تبنت طريقتها في تمويل التعليم، وفي جعله تعليما مجانيا:

أولا، عن طريق توفير أجور المكلفين بالتدريس بها، بواسطة تحبيس الكراسي الدراسية بالمساجد، إما لتدريس كتب بعينها أو مادة معينة، دون التقيد بكتاب معين فيها، كما سيأتي.

ثانيا، اقتبست المساجد من المدارس عادة تحبيس الخزانة العامة على الطلاب، ابتداء من منتصف القرن 8هـ، منها تحبيس خزانة كتب الجامع الأعظم بسبتة سنة 750هـ [270]، ومنها تحبيس أبي عنان المريني سنة 750هـ لخزانة الكتب على جامع القرويين، ثم حبست بعد هذا التاريخ خزانات على الجوامع الكبرى بأهم المدن. وكانت هذه الخزانات موجهة لعامة الطلاب والمتعلمين، بينما كانت خزانات المدارس موقوفة على الطلاب والأساتذة المنتمين إليها وحدهم [271].

فكيف تم هذا التحول؟

---

(267) بابا التنبكتي أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط. دار الكتب العلمية - بيروت د. ت. ص 246.
(268) نفسه، ص247.
(269) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ص 104.
(270) مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب... م. س. ص177.
(271) للمزيد من المعلومات حول هاتين المسألتين انظر مقال لنا، الإنفاق على التعليم بفاس بين القرنين السادس والثامن الهجريين، منشور ضمن أعمال الندوة المنظمة نونبر 1988، المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب بنمسيك الدار البيضاء، ص242-250.

II- اعتماد الأحباس لتمويل التعليم بالمؤسسات الأخرى

1- *المساجد والجوامع*

كانت المساجد والجوامع من المؤسسات الأولى التي مورس فيها التعليم عند ظهور الإسلام بالحجاز، ثم بالغرب الإسلامي بعد الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري، خاصة في المسجد الجامع بالقيروان. وقد ارتبط انتشار التعليم الإسلامي بانتشار بناء المساجد. وإذا كان من الصعب معرفة تاريخ بناء المساجد الأولى بالمغرب الأقصى والمناطق التي بنيت فيها، ومعرفة متى غطت التراب المغربي برمته، نظرا لقلة المعلومات التاريخية، ولتأخر كتابة المصادر التي تناولتها وتضارب رواياتها؛ إذ تنسب بعض الروايات إلى عقبة بن نافع أنه بنى عدة مساجد بمناطق مختلفة من المغرب الأقصى، في حين يرى بعضها الأخر، أن ذلك غير صحيح وإنما بنيت في مكان نزوله[272]. فإن الرواية الأقرب إلى الواقع تؤكد أنه: "في هذا التاريخ (أي سنة 85هـ) تم إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات، وفيها صنع مسجد أغمات هيلانة"[273]. واستمر بعد ذلك بناء المساجد والجوامع بموازاة مع تجذر الإسلام بالمغرب، غير أن بناءها لم يكتمل بالبوادي المعزولة إلا في مطلع القرن 6هـ، كما يظهر من خلو بعض جهات جبال درن منها، مما دفع ابن تومرت لبناء عدة مساجد بها في طريق عودته إلى مسقط رأسه بهرغة سنة 514هـ[274].

ظل المسجد بالمغرب، رغم تنوع أماكن التعليم وهياكله[275]، هو المكان المعتاد والمفضل لتدريس العلم للطلاب قبل ظهور المدرسة في القرن السابع

(272) ابن عذاري، البيان المغرب... م. س. ج 1 ص27.
(273) نفسه، ج2 ص43.
(274) البيدق، أخبار المهدي... م. س. ص 31.
(275) أمكنة الدرس لا تتحكم فيها إلا التقاء الطالب والمتعلم في أي مكان، في حجرة من المنزل أو في دهليز، أو في جانب من دكان تجاري، في ضيعة، أو في بطون الأودية والشعاب والرباطات، "كما كان يفعل أبو الحسن يحي المعروف بان الصائغ (ت 600هـ ابن الزيات، التشوف... م. س. ص، 297. عند أخذه عن شيخه الزاهد أبي بكر يحي بن محمد ورزك، أو على ظهر السفينة، وفي الأسفار. وتسمى دروس الرحلة والتنقل بالمسايرات عوض المجالس، ومنها كتاب القاضي النعمان المجالس والمسايرات. غير أن المكان المفضل هو المسجد وتليه الرباطات قبل أن تتحول إلى الزوايا في القرن 7هـ.

الهجري، لأنه هو المكان الملائم لذلك أكثر من غيره، خاصة إذا كانت أغلب المواد المدرسة شرعية، أو كان عدد الطلاب كثيرا. بينما كان البيت هو المكان المفضل لتدريس البعض من العلوم العقلية التي كان يحضر الذميون حلقاتها إلى جناب المسلمين، أو لتدريس المواد التي يخل تدريسها بهدوء المسجد كالفلسفة التي كان يدرسها ابن رشد بمراكش، "وكان أكثر تلامذته من اليهود والنصارى. وكان يقرئ جهارا شأن غيره من الفلاسفة"[276]، أو عندما يعجز الأستاذ عن الخروج من بيته إلى المسجد بسبب كبر سنه[277].

وتنقسم المساجد، حسب الجهة المشرفة عليها، إلى نوعين:

أولها، مساجد الأحياء بالمدن التي بناها الخواص من الرعية ويتكلفون بالإنفاق عليها وتسييرها والإشراف على التدريس بها، كما لا يتطلب التدريس بها إذنا أو رخصة من السلطان.

وثانيها، المساجد الكبرى التي تشرف الدولة على رعايتها والنظر في تعيين أئمتها، ويتطلب التدريس بها الحصول على الإذن من السلطان[278].

هذا التمييز النظري بين مساجد السلطان (المخزن) ومساجد الرعية، تؤيده الوقائع والأحداث التاريخية، إذ كانت العادة تقتضي أن يهتم الولاة بالمدرسين في الجوامع العظمى دون مساجد الأحياء، كما يفهم من ملاحظة المدرس النحوي الشهير أبي علي الشلوبين، حين قدم مراكش واستغرب من ضخامة حلقة أبي موسى الجزولي في النحو، حيث كان يتحلق حوله عدد كبير من الطلاب في مسجد "بموضع خامل لا يكاد يؤبه به، ولا يعد من كبار مجالس العلم لكونه في أخريات البلد. فما الظن **بالمجالس المختفلة التي يعتني بها ويمدرسيها ولاة الأمر**"[279] لأن الحكام كانوا يعينون كبار المدرسين بهذه الجوامع الكبرى، مثل

---

(276) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س. ج. 3 ص 134.
(277) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص 273.
(278) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 389.
(279) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س8، ص249.

إنزال خلف ابن فرتون(ت 532هـ) بالمسجد الأعظم للإقراء به في العهد المرابطي[280]، ومثل أبي بكر محمد السلاقي الذي أنزله يعقوب المنصور، بالجامع الأعظم بمراكش للتدريس، وخلفه في حلقته بعد وفاة صهره محمد الياني[281].

يبدأ المدرسون، عادة حياتهم المهنية قبل أن يشتهروا، بالمساجد الصغرى، ثم ينتقلون بعد ذلك للمساجد الكبرى مثل يوسف ابن نموي (ت 554هـ) الذي كان يدرس بمسجد زقاق الرواح بمدينة فاس حيث سكناه وسكنى سلفه، وعندما اشتهر انتقل للإقراء بجامع الأندلس، ثم انتقل سنة 513هـ، للإقراء في شرقي جامع القرويين إلى وفاته[282]، أي مدة 40 سنة. ومن أهم المساجد الصغرى التي ذكرتها المصادر بفاس، مسجد بني الملجوم، وبيت بني الغدريس. وقد يقوم بعض المدرسين بإصلاح بعض المساجد للتدريس بها كالمسجد الذي جدده علي بن أحمد بن حنين الكتامي (ت 569هـ) بفاس، وظل يدرس به القرآن مدة 12سنة[283]. وعندما ينزل عالم بمدينة وليس له إذن من السلطان، فإنه غالبا ما كان يدرس بالمساجد الصغرى وليس بالجوامع الكبرى، كما فعل ابن تومرت أثناء رجوعه من رحلته المشرقية، فلم يدرس بالمساجد الجامعة بفاس مثلا، وإنما نزل في مساجد البيوتات الكبرى كمسجد بيت ابن الغنام، ثم انتقل منه إلى مسجد بني الملجوم، ثم إلى مسجد طريانة، لأن هذا الأخير كان يتوفر في صومعته على بيت يقرئ فيه العلم ويقصده فيه طلبة فاس[284].

ويمكن ملاحظة إشراف الدولة على المساجد الجامعة بفاس مثلا، إذ كانت الدول المتعاقبة على حكم المدينة، تقوم بالإصلاحات الضرورية لمسجدي القرويين والأندلس، فضلا عن جامع قصبة المدينة وتعيين أئمتهما وخطبائهما،

---

(280) القاضي عياض، الغنية... م. س. ص149.
(281) أحمد بابا، نيل الابتهاج ... م. س. س 6، ص 381، 285.
(282) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص550.
(283) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 5 ص 150.
(284) البيدق، أخبار المهدي... م. س. 23-24.
(285) ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س، 45-77، الجزنائي، جني زهرة الآس... م. س. ص 56-94.

كما يظهر من عمل المرابطين والموحدين ثم المرينيين[285]. فعندما دخل المرينيون فاس سنة 646هـ، وجدوا الأعيان يشرفون على إدارة المساجد الجامعة بالمدينة كالقرويين، ويعينون الخطباء بعد ضعف الموحدين، ولم يستطع المرينيون، في البداية، الإشراف على هذه المساجد الجامعة ومراقبتها، إلا ابتداء من سنة 689هـ، حين عينوا لأول مرة الخطيب محمد بن أبي الصبر أيوب بظهيري[286]، أي بعد أزيد من 40 سنة على دخولهم لفاس. وقد مهدوا لهذا الإشراف والمراقبة بإصلاح هذه المساجد، كما حدث حين أصلحوا الحائط الشرقي لجامع القرويين سنة 682هـ، وأدخلوا إصلاحات على جامع الأندلس سنة 695هـ[287].

تأثرت المساجد بظهور المدارس في القرن السابع، إذ لم تعد المساجد الجامعة تكتفي بتمويل نشاطها التعليمي بهبات مباشرة من بيت المال، بل بدأت تتأثر بنظام التمويل المتبع في المدارس بالاعتماد أساسا، على الأحباس، وذلك من خلال تحبيس الخزانات العلمية على طلاب العلم، وإحداث الكراسي الدراسية لفائدتهم، ومن خلال تحبيس كراسي التوريق (سرد كتب الوعظ) للراشدين من العامة.

أ – تحبيس كراسي على الجوامع والمساجد بعد سنة 651هـ

يتمثل التحول الأول في نظام التعليم بالمساجد، في تمويل الأنشطة التعليمية بواسطة الأحباس، من خلال إحداث كراسي مخصصة لتدريس مادة معينة، باعتماد كتاب دراسي محدد في بعض الأحيان، يتقاضى المكلف بتدريسها راتبه من أوقاف محبسة لهذا الغرض من طرف الحكام أو من طرف الرعية. لم يعتاد أغلب المدرسين المغاربة على اتخاذ الكراسي للتدريس ولا يجلسون على حائل مرتفع دون جلسائهم في حلقة الدروس[288]، لأن البعض منهم يعتبر التدريس على الكراسي بدعة لأنها تغصب الأماكن للمصلين ولا تحول أثناء

(286) ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. ص 67.
(287) نفسه ص 68، 77.
(288) ابن الحاج، المدخل... م. س. ج 1 ص 85.
(289) الونشريسي، المعيار المعرب.. م. س ج 2 ص486.

الصلوات[289]، لكنهم شرعوا في اتخاذها، في المساجد، ابتداء من سنة 651هـ، وتم تمويل التدريس عليها بالأحباس بعد ذلك. والكراسي بالمساجد، نوعان: كراسي التوريق، وكراسي التدريس.

كراسي التوريق (الوعظ والتذكير): كانت هذه الكراسي موجهة لتعليم الراشدين من العامة وإعطاء دروس للوعظ من خلال كتب بعينها وتسمى التوريق [290] وظهرت في مسجد القرويين سنة 651هـ، بمبادرة من إمام مسجد القرويين على بن الحاج (630-653هـ) الذي كان يدرس تفسير الثعالبي وكتاب "حلية الأولياء" في التصوف لأبي نعيم، بعد صلاة الصبح. وقد لاحظ، في الوقت الذي كان يلقي فيه دروسه، أن العامة يبقون في المسجد إلى طلوع الشمس ويتذاكرون في أمورهم الدنيوية. وكان له قارئ حسن الصوت ومجيد، فأشار الإمام على هذا القارئ أن يتصدر قرب المحراب لإسماع العامة ويسرد عليهم الكتابين اللذين كان يدرسهما، وهما تفسير الثعالبي وكتاب أبي نعيم، بين صلاة الصبح إلى طلوع النهار. فكثر إقبال العامة عليه، وكان يجتمع في مجلسه آلاف من الناس. ونظرا لنجاح دروسه، أجرى عليه الأمير أبو بكر بن عبد الحق (656هـ642/1258هـ-1244م) جراية من بيت المال أول الأمر، ولم يحبس على ذلك أوقافا، وإنما أحدثت الأحباس بعد ذلك، في وقت غير معروف. وتعددت بعد ذلك أحباس كراسي التوريق وتزايد عددها، خاصة في منتصف القرن 8هـ، وأصبحت أعدادها مهمة بجامع القرويين، خلال القرن 10هـ[291]. وكان من بين ما أضيف إليها، أحباس كراسي تدريس كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ثم أضاف لها أبو عنان تحبيس كتاب الشفاء للقاضي عياض، وحبس نسخا عديدة منه على المساجد الأخرى بفاس، كجامع الأندلس وغيره[292]. ونسب لبعض صلحاء فاس أنه رأى أبا عنان في المنام وأنه غفر له ودخل الجنة، بفضل تحبيسه على قراءة

(290)ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى... م. س. ص23.

(291) الوزان وصف إفريقيا.. م. س. ص 23.

(292) الجزنائي، جني زهرة الآس... م. س ص80-81؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. 74-75؛ المقري، أزهار .م. س. ج 5ص86- 85

(293) المقري، أزهار... مز. س. ج 5 ص 86.

كتب الشفاء[293]. وانتقلت هذه الظاهرة إلى أهم مساجد فاس، فأحدث كرسي للوعظ والتفسير بالمسجد الجامع من المدينة البيضاء، مقر الحكم المريني بفاس، حوالي سنة 825هـ؛ ويتلقى القارئ عليه أجره من أوقاف هذا الجامع [294].

عندما أسس عبد الله الطريفي، حاجب السلطان المريني أبي سعيد الثاني (800-823هـ)، جامع للا غريبة بفاس، حبس عليه كتاب الشفاء للقاضي عياض ليقرأ منه للعامة، بعد صلاة الصبح كل يوم، وكانت أجرة القارئ عليه من الأحباس ستة دنانير شهريا[295]. ونظرا لتضافر جهود السلاطين ورجال المخزن والرعية، تكاثر عدد كراسي التوريق بالمساجد مع مطلع القرن 10هـ، كما يظهر، من خلال ما لاحظ الحسن الوزان، من أن كراسي مختلفة الأشكال كانت تحيط بجدران بجامع القرويين يلقي عليها العلماء "على الشعب دروسا تتعلق بأمر دينه وشريعته. تبتدئ هذه الدروس بعد الفجر بقليل وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس، وتلقى دروس أخرى في الصيف ليلا ويتعلق الأمر بالعلوم الأخلاقية والروحية المتصلة بالشريعة المحمدية"[296].

ويستفاد، من بعض الفتاوى، أن التحبيس على كتب الوعظ وصل إلى بعض البوادي، في القرن 9هـ، وانتشرت معه بعض كتب الوعظ المنافية للسنة[297].

هكذا تحولت دروس الوعظ والتذكير للعامة التي كانت، قبل القرن 7هـ، دروسا تطوعية يلقيها المتعلمون مجانا، إلى دروس يتلقى المشرفون عليها أجورهم من الأحباس، وبذلك أصبحت منتظمة تلقى يوميا، بعدما كانت في الماضي، تلقى يومي الاثنين والخميس أو في بعض المناسبات. ولا يشترط في متوليها أن يتوفر على تكوين علمي كبير، بقدر ما تتطلب حسن الصوت والإلقاء، مثل بكر بن عبد الرحمان المليلي الواعظ بجامع القرويين الذي "كان حسن

---

(294) الونشريسي، المعيار المعرب.. م. س. ج. 7 ص5.

(295) BE l, Alfred, Les inscriptions arabes de Fès... op. Cit. P. 199

(296) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ج.1 ص 177-178.

(297) الونشريسي، المعيار المعرب.. م. س ج. 7 ص 111.

الصوت يحسن القراءة بالطبوع (أي الموازين الغنائية) يؤثر بها في النفوس بطيب نغمه"(298) لذا كانت أجور هؤلاء متدنية، مقارنة بالعلماء المتضلعين الذين يدرسون على كراسي علمية، موجهة لطلاب العلم(299) .

الكراسي العلمية

هي كراسي محبسة لتدريس علم من العلوم للطلاب بالمساجد ومن خلال كتاب بعينه في بعض الأحيان. ويجهل تاريخ ظهورهذه الكراسي، كل ما نعرف حاليا أنه كان يوجد منها ستة كراسي، في القرن التاسع الهجري، بجامع القرويين، مخصصة لتدريس الحديث والفقه، والقراءات والنحو من خلال كتب معينة حبسها المحبسون لذلك، بل كانوا يحبسون أحيانا شروحا معينة لتلك الكتبة"(300) . ويبدو أن هذه الكراسي ظهرت في القرن التاسع الهجري، بعدما تدهورت أحباس المدارس، ابتداء من حروب السعيد بن عبد العزيز في العقد الثاني من القرن9هـ، حين أصبحت مواردها لا تكفي للقيام بوظيفتها، واقتصرت على إيواء الطلاب فقط(301) .

ب – تحبيس الخزانات على الجوامع والمساجد

تقدم أن تكوين المكتبات كان، قبل القرن 7هـ، مقتصرا على فئة قليلة من المتعلمين ذوي الجاه والإمكانيات المادية الكبيرة، فكان على جل الطلبة من أبناء العامة، خاصة الفقراء منهم، أن يعملوا بوسائلهم الخاصة للحصول على الكتب الدراسية بالإجارة أو الإعارة لنسخها والمقابلة والتصحيح أو للمطالعة، مما كان يتطلب منهم مجهودات مادية كبيرة ويتطلب وقتا، ولا يحصلون إلا على عدد قليل جدا من الكتب الضرورية. لكن عندما ظهرت المدارس تغيرت هذه الوضعية، وأصبح في إمكان طلابها الحصول على هذه الكتب واستعارتها مجانا. وكانت

---

(298) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى... م. س. ص 55-56.
(299) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ج. 1 ص177-178.
(300) المنوني محمد، كراسي الأساتذة بجامعة القرويين، مجلة دعوة الحق، السنة 9 عدد الرابع ص91-97.
(301) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ج 1 ص179، ابن غازي، الروض الهتون... م. س. ص15-16.

خزانة أبي الحسن الشاري بسبتة أقدم خزانة حبست لفائدة الطلاب سنة 635هـ كما تقدم، ثم حبست بعد ذلك الخزانات على المدارس الموحدية والمرينية؛ بل حبس على بعض المدارس المرينية خزانتان، كالمدرسة الجديدة التي بناها أبو الحسن المريني بفاس[302] . وانتشرت الخزانات بانتشار المدارس بالمغرب وامتدت لتشمل بعض المدارس بالبوادي، مثل خزانة مدرسة علم الكلام بجبل بني يزرو بالريف التي كانت ضخمة وقدرت قيمة كتبها سنة 918هـ ب 4000 مثقال[303] .

ولما فترت حركة بناء المدارس، في منتصف القرن 8هـ، بدأت الخزانات تحبس على الجوامع والمساجد، وظهرت المبادرة الأولى بمدينة سبتة، وحبست على جامعها الأعظم، في وقت سابق عن منتصف القرن الثامن الهجري. وكان أبو القاسم بن عمران الحضرمي (ت750هـ) ناظرا لهذه الخزانة[304] ولا نعرف صاحب هذه المبادرة الأولى، ويحتمل أن يكون من الخواص. أما المبادرة المخزنية، فقد جاءت على يد أبي عنان المريني، في جمادى الأولى سنة 750هـ/1349م، إذ حبس خزانة الكتب على جامع القرويين. ويتضح من خلال وقفية التحبيس الهدف من تحبيسها: "أنشأ هذه الخزانة الحميدة الجامعة للعلوم الحميدة... المحتوية على أنواع العلوم الواجب التعظيم بها... وقفا **مؤبدا لجميع المسلمين حرصا منه على طلبه** (أي العلم) وإظهاره واشتهاره، **وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ والمقابلة...**"[305] . وحبس أبو عنان كذلك على نفس الجامع خزانة للمصاحف في شهر شوال من سنة 750هـ، وعلى جامع الأندلس خزانة علمية. ثم استمرت حركة التحبيس بعد ذلك على الجوامع بأهم المدن، وساهم فيها رجال المخزن، كالحاجب أبي محمد عبد الله الطريفي الذي بنى مسجد

---

(302) الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار... م. س. ص30.
(303) الوزان، وصف إفريقيا.. م. س. ج1 ص259، الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس... م. س ص 76.
(304) مجهول، بلغة الأمنية... م. س. ص177.
(305) التازي، جامع القرويين، ط. دار الكتاب اللبناني 1973. ج1 ص331، عابد الفاسي خزانة القرويين ج1 ص3-4، وهي نفس الأهداف التي نقرأها على نسخ بعض الكتب المحبسة على هذه الخزانات، انظر المنوني محمد، تاريخ الوراقة المغربية ... م. س. ص50.
(306) BE l, Alfred, Les inscriptions arabes de Fès, op. Cit. 1918. P. 199.

الناصري، الاستقصا... م. س. ج 4 ص 90.

السوق الكبير بفاس وزوده بخزانة علمية كبيرة[306]، كما ساهم الخواص من الرعية بإغناء هذه الخزانات، كالمتصوف عمر الرجراجي (ت 810هـ) الذي اعتاد أن يحبس المؤلفات المختلفة على جامع القرويين، وكان يتورع من تحبيس الكتب المنسوبة لقوم وهي ليست لهم، مثل شرح الرسالة المنسوب للجزولي وغيره[307]. بل ساهم في هذه العملية حتى الطلاب الصغار كابن منديل المغيلي (ت 863هـ) الذي "نسخ بيده أيام صغره تقييد الجزولي وأودعه تصحيفا كثيرا أخنى عليه فيه رحمه الله تعالى صغر سنه وتركه محبسا بخزانة جامع القرويين"[308]. ونتيجة لتضافر جهود رجال المخزن والرعية، جهزت جل الجوامع بالمدن الكبرى بالخزانات، بين منتصف القرن 8هـ إلى القرن 9هـ، كجامع القرويين والأندلس، ومسجد السوق الكبير، والجامع الكبير بالمدينة البيضاء بفاس. وكانت مدينة سبتة تتصدر المكانة الأولى بين المدن من حيث عدد خزانات جوامعها، ويعرف من خزاناتها 5خزانات: خزانتان في المسجد العتيق وهو الجامع الأعظم، إحداها كانت كبيرة "وكانت في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون، ولا نوع من المعارف أصلا، مع تعدد مصنفات الفن وكثرة دواوينه"[309]، ثم خزانة مسجد القفال، ثم خزانة مسجد زقلو، وهو ثاني مسجد من حيث الأهمية، وخزانة جامع الربض الأسفل[310]. وكان آخر ناظر في خزانة الجامع الأعظم بسبتة هو أبو يعقوب الأغصاوي الذي لازم تلك الخزانة 8سنوات إلى سقوط المدينة 818هـ/1415م[311]. ومن الخزانات التي وصلتنا بعض أخبارها خزانة الجامع الأعظم بمكناسة التي ذكرت بصدد وفاة أبي الفتوح المغيلي سنة 818هـ[312]. ويمكن تفسير كثرة وغنى خزانات سبتة بنزوح المتعلمين الأندلسيين إليها.

---

(307) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص195، عن الإقبال الكبير الذي لقيه هذا المؤلف المسمى مسبع الجزولي، المقري، أزهار الرياض... م. س. ج 3 ص 36.
(308) ابن غازي، فهرسة... م. س. ص 78.
(309) الأنصاري محمد السبتي، اختصار الأخبار... م. س. ص 30.
(310) نفسه، ص30.
(311) ابن غازي، فهرس... م. س. ص847.
(312) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص 292.

تتميز خزانات المساجد بأنها تكون مفتوحة في وجه العموم من الطلاب وسكان المدن، على عكس خزانات المدارس التي كانت حكرا على أساتذة وطلاب المدرسة وحدهم دون غيرهم. وإذا كان تحبيس الخزانات على المساجد قد أتاح، مرة ثانية، توسيع دائرة المستفيدين مجانا من الكتاب لتشمل مجموعة أكبر من المتعلمين والطلاب غير الطلاب المنتمين للمدارس، فإنه من جهة أخرى، قد ساعد على إبعاد الكتب النظرية، ككتب الفلسفة أو الكتب التي تحوم حولها الشبهات وتصدم أفكارها المعتقدات الدينية لبعض الرجال الأتقياء، أو التي تعتبر من الناحية الدينية غير مفيدة ككتب التاريخ والشعر والكتب العلمية والتقنية، فإن هذا النوع كان لا يصل لرفوف الخزانات المحبسة بهذه الكيفية، في حين تزخر هذه الرفوف بكتب الوعظ والتصوف والفقه وعلم الكلام والحديث والمصاحف المزخرفة والمتميزة بالخطوط الجميلة وبروعة التجليد.

كانت هذه الخزانات تخضع لقوانين تضبط طرق الاستفادة منها واستعمالها، ويشرف عليها قيم يتقاضى راتبه من أحباس موقوفة لهذا الغر[313]. ومن هذه القوانين عدم إخراج الكتب من الخزانة، واستعارة كتاب بعد كتاب. غير أن جل الشروط التي وضعها المحبسون للحفاظ على محتويات الخزانات لم تحترم دائما، خاصة بخزانات المدارس، إذ كان المدرسون يخرجون الكتب منها لأنفسهم ولغيرهم، مما تسبب في ضياع الكثير منها[314]. وكان وقت الازدحام على قراءة الطلاب لكتب الخزانات، هو فصل الخريف و فصل الشتاء اللذين يشكلان الموسم الدراسي الأساسي [315]. وكان بعض الطلبة خلال هذا الموسم لا يستعملون الكتب المستعارة من الخزانات إلا بين صلاتي العصر والمغرب بعد الفراغ من حضور الدروس طيلة النهار[316].

---

(313) الجزنائي، جني زهرة الآس... م. س ص76.
(314) الونشريسي، المعيار المعرب.. م. س ج 7ص327، المنوني، ورقات ص202-203.
(315) الونشريسي، المعيار المعرب.. م. س. ج 7 ص340، المقري، أزهار الرياض... م. س. ج3 ص36.
(316) بن ميمون الغماري، الرسالة المجازة في معرفة الإجازة، نشرها محمد الفاسي بمجلة رسالة المغرب عدد 11 سنة 1943 ص 41,43 .

هكذا استرجعت المساجد تدريجيا وظيفتها التعليمية، بعد قرنين من منافسة المدارس لها، من خلال تبني طريقتها في التحبيس، وأصبحت المساجد توفر بدورها، الأساتذة والكتب للطلاب.

2- الأحباس تحول الرباط إلى الزاوية

لعبت الرباطات دوراً كبيراً في التعليم بنوعيه الديني والاحترافي قبل القرن 6هـ[317]، فهل تأثرت بدورها بالأزمة العامة لما بعد العهد الموحدي، كبقية المؤسسات التعليمية الأخرى ؟

يلاحظ أولا، أن الرباط اختفى خلال القرن السابع الهجري وحلت محله الزاوية. هذا التحول ليس تحولا فقط في التسمية، بل يعني أيضا تحولا تقلصت معه بعض وظائف الرباط، مثل وظيفة الجهاد الداخلي للمنحرفين عن السنة التي لم يعد لها مبرر، نظرا لتجدر المذهب السني بالمغرب، منذ القرن الخامس والسادس الهجريين، ونظرا لتباطؤ عمليات الجهاد الخارجي للدفاع عن دار الإسلام بالأندلس. وقد تزامن توقف وظيفة الجهاد في الزاوية مع تقلص وظيفة الجهاد لدى الدولة المرينية المعاصرة لظهورها مقارنة بالمرابطين والموحدين[318]. لكن رغم اختلاف الزاوية عن الرباط، قد ورثت الزاوية عن الرباط دوره في التعليم بنوعيه: التعليم الديني للراشدين، و تعليم طلاب العلم، واقتصرت على ذلك فقط. ما هي الزاوية، ومتى ظهرت؟

فرق ابن مرزوق التلمساني، في القرن الثامن الهجري، بين الزاوية وبين الرباط، فلاحظ أن الرباط لدى الفقهاء هو مكان احتباس النفس للجهاد والحراسة، بينما يعني، لدى المتصوفة، المواضع التي يلتزم فيها العبادة؛ في حين أن الزوايا تعني في المغرب المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين، كالتجار وغيرهم من عابري السبيل، أي أنها ليست رباطات بالمعنى

---

(317) انظر دور الرباطات في الفصل الخامس.

(318) يرى ابن خلدون أن "وظيفة الجهاد بطلت ببطلانه، إلا في قليل من الدول، يمارسونه ويدرجون أحكامه غالبا في السلطانيات " المقدمة... م. س. ص400.

المصطلح عليه لدى الفقهاء ولا لدى الصوفية، بل مؤسسة لها طابع إحساني مخصصة لإيواء المسافرين وأبناء السبيل. ولاحظ أن الرباط بالمفهوم المشرقي، بمعنى ملازمة السكان لها قصد العبادة، لا ينطبق إلا على رباطين هما: رباط أبي محمد صالح بأسفي وزاوية أبي زكرياء يحي بن عمر الحاحي، غرب المسجد الجامع بسلا. ويستنتج من هذا الكلام ومن المصادر الأخرى، أن مصطلح الزاوية، خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، كان يطلق في الغالب على أماكن أعدها المخزن لإطعام الواردين والقاصدين وتضييفهم بضواحي المدن أو في الفلوات، ولذلك تسمى أيضا دار الضيفان. وكانت هذه المؤسسة، ذات الطابع الإحساني والخيري، تمول بدورها بواسطة الأحباس، مثل المدارس وكراسي التدريس في حين تعني الزاوية عند المتصوفة مكان استقبال المريدين بالدرجة الأولى. ورغم تمييز ابن مرزوق السابق بين الزواية والرباط في المغرب، فإن الفرق بينهما لم يكن دقيقا ومحددا آنذاك، إذ إن الزوايا كانت تقوم، بالإضافة إلى دورها في إطعام الواردين عليها، بدور الرباط لدى المتصوفة، والدليل هو أن المعاصرين لابن مرزوق كانوا يطلقون اسم الزاوية تارة، والرباط تارة أخرى، على نفس المؤسسات الخيرية، كإطلاق اسم الزواية على رباط أبي زكرياء يحي بن عمر الحاحي بسلا، وتسمية مؤسسة مشابهة لها في أسفي بالرباط. كما أن زوايا المخزن المريني لا تخلو من أماكن خاصة بالنساك والفقراء (المريدين) يتفرغون فيها لتلاوة القرآن كزاوية الحزاب التي أنشئت بالقرويين، سنة 762هـ (318). وما يمكن استنتاجه من هذا، أن مصطلح الزواية اقتصر، عند المخزن أول الأمر، على مؤسسة يغلب عليها القيام بوظيفة إطعام الواردين الغرباء وخاصة من التجار أو من المريدين وممولة بالأحباس، واستعمله المتصوفة بمعنى محل ضيافة السياح من الفقراء والمتعبدين. وهذا المعنى الأخير، هو الذي تغلب في الأخير وحل تدريجيا محل مصطلح الرباط القديم الذي كان يعني، في نفس الوقت، مكان جهاد وتعليم وعبادة، خاصة بعد زوال خطر الجماعات الخارجة عن السنة داخل

(319) المنوني محمد، ورقات عن الحضارة... م. س. ص47.
(320) الجزنائي، جني زهرة الآس... م. س. 76-77.

المغرب. ويبين الاشتقاق اللغوي لكلمة الزاوية الوظيفة الجديدة لهذه المؤسسة، ألا وهي الانزواء لمجاهدة النفس وتطهيرها بالعبادة [320]. فمتى ظهرت الزاوية؟

يمكن تسجيل ملاحظتين بالنسبة لتاريخ ظهور الزاوية :

أولها، إذا كان ظهور الرباطات، بالمغرب يعود إلى القرن 3هـ، فإن تاريخ ظهور الزوايا كمؤسسة بالمعنى الصوفي السابق غير معروف بدقة، إذ إن المصادر التاريخية المعروفة لم تتحدث عنها -في حدود علمي- قبل القرن السابع الهجري.

وثانيها، أنها ظهرت بمبادرة الرعية أول الأمر، ثم تبنى المخزن، بزعامة البيت الحاكم من بني عبد الحق المرينيين، هذه المبادرة بعد ذلك. وهكذا لم تظهر الزوايا الرسمية لإطعام وإيواء المسافرين إلا منذ العقد التاسع من القرن السابع، على يد المخزن المريني. وكانت أقدم الزوايا المرينية، هي زاوية تافرطست التي بنيت، سنة 684هـ على قبر الأمير عبد الحق المتوفى 614هـ، والمشيدة على نهر سبو، وحبس عليها مدخول أرض فلاحية تعادل مساحتها محرات 40 زوجا[321]، أي حوالي[322] هكتارا لإطعام أبناء السبيل على الدوام. وأسست بعد ذلك، زوايا أخرى بالعديد من المدن، منها زاويتان بمكناسة أسسهما أبو الحسن المريني، الأولى لما كان وليا للعهد، والثانية بعد استقلاله بالحكم[323]، أو الزوايا التي بناها أبو عنان المريني، منها زاوية سنة 757هـ، بضاحية مدينة سلا وهي المعروفة بزاوية النساك[324]، والزاوية المتوكلية على وادي حمص بضاحية فاس، ووقف عليها أحباسا كثيرة لإطعام الواردين والفقراء (المريدين)[325]، أو التي ابتناها بمدينة سبتة "بخارج باب فاس أحد أبواب آفراگ، وأعدها للغرباء

(321) عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية... ج2 ص473.
(322) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية... مصدر سابق، ص373.
(323) ابن غازي، الروض الهتون... م. س. ص 14، ابن زيدان، الإتحاف... م. س. 120، 122.
(324) النميري ابن الحاج محمد، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب. دراسة وإعداد محمد بن شقرون. ط. الرباط 1984 ص 42ص47-49، ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب... م. س. ص 170.
(325) النميري، فيض العباب.. م. س. ص 47، المنوني، ورقات عن الحضارة... م. س. ص46 .

ولمن اضطر إلى المبيت من التجار وغيرهم، مليحة البناء كثيرة الزخرفة والتنلميق متسعة الساحة متعددة المساكن"[326].

أما أقدم الزوايا غير المخزنية بالمغرب الأقصى، حسب الإشارات التاريخية المتاحة في مصادرنا، فهي تلك التي ظهرت بدكالة في بداية القرن 7هـ، قبل أكثر من نصف قرن تقريبا من تأسيس الزاوية المرينية، إذ ذكر لنا الماجري زاويتين تابعتين لرباط أبي محمد صالح بأسفي، هما زاوية الگلاسة، وكان صاحبها عبد الصمد الدكالي وزاوية لميمون بن ومالان الدغوغي بموضع من بني دغوغ، وهما معا من معاصري ومريدي الشيخ أبي محمد صالح[327]. ويمكن أن يستنتج، من سياق هذه الرواية العرضية، بأن ظهور هذه الزوايا الأولى، في أوائل القرن السابع الهجري، بدكالة، كان نتيجة طبيعية لظهور ركب الحجيج بالمنطقة وتنظيمه، إذ كانت هذه الزوايا الأولى محطات توقف معدة لإطعام وإيواء الحجاج، أنشأها أبو محمد صالح بن ينصارن وأتباعه على طريق الحج بين أسفي ومكة، وكانت تتكفل باستضافة المعوزين منهم وإطعامهم وإيوائهم. ولهذا نجد زوايا أخرى على طريق الحجاج، منها ما ذكره لنا الماجري كذلك من وجود زاوية بقطر بجاية، كانت بدورها تابعة للرباط[328]، ومنها زاوية المتصوف سليمان بن يحي المشهور بابن ستهم بجبال الريف التي كانت تنفق على الفقراء وتستقبل الحجاج المصامدة القاصدين للحج[329]. كما يستنتج من هذه الرواية كذلك، أن ظهور الزوايا، كان متزامنا مع تبلور الطوائف الصوفية بالمغرب خلال هذه المرحلة. ومن بين أقدم هذه الطواءف بالمغرب، طائفة أبي محمد صالح بأسفي والتي تسمى أيضا طائفة الحجاج. وبذلك تكون مؤسسة الزاوية ظهرت بدكالة قبل ظهور الزوايا الرسمية المرينية، وتكون هذه المنطقة سباقة كذلك إلى هذه

---

(326) الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار... م. س. ص32.

(327) الماجري أبو العباس أحمد، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح. ط.1، مصر 1933 ص 329-327.

(328) نفسه، ص 135.

(329) البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف.م. س. ص 118-119، ذكر البادسي كذلك زاويتين في القرن 7هـ هما زاوية ابن سبعين بسبتة ص69، وزاوية اليستثني ص 114.

المنقبة. ومنذ هذا التاريخ تكاثر عدد الزوايا بدكالة، إلى درجة أن مركزا عمرانيا مهما، زاره ابن قنفد في القرن8هـ، كان يسمى الزاوية على ساحل دكالة بين إيير ومدينة أسفي[330]، مما يدل على مكانة الزاوية في مؤسسات المنطقة. كما يخبرنا الحسن الوزان أن سكان مدينة بولعوان قد شيدوا "بناية من عدة غرف على شكل إسطبل عظيم، وكان الذين يمرون بهذه المدينة يستضافون بإكرام في هذه الدار على نفقة السكان"[331] لأنهم أغنياء بحبوبهم.

ورثت الزاوية عن الرباط، إلى جانب هذا العمل الخيري من إطعام أبناء السبيل، وظيفة التعليم بنوعيه الديني للراشدين والاحترافي للطلاب، غير أن نشاطها التعليمي كان متواضعا مقارنة بنشاط المدارس والجوامع بالمدن؛ ولم يعرف ازدهارا ملحوظا إلا في القرن التاسع الهجري، لعدة عوامل، منها: تدهور المدارس و تقلص نشاطها في هذا القرن، وتزايد نفوذ الزوايا في خضم الأزمات المختلفة التي عاشها المغرب حين استرجعت وظيفتها الجهادية، من خلال استقطاب مجهودات المغاربة لمواجهة الضغط الإيبري على السواحل المغربية، فكثر عدد مريديها وازدادت مداخيلها مما سمح لها بتوسيع نشاطها في مجال تعليم العلم للطلاب. وهذه بعض الأمثلة على ذلك: كان بزاوية أبي عبد الله الخياط (ت 939هـ) بجبل زرهون ما يزيد عن الألف من حملة القرآن، وكان هذا الشيخ لا يفتر عن تدريس العلم للطلاب، وغالب دروسه كانت من رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه، ومن الحكم لابن عطاء الله في التصوف والأخلاق"[332]. وكان الشيخ الغزواني يقرئ حوالي 80 من الصبيان والطلبة وأهل المنزل[333].

---

(330) الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء المغربية، ط. 1967 ص78.
(331) الوزان، وصف إفريقيا... مصدر سابق، ص 122.
(332) العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش... م. س ج 8 ص147.
(333) نفسه ج 8 ص 245.

وهذا عبد الله الهبطي" لا يرى أحد من الرجال والنساء بزاويته إلا أن يكون تاليا لكتاب الله أو ذاكرا لأسمائه أو متعلما لمعرفة"[334].

وقد استطاع تعليم الزوايا في البوادي، أن يهيمن مؤقتا، في أوائل القرن10هـ، على تعليم المساجد والمدارس بالمدن، كما استطاع أن يطبع - بكيفية شبه تامة- التعليم بالمغرب بالصبغة الصوفية، من خلال نجاح الزوايا في التوفيق بين "علم الظاهر" و"علم الباطن" وإقامة مصالحة بين ثقافة الفقهاء وثقافة المتصوفة.

وإذا كانت إجراءات التحبيس قد همت مؤسسات المرحلة الثانية من التعليم، كالمدرسة والجامع والزاوية. فماذا عن الكتاتيب، مؤسسة المرحلة الأولية.

3- *الكتاتيب لم تستفد كثيرا من الأحباس*

ذكرنا أن المكتب كان يشكل مؤسسة خاصة بتعليم أبناء العامة أو الرعية، وقد أقيمت هذه المؤسسة بجانب المسجد أول الأمر، تحرزا من نجاسة الصبيان للمساجد، ولكي لا يتخذ المسجد مكانا للتكسب، لذلك كانت تعرف كذلك بالمسيد في العامية أو تمزگدا بالأمازيغية[335]، والمدرس فيها بومزگيدة[336]، وتسمى كذلك المحضرة. وكان الفقهاء يستحسنون أن يكون المكتب في مكان عمومي، لأنه من الشعائر الإسلامية التي ينبغي إظهارها، وتجنبا للقيل والقال[337].

وقد أصبحت هذه المؤسسة ضرورة اجتماعية يفرضها الضغط الاجتماعي كلما ترسخ الإسلام بشمال إفريقيا، فإذا "ظهر على أحد أنه ترك أن يعلم ولده القرآن تهاونا بذلك لجهل وقبح ونقص حاله"[338]. ولهذا عرفت الكتاتيب انتشارا

---

(334) ابن عسكر، دوحة الناشر... م. س. ص، 7; 13.
(335) ابن حوقل أبو القاسم البغدادي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة -بيروت 1979 ص79.
(336) البيدق، أخبار المهدي بن تومرت... م. س. ص69،83.
(337) ابن الحاج، المدخل... م. س. ص313، ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 1038.
(338) القابسي أبو الحسن علي، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين، الملحقة بكتاب، التربية والتعليم في الإسلام، لأحمد فؤاد الأهواني، ط. بيروت، ص291.

كبيرا، بين القرن الثاني الهجري وبداية القرن السادس الهجري، حتى عمت جهات الغرب الإسلامي. ولم تكن الصراعات المذهبية والسياسية، خلال هذه الفترة، تحول دون انتشارها المتواصل؛ إذ كان الخوارج يرسلون أبناءهم للتعلم في كتاتيب أهل السنة بإفريقية، بل إن قبائل برغواطة بتامسنا التي اعتبرت جماعة منحرفة، كانوا يحفظون القرآن ويتأولونه على أنه قرآنهم، خلال القرن الرابع الهجري [339] وكان الجميع - مهما كان مذهبه-حريصا على توفير المعلمين لأبنائهم، واستغل أبو عبد الله الداعية الشيعي هذا الحرص فجاء مع حجاج كتامة بصفته معلما [340] وكانت القبائل تفتخر بالمكانة العلمية لمعلميها[341]. وقد وصل المعلمون حتى للمناطق الصحراوية النائية كمضارب كًدالة ولمتونة في الصحراء الكبرى، غير أن تكوينهم كان ناقصا وعددهم غير كاف للقيام بتعليم الدين للراشدين الذين "ليس فيهم من يقرأ القرآن"[342]. وفي نفس الفترة تقريبا اتخذت القبائل المرينية بمضاربهم في الصحراء معلما لأبنائها، ومنهم علي بن صالح السرغيني من المصامدة الذي استقر بأحياء بني مرين قرب جبل اكجان بالزاب بطلب من محمد بن وزير، فكان يصلي بهم ويعلم أولاهم القرآن، وأصبح أحفاده فيما بعد يعرفون ببني علي ضمن القبائل المرينية[343]. غير أن بعض المناطق المعزولة مثل بعض القرى بجبال درن (الأطلس الكبير الغربي) لم تعرف ظهور الكتاتيب إلا في مطلع القرن 6هـ، حين بنى فيها ابن تومرت مساجد أثناء رجوعه من المشرق سنة 514هـ[344]. ومما يؤكد غيابها لدى بعض المصامدة أن ابن تومرت وجد صعوبة كبيرة في تحفيظهم سورة الفاتحة[345]. أما في المدن،

---

(339) ابن حوقل، صورة الأرض... م. س. ص73، واجبر اليهود في عهد الموحدين إلى أن يقرؤوا أولادهم القرآن وعلى إظهار الإسلام والصلاة في المساجد، انظر المراكشي، العجب... م. س. ص 435.

(340) ابن عذاري، البيان المغرب... م، س ج 1 ص 125.

(341) نفسه، 128، ابن أبي زرع، الذخيرة السنية... مصدر سابق، ص21.

(342) ابن أبي زرع، روض القرطاس.. م. س. ص122-124.

(343) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية... مصدر سابق، ص 21.

(344) البيدق، أخبار المهدي بن تومرت... م. س. ص 31.

(345) الناصري، الاستقصا... م. س. ج2 ص 94.

فقد ازدهرت هذه المؤسسة منذ القرن الثاني للهجرة وتكاثرت بها، كما كان الشأن بمدينة فاس أو بمدينة سجلماسة في القرن 5هـ.

تأثرت مؤسسة الرعية كغيرها من المؤسسات التعليمية الأخرى بالأزمة العامة بعد القرن 6هـ، مما اضطر المخزن المريني في عدة مناسبات إلى مساعدة بعض المعلمين ماديا، بمنحهم بعض الهبات كما فعل أبو عنان المريني، في منتصف القرن 8هـ(346). ورغم تأثر الكتاتيب القرآنية بالأزمة السابقة الذكر، فإن ظاهرة الأحباس لم تمتد إليها ولم تعرفها، إلا بشكل محتشم ومحدود في منتصف القرن 8هـ، حين أقدم بعض المحسنين على بناء مكاتب للصبيان بمدينة فاس، دار ملك المرينيين، وحبسوا عليها الأوقاف كما فعل أبو عنان المريني حين بنى بجوار المدرسة المتوكلية كتابا للصبيان(347). وكذلك فعل الحاجب المريني أبو عبد الله الطريفي عندما بنى مسجد للا غريبة وألحق به مكتبا محبسا لتعليم الصبيان(348). وأصبح عددها بفاس، في بداية القرن 10هـ، حوالي 100 كتاب، في كل منها قاعة كبيرة بمدرجات تستعمل كمقاعد للأطفال، لا يؤدي عنها المعلمون كراء "لأنها أوقاف وصدقات جارية على أرواح الواقفين"(349). ورغم تحبيس بنايات مخصصة للكتاتيب، فقد كان على الأطفال أن يؤدوا أجرة المعلمين، أي أن تعليم الصبيان لم يمول كاملا من الأحباس. وبهذا لم تستفد مؤسسة الكتاتيب التي هي مؤسسة العامة من إجراء التمويل بالأحباس إلا جزئيا، وفي منطقة جغرافية محدودة هي فاس، دار ملك المرينيين بالدرجة الأولى.

خلاصات

ساهمت ظاهرة انتشار الأحباس في المساجد، إلى جانب المدارس، في إحياء العلم ونشره بين فئات اجتماعية مهمة من الرعية، لكن، في مقابل ذلك، ساهمت الأحباس في تدني المستوى التعليمي، حين عملت على تغليب الجانب الكمي على الجانب الكيفي، وتقييد حرية المتعلمين والمعلمين.

---

(346) النميري، فيض العباب.. م. س. ص 19.
(347) نفسه، ص19.
(348) Bel, Les inscriptions... opt. cit 199.
(349) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ج1 ص 203-204.

كما أن إجراءات التحبيس التي اتخذت قصد تمويل التعليم بكيفية دائمة ومجانية، لم تشمل كل المؤسسات التعليمية السابقة للمدرسة، مثل المكتب مؤسسة الرعية الأساسية، إلا بشكل محدود في المكان. ولهذا كانت استفادة أبناء الرعية من المرحلة الأولى في التعليم بواسطة الأحباس محدودة.

سمحت الأحباس للدولة بالتدخل، بشكل غير مباشر في التعليم، ذلك أن القاضي هو الذي كان يتولى الإشراف على الأحباس عامة، وضمنها الأحباس المخصصة للتدريس، ولذا كان القضاة يشرفون بحكم إشرافهم هذه على الأحباس، وعلى بناء أغلب المدارس، وعلى تعيين المدرسين بها .

غير أن هذا الإشراف على أحباس التدريس لا يعني تدخلا للدولة في المجال التعليمي قصد تدجينه وتوجيهه حسب سياساتها، لكن تدخلها في تعيينات الأساتذة، كان تطبعه المحسوبية والزبونية، وقلما خضعت تلك التعيينات للكفاءة العلمية والتربوية، كما تقدم ذكره.

هل لتغيير طريقة تمويل التعليم تأثير على المضامين والمناهج الدراسية؟ ذلك ما يتطرق إليه الفصل الموالي.

الفصل الثالث
المحتوى الدراسي والمناهج التعليمية

I- *المحتوى الدراسي*

ألفت العديد من الكتب في تصنيف العلوم المعروفة في الثقافة الإسلامية قصد توجيه الطلاب في دراستهم، ويضم أغلبها لائحة تشمل أزيد من أربعين علما[350] ، وهي لائحة تشكلت تدريجيا، ابتداء من القرنين الثاني للهجرة، مع ظهور العلوم الشرعية الإسلامية والأدبية ومع اقتباس علوم الحضارات السابقة. ويمكن اعتبار تلك التصانيف نوعا من المقررات الدراسية التي يمكن للطلاب أن يختاروا منها ما يشاءون، حسب عدة اعتبارات، كما سنبين فيما بعد. غير أن لائحة المواد المدروسة علميا في حلقات الدروس العامة بالمساجد أو المدارس أقل من نصف اللائحة التي تقدمها كتب تصانيف العلوم، ولا تشتمل إلا على حوالي عشرين علما فقط، موزعة بين علوم دينية وأدبية وطبيعية[351] . ولم يكن تدريس هذه اللائحة خاضعا لمقاييس مضبوطة ومقننة، إذ ليس هناك مضمون دراسي موحد لمستوى من مستويات التعليم، أو لجهة من جهات المغرب، خلال

---

(350) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 779-888 ,838-1055-992-1072، المنوني، العلوم والآداب... م. س. ص 44-133، علي زيغور، من صياغة التربية ونفسانية المتعلم في الفكر الإسلامي، مجلة الفكر العربي عدد 19 سنة 1981 ص273.

(351) حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، 1977 ص 85-82، المختار السوسي، سوس العالمة... م. س. ص. 31-58.

العصر الوسيط، في غياب أية سلطة أو هيئة تعليمية تشرف وتعمل على توحيد المقررات، بل كان الطلاب والمدرسون يتمتعون بحرية نسبية في اختيار المادة التي يرغبون في تعلمها، متى شاءوا، ومن أي كتاب شاءوا، وعلى الأستاذ الذي يطمئنون إليه. لذا تعددت المحتويات التعليمية، حسب ميول الأفراد وتقاليد الجهات، في وقت معين. ومع ذلك ترسخت، في ظل هذه الحرية النسبية وهذا التنوع، عوائد كانت توجه الطلاب لاختيار مواد بعينها والبداية بأخرى يفرضها مجتمع يتسم إجمالا بالمحافظة، وبالتالي يمكن ملاحظة وجود وحدة داخل هذا التعدد والتنوع، كانت تفرضها بعض العادات، أهمها:

1- ***عادة المشاركة***

تقتضي هذه العادة أن يلم الطالب بالمبادئ الأساسية للعلوم المتداولة في عصره، بغض النظر عن ميوله الشخصية. وتلح الأدبيات التربوية على مراعاة هذه العادة. يرى الغزالي مثلا "أن لا يدع طالب العلم فنا من **العلوم المحمودة**، ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه. وإلا اشتغل بالأهم واستوفاه وتطرف من البقية. فإن العلوم متعاونة، وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الإنفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا"[352] . هذه العادة جعلت لكل العلوم حظا وعناية لدى المتعلمين المغاربة والأندلسيين على الخصوص، إلا الفلسفة والتنجيم التي كان لها حظ عند خواص علماء الأندلس والمغرب[353]، كما جعلت هذه العادة أغلب المتعلمين يمتلكون تكوينا موسوعيا، ولذا كانت تنعتهم كتب التراجم بنعوت، مثل: مشارك، مخالط، متصرف في العلوم..إلخ.

---

(352) الغزالي، إحياء علوم الدين... م. س. ص 14.
(353) ابن الخطيب، نفح الطيب... م. س. ج 1 ص221.

2- الحرية النسبية للمتعلم

كان الذي يوجه الطالب، في إطار عادة المشاركة، ليختار من العلوم الرائجة هو طاقاته وإمكانياته الفكرية والمادية وميوله الشخصية، فكان يتعلم على المدرس الذي يثق في كفاءته ويطمئن إليه، بل يختار أحيانا الكتاب الدراسي في مادة معينة ويسايره أستاذه في حريته. فهذا محمد بن حياتي (ت 781هـ)، اعتاد أن يدرس كتاب المرادي في الألفية الذي أدخله إلى فاس"فطلب منه بعض الطلبة أن يقرأ عليه الجازولية، فأخذها ابن حياتي وقصد ابن العباس المراكشي يقرأ استفتاحها في الجنس والنوع، ثم أقرأها عشية يومه"[354]. بل منهم من يذهب أبعد من ذلك فيترك الحرية لطلابه للقراءة في أي مكان شاءوا من الكتاب، كما فعل راشد بن راشد الوليدي (ت 675هـ) الذي كان لا يحجر على تلميذه النجيب أبي الحسن الصغير في القراءة، بل" يقرأ من التهذيب من أي مكان شاء"[355] ويحترمون كذلك ميول الطلبة، مثل الشريف أبو عبد الله محمد التلمساني (ت871هـ) الذي كان يترك كل واحد وما يميل إليه من العلوم ويقول لهم:"من رزق في باب فليلازمه"[356]. كما كانت تؤول رؤيا الطالب في النوم غالبا على أنها علامة على ميل الطالب لذلك العلم، وأنه سيفلح فيه ويكون له فيه شأن كبير. فعثمان السلالجي (521-574هـ) قص رؤياه على إمام مسجد بفاس، وفسر له الرؤيا بأنه سيكون له شأن كبير في دراسة علم الكلام، لذلك نصحه بملازمة دراسته، وامتثل الطالب للنصيحة وأصبح بعد ذلك من أشهر مدرسي علم الكلام بفاس[357]. وحدثت نفس الظاهرة لعبد الرحمان بن سليمان اللجائي (ت771هـ) الذي شاهد رؤيا في نومه وقصها على أبيه، فاستنتج منها الأب تعلق ابنه بعلم الفلك، فلما أصبح ناوله نفقته، وقال له: "اخرج إلى مراكش واقصد ابن البناء واطلبه في علومه"[358]. وأصبح بعد ذلك من أشهر مدرسي المادة بفاس خلال

---

(354) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 237.
(355) المقري، أزهار الرياض... م. س. ج.
(356) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص 258.
(357) ابن الزيات، التشوف... م. س. ص178.
(358) عباس بن إبراهيم، الإعلام... م. س. ج 8 ص 101.

القرن8هـ. ومن مظاهر احترام إمكانيات الطلاب وطاقتهم اقتصار المكفوفين منهم على تعلم القراءات والتخصص في تدريسها بعد ذلك، لأنها لا تتطلب منهم غير الحفظ، مثل قاسم بن فيرة الشاطبي (ت 520هـ) الذي كانت له معرفة بالفقه فطلب منه أن يدرسه فأجاب: "ليس للعميان إلا القرآن". وقد برع في القراءات وألف فيها كتبا أصبحت تدرس في أقطار الغرب الإسلامي طيلة بقية العصر الوسيط [359]. وتتخلل كتب التراجم أخبار بعض المكفوفين اشتهروا بتدريس علم القراءات في الأندلس والمغرب، خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ومن هؤلاء، علي بن محمد الفهري (ت 618هـ)، مؤدب أبناء وبنات يعقوب المنصور الموحدي، ونال بهذه الوظيفة جاها وثروة كبيرة [360]. ومنهم من انصرف إلى التخصص في حرفة الوعظ التي ازدهرت، أواخر القرن السادس الهجري، مثل محمد بن الحجام المكناسي (ت614هـ) الذي ألف في الوعظ كتابا مشهورا، وكان يعظ بمراكش باستدعاء من يعقوب المنصور[361].

غير أن حرية المتعلم هذه لم تكن حرية مطلقة، بل كانت تحد منها التقاليد المحلية وضغط الرأي العام الذي يمثله الفقهاء أساسا بالمدينة. وهذا التأثير هو ما أدركه قاضي الجماعة بمراكش عيسى بن عمران (ت 578هـ)، فكان مما أوصى به ابنه الذي كان يتابع دراسته بفاس في القرن 6هـ: "وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه، وما رأيتهم مجتمعين على ذمه فاجتنبه، والأعدل الأقسط أن تسلك السبيل الوسط"[362]. ويظهر تأثير المجتمع في القرن التاسع الهجري مما حدث لوالد أحمد بن صالح الفيلالي (862هـ) حين كان يصلي لركن من جامع القرويين، وعندما استفسره القاضي عن ذلك أجابه بأن معرفته بعلم الفلك جعلته مقتنعا بأن اتجاه القبلة هو المكان الذي يصلي إليه، فأجابه القاضي: "أما سمعت

(359) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... س 5 ص594.
(360) نفسه، س 5 ص395.
(361) نفسه، س 8 ص 266.
(362) ابن القاضي، جذوة الاقتباس.. م. س. ص 503.

قول القائل:اخطأ مع الناس ولا تصب وحدك"[363]. فضغط الرأي العام هو الذي فرض على الطلاب دراسة المواد الدينية أولا، ثم يتبعونها بدراسة المواد العقلية لمن يرغب في ذلك. وتظهر هذه العادة من خلال تصرف أحمد بن محمد البكري الذي اشترى كتاب الإرشاد لأبي المعالي في علم الأصول، فرفض أستاذه أن يدرسه معه، وأمر برد الكتاب إلى صاحبه والعودة إلى ما كان بصدده من دراسة الحديث والفقه [364]. كما تظهر من تصرف أبي بكر بن زهر الحفيد بمراكش مع طالبين كان يشتغلان عليه بدراسة الطب، فشهد يوما كتابا في المنطق بيد أحدهما، وكان هدفهما دراسته عليه، فأخذ الكتاب منهما ورمى به ونهض إليهما حافيا لضربهما وهربا أمامه وبالغ في تقريعهما وتأنيبهما على ذلك، فانقطعا مدة عن حضور دروسه حتى قدما له اعتذارا عما صدر منهما فأذن لهما باستئناف الدراسة، وأمرهما بإجادة حفظ القرآن والاشتغال بالتفسير والحديث والفقه ومراعاة الواجبات الدينية حتى صارت لهم عادة وسجية. حينذاك أقرأ لهم ذلك الكتاب بعد تيقنه من صلاحيتهما لدراسته [365]. يبرز هذان المثالان ضغط الأساتذة على طلابهم لدراسة المواد الدينية أولا، ثم يدرسون بعد ذلك ما يشاءون، أو ما يطلبه السوق من بضاعة.

3- *تلبية حاجات السوق*

كان العلم، في تصور القدماء، بضاعة شريفة تخضع لقانون العرض والطلب، **وتتفق بضاعته أو تكسد** [366] في سوقين أساسيتين: سوق السلطان وسوق الرعية، ولكل منهما طلباتها الخاصة من العلوم، حسب الظرفية السياسية والاجتماعية في زمن ما من العصر الوسيط.

(363) نفسه ص 155-156.
(364) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س. ص 178-179.
(365) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء... م. س. ص 523-524.
(366) انظر مثلا إطلاق مصطلح البضاعة أو الصناعة الشريفة على العلم عند ابن خلدون، المقدمة .م. س. ص701-702، ومصطلحي، نفاق أسواق العلم أو كسادها. نفسه، ص 772، 774، 779، 781 ويبدو من خلال بعض التراجم أن التجار كانوا أهم المروجين لبضاعة العلم من القرن 3 إلى القرن 6هـ، إذ ساهموا في نقل الكتب من منطقة لأخرى، كما كان بعضهم خلال هذه الفترة يجمع إما بين التجارة وبين طلب العلم، أو تدريسه، غير أن هذه الظاهرة بدأت تقل، بعد القرن 6هـ، حتى اختفت نهائيا. وقد توصل كوخن في أبحاثه إلى أن 6، /66 من الفقهاء في القرن 9 الهجري كانوا من التجار وأغلبهم من تجار القماش، أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1985، ص 130.

أ - حاجات سوق الرعية :

كانت أهم بضاعة نافقة في هذه السوق الشاسعة هي العلوم الدينية بصفة عامة، وتأتي بضاعة الفقه في مقدمة ما يقبل أغلب الطلاب على دراسته أكثر من المواد الأخرى، كالحديث وعلومه أو القرآن مثلا. ويمكن تفسير هذا الإقبال الكبير من طرف الطلاب على الفقه بأربعة أمور على الأقل :

أولا ، كان أهم وسيلة للحصول على الجاه والثروة، وفي ظرف وجيز، وبأقل تكلفة مالية وبأقل مجهود دراسي. وترد في المصادر أبيات شعرية يمدح فيها المدرسون الفقه وتفضيله على بقية العلوم[367]. وبالفعل، كان الفقه يفتح أمام الطلاب مجالات متعددة للعمل في مناصب مهمة، كمنصب القضاء والتدريس والتوثيق والإمامة والخطابة. مما يضمن للطلاب ترقية اجتماعية داخل سلم الهرم الاجتماعي. ويبدو ذلك من مثال إقبال الطلاب المصامدة، خلال القرن الخامس الهجري، على دراسة الفقه بمدينة أغمات على يد أساتذة، مثل الزاهد عبد العزيز التونسي (ت 486هـ)، وقد ساءه أن ينال بذلك تلاميذه الخطط والعملات ويسودوا في أقوامهم، واعتبر تدريسه للفقه كمن يبيع السلاح للصوص[368].

ثانيا ، سهولة دراسته وقصر مدتها مقارنة بالحديث مثلا، وقلة النفقات التي تتطلبها دراسته لأنه لا يستلزم تحمل مشاق الرحلة إلى منطقة نائية للأخذ عن عدة شيوخ. وكان يكفي أحيانا حفظ كتاب واحد في الفقه ليصبح الطالب فقيها. مثل التقريب لأبي القاسم خلف البرالي (ت443هـ) الذي شاع عنه بين الطلاب، منذ القرن الرابع الهجري، أن من قرأه يكون فقيها في ليلته[369]. ويقول سعيد الهواري الفاسي في وصيته للطلاب: "عليكم بالفقه فإنه كالتفاح الجبلي يطعم من سنته"[370].

ثالثا ، لا تستلزم دراسة الفقه إتقان عدة علوم مساعدة مثل النحو واللغة أو أصول الفقه مثلا. لذا نجد عددا من الفقهاء ناقصي التكوين في هذه العلوم،

(367) ابن فرحون، الديباج المذهب.م. س ص78، ابن عبد الملك؛ الذيل والتكملة... م. س. س 4 ص101.
(368) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س. ص 93.
(369) ابن فرحون، الديباج المذهب.م. س. ص 114-113.
(370) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص462.

منهم أبو عبد الله الأموي (ت 517هـ) الذي "كان متقدما في الفقه واللغة بمدينة سبتة وتولى بها القضاء، لكنه كان يقصر به لسانه عن تأدية بعض ما عنده إذ كان لم يطالع شيئا من علم العربية"[371]. والأمثلة متعددة على ذلك[372].

رابعا، لا يتطلب الفقه مهارات فكرية غير الحفظ أو الفهم في أقصى الحالات، لذا كان أصحابه يميلون إلى التقليد الفكري، وليس إلى الاجتهاد كأغلب المحدثين.

أما دراسة الحديث، فإنها تستغرق سنوات عديدة من عمر الطالب، قد تصل إلى ما بعد الأربعين، كما تتطلب الرحلة للقاء الشيوخ، خاصة ذوي السند العالي، أينما وجدوا بمدن الغرب الإسلامي أو بمدن المشرق. كما أنها تستلزم إتقان عدة علوم مثل النحو واللغة بشكل كبير يفوق ما يتطلبه دراسة الفقه. كما يتطلب التوفر على مؤهلات فكرية، مثل الفكر النقدي والضبط والتحقيق زيادة على الحفظ، أي امتلاك الأدوات الفكرية الضرورية للاجتهاد. وإذا كان طلاب الفقه يسعون إلى الثروة والجاه، فإن المحدثين على عكس من ذلك يميلون إلى الزهد والتقشف، مثل ابن حزم الظاهري بالأندلس، وابن تومرت، وابن رشيد السبتي في القرن السابع الهجري.

ونظرا للاختلافات المذكورة بين الفقه والحديث، كان هناك تنافس بين هاتين المادتين في الغرب الإسلامي. وتؤدي هيمنة إحداهما على لائحة المواد الدراسية، إلى إحداث تغيير في ترتيب المواد المدروسة. فكانت هيمنة الحديث تؤدي إلى جعل بعض المواد التي يستوجبها مثل النحو واللغة وأصول الفقه تتصدر اللائحة، مثلما حدث في القرن 6هـ في ظل الدولة الموحدية، بينما تؤدي هيمنة الفقه إلى تقلص مواد تلك اللائحة واحتلالها لصفوف دنيا، كما حدث في عصر المرابطين خلال القرن 5هـ، وفي عصر المرينيين خلال القرن 7هـ وما

---

(371) القاضي عياض، الغنية... م. س. ص 58.
(372) مثال آخر عند ابن القاضي، جذوة الاقتباس.. م. س. ص447-448، وعبد العزيز الجناتي" كان أعرف الناس بالتهذيب حسن الإلقاء لا يحسن العربية " إذ خلط بين الدجاج والجداد التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص179. وكان البعض الأخر ينون السلام عليكم.

بعده[373]، إذ كان الإقبال على دراسة الفقه كبيرا كما يظهر من اكتظاظ المجالس العلمية الخاصة بتدريسه بفاس خلال هذه المرحلة، مثل مجلس عبد الرحمان بن عفان الجزولي (741هـ) الذي كان يحضره أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة[374] . ومثل مجلس معاصره عبد المومن بن محمد الجناتي (ت 746هـ) في المدونة الذي كان يحضره نحو الأربعمائة معمم (أي عالم) من حفاظ المدونة[375]، ومجلس الحسن بن منديل المغيلي (864هـ) بالقرويين الذي كان يحضره ثلاثة آلاف رجل[376].

وقد حدث صراع فكري بين تيار أصحاب الحديث وتيار أصحاب الفقه في تاريخ الغرب الإسلامي منذ القرن 3هـ، ووجد صداه في التعليم. واستمر بعد ذلك، كما يتجلى في الصراع المذهبي بين فقهاء المرابطين المتشبثين بالفقه المالكي والتقليد والميل للجمود الفكري وبين الموحدين المدافعين عن الحديث والدعوة إلى الاجتهاد وترك التقليد. وهذا ما يفسر إقدام الموحدين على احراق كتب الفروع في عهدهم.

ب – حاجات سوق السلطان :

كانت الدولة أكبر سوق لتصريف أثمن البضائع العلمية وغيرها[377]. فبالإضافة إلى اهتمام الدولة بالعلوم الدينية التي تنفق في سوق الرعية، كانت كذلك تشجع على ترويج علوم لا توجد لدى الرعية ولا تهم بها. وقد كان المتعلمون يعرفون، في العصر الوسيط، حاجات الدولة الخاصة من العلم، ونوعية ما تطلبه من بضاعة، فـ"السلطان سوق يجلب له ما ينفق فيه"حسب تعبير ابن بسام[378]، منها بضاعة الأدب التي لا تنفق كثيرا إلا عندها، نظرا لحاجتها لها

---

(373) انظر عن ما تتطلبه دراسة الحديث من علوم مساعدة القاضي عياض، الغنية... م. س. ص69-72.
(374) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص401-402.
(375) نفسه، ص 448.
(376) نفسه، 178 .
(377) «الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم» حسب تعبير ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 506-657 .
(378) ابن بسام أبي الحسن الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان 1978 ج 1 ص4.

في إداراتها ومراسلاتها، أو مثل الشعر، الضروري لتلميع صورتها في محاولة لاكتساب شرعية معنوية غير شرعية قوة السيف التي تملكها. وكان ثمن بيع بضاعة العلم للدولة مربحا، لأن الدولة تملك المال للإنفاق بسخاء على العلماء والشعراء، وتعمل من خلال الإغراء المالي على استجلاب خيرة المتعلمين من داخل مملكتها، أو من خارجها، إلى دار ملكها كما سبق الذكر؛ وتصبح بذلك دار الملك أكبر سوق لتصريف أجود وأنفس البضائع العلمية المتوفرة[379]. ويعود أحد أسباب ضعف الحركة العلمية بالمغرب قبل القرن 5هـ إلى غياب سوق كبيرة ترعاها دولة قوية قادرة على توفير الأمن والمال لازدهار التعليم والفكر، مثلما حدث لما ازدهر العلم في دار ملك الأغالبة بالقيروان، وفي دار ملك الأمويين بقرطبة. ولم يصبح سوق العلم بالمغرب نافقا بشكل ملفت، إلا عندما توحد المغرب تحت ظل حكم المرابطين والموحدين بدار ملكهم مراكش[380]؛ وبفاس في العصر المريني بعد ذلك.

كما تعمل الدولة لاعتبارات مذهبية، على تشجيع انتشار بعض العلوم وعلى منع أخرى من التداول، إما بكيفية مباشرة أو غير مباشرة. فقد استطاع الفقهاء المسيطرون على زمام الأمور في الدولة المرابطية، أن يجعلوا الفقه مهيمنا في الدراسة. يقول صاحب المعجب: "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين- علي بن يوسف- ويحظى عنده إلا علم الفروع، أعنى فروع مذهب مالك، **فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب**، وعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وسنة رسول الله عليه وسلم" [381]. ووقف الفقهاء معززين بسلطة دولتهم موقفا معاديا لعلوم أخرى، كأصول الفقه وأصول الدين، ومنع مدرسيها بالمدن المغربية، كما فعلوا مع ابن النحوي (ت 513هـ) الذي درس هذين العلمين، فطردوه لأجل ذلك بكل من سجلماسة ومدينة فاس[382]، كما أفتى

(379) انظر عن جلب العلماء الفصل الأول من هذا العمل.
(380) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص772.
(381) المراكشي عبد الواحد، المعجب... م. س. ص243.
(382) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س. ص 98-99.

البعض منهم في نفس الفترة بعدم جواز تعليم علم الكلام للعوام[383]. ومنعت الدولة تداول كتاب الإحياء للغزالي وتدريسه، وتمت مصادرته وإحراقه بفتوى بعض الفقهاء الأندلسيين[384]. غير أن تضييق الفقهاء بواسطة سلطة الدولة المرابطية على الحياة الفكرية لم يمنع من بروز محدثين كبار مثل القاضي عياض وابن العربي والصدفي وغيرهم.

وفي القرن السادس الهجري، قاد ابن تومرت حركة فكرية وثقافية تجديدية بالغرب الإسلامي، أثرت ضمن ما أثرت عليه المجال التعليمي، إذ أعادت ترتيب الأولويات في لائحة المواد الدراسية السائدة في العهد المرابطي، وساهمت في إثرائها، وأصبحت بعض المواد تحتل مكان الصدارة بعد ما كانت ثانوية أو مهمشة في التعليم في العهد السابق وما قبله كالحديث، والمنطق، وأصول الدين، وأصول الفقه، والفلسفة، ولو لمدة محدودة لم تتعد30 سنة [385]، والتفسير والقراءات والحديث والتصوف والعلوم الأدبية كالنحو واللغة. وتراجع الفقه الذي كان يحتل المكانة الأولى في السابق ليحتل مكانة ثانوية، بل تعرضت كتب الفروع للحرق، في حين شهد القرن 6هـ نهضة حديثية كبيرة غير مسبوقة في تاريخ المغرب[386]. مع مطلع القرن 7هـ/13م ووصول المرينيين للحكم، تعرضت لائحة المواد المدروسة لتغييرين أساسيين :

أولا، العودة التدريجية لهيمنة الفقه وتراجع الحديث والعلوم التي يتطلبها، من لغة ونحو وغيرهما، إلى مراتب دنيا وثانوية كما تقدم. ومن مظاهر تصدر الفقه للمواد المتداولة بحلقات الدروس، إعادة كتابة أمهات كتب الفقه الأساسية

---

(383) رضوان مبارك، حول القضايا المذهبية والعقدية في العصر المرابطي من خلال فتاوى ابن رشد، ضمن التاريخ وأدب النوازل، دراسات مهداة للفقيد محمد، منشورات كلية الآداب الرباط 1995 ص 71.

(384) القبلي محمد، رمز "الإحياء" وقضية الحكم في المغرب الوسيط ضمن مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر 1987، ص 21-51 الونشريسي، المعيار المعرب.م. س. ج.12. ص184.

(385) انظر الفصل الأول من هذا العمل.

(386) الحسيسن عبد الهادي، مظاهر النهضة الحديثية في عصر يعقوب المنصور،صندوق إحياء التراث الإسلامي 1982، ص163-297.

التي أحرقت في العصر الموحدي، وينسب لبعض الفقهاء، أنهم أملوا بعضها كالمدونة من حفظهم ولفظهم، مثل أبي محمد عبد الله التادلي (ت623هـ)[387]، و كانت أكبر الحلقات الدراسية بفاس، هي تلك المخصصة لتدريس الفقه، إذ كان يحضرها مابين بين بضع مئات وثلاثة آلاف من الطلبة كما سبق الذكر[388].

ثانيا، تقلص أهمية العلوم العقلية بعد القرن 6هـ، إذ تم إبعاد كل ما يصدم الاعتقادات الدينية منها، مثل الفلسفة، وذلك منذ أن أمر يعقوب المنصور بإحراق كتبها واضطهاد المتعاطين لها، فكسدت سوقها بالمغرب خلال بقية العصر الوسيط[389]. ولم تعد العلوم العقلية والطبيعية تدرس بشكل موسع، بل اقتصروا على بعض الفروع منها كالتي تتطلبها العلوم الدينية، مثل الجبر الذي يدرس منه القدر اللازم لحل مشكلات الفرائض والمعاملات[390]، واحتفظ بعلم الأزياج من علوم المساحة نظرا لأهميته في تحديد القبلة وأوقات الصلوات[391]، وبات علم "التعاليم" مهجورا لدى المتأخرين، واكتفوا بأحد فروعه وهو علم الارتماطيقي (الرياضيات) والحساب[392]. ويعود أحد أسباب تقلص مكانة هذه العلوم البحتة في لائحة المواد الدراسية إلى تغيير شكل الإنفاق على التعليم الذي بات، بعد القرن 6هـ، يعتمد على الأحباس في المدارس والمساجد، فخضع المتعلمون لشروط المحبسين الذين كانوا لا يحبسون إلا على تدريس العلوم الدينية كما تقدم.

وعلى العموم، كان العامل السياسي حاسما في انتشار العديد من المذاهب الفكرية الدينية، وقد سبق لابن حزم أن تنبه إلى ذلك، حين لاحظ أن "مذهبين انتشرا بالرئاسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة. ومذهب مالك عندنا بالأندلس، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم" [393].

---

(387) كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني -بيروت، ط2 سنة 1961 ص 123.
(388) راجع ص. الهوامش: 373-374-375.
(389) المقري، نفح الطيب م. س ج 3 ص33، ابن خلدون، المقدمة... م. س. 893، الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ص68.
(390) ابن خلدون، المقدمة... م. س. 899.
(391) نفسه، ص905.
(392) كما فعل ابن البناء المراكشي (ت 721هـ)، نفسه، ص 896.
(393) الناصري، الاستقصا... م. س. ج1. 139، أحمد بابا، نيل... م. س. ص.

وبالإضافة إلى الاختلافات المذكورة، تلاحظ أيضا اختلافات إقليمية بين إفريقية والمغرب والأندلس، واختلافات جهوية ومحلية داخل المغرب.

4- الاختلافات الإقليمية

كان المكان الأساسي الذي تدرس به أكبر عدد من لائحة العلوم هو دار ملك الدول المتعاقبة على حكم المغرب التي كانت تشكل أكبر سوق تروج فيها العلوم السائدة في ظل الدولة، إذ تصبح دار العلم، مثل مدينة مراكش في عصر المرابطين والموحدين، ولذا وصفت ببغداد المغرب[394]. ثم فاس التي كانت مركزا علميا، منذ عصر الأدارسة والكيانات السياسية التي جاءت بعدهم، وحافظت على ذلك، خلال القرنين 5 و6هـ، كما لاحظ المراكشي[395]، ولم تتحول إلى عاصمة علمية مرة أخرى، إلا في ظل الحكم المريني، إذ جلب لها العلماء وزودت بمؤسسات تعليمية كالمدارس التي يفوق عددها 11 مدرسة، أي أنه كانت تستحوذ وحدها على أكثر من ثلاث أضعاف المدارس الموجودة بكل المدن المغربية الأخرى، زيادة على ما حبس من الخزانات الكثيرة ومن كراسي التدريس، على أكثر جوامعها. وهذا ما يفسر تفوق علماء فاس على نظرائهم بالمدن المغربية الأخرى بدءا من العصر المريني، كما لاحظ المؤرخون القدماء[396].

وبالرغم من تفوق فاس خلال العهد المريني والوطاسي في عدد العلوم التي تدرس بها وفي جودة التدريس، إلا أن أغلب العلوم التي تدرس بالعاصمة العلمية كانت تدرس أيضا بعدد من المراكز العلمية المنتشرة بالمغرب، مع اختلاف في الأهمية التي توليها بعض الأقاليم لتدريس بعض المواد دون غيرها: فمدينة مراكش احتفظت، خلال القرنين 7 و8 الهجريين، بما كان يدرس فيها من العلوم العقلية خلال العصر الموحدي. وكان من نتائج ذلك ظهور ابن البناء المراكشي (ت721هـ) الذي ألف عدة مؤلفات في هذه العلوم[397]. كما أن علي بن محمد بن

(394) انظر تعليم الحكام في الفصل الثاني من هذا العمل.
(395) المراكشي عبد الواحد، المعجب... م. س ص 504-505.
(396) ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. ص 32، 36-37، ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 48، الجزنائي، جني زهرة الآس... م. س. ص20.
(397) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 149-150.

ترومیت المستبد بجبل هسکورة کان معتنیا بهذه العلوم، في بداية القرن 8هـ، و قصده كثير من علمائها كمحمد الآبلي، سنة 721هـ [398]؛ بل إن مؤلفات ابن تومرت ظلت تدرس حتى القرن 8هـ ببعض المناطق كالأندلس[399]، واستمر تدريسها لدى جزء من المصامدة إلى بداية القرن 10هـ في تينميل [400].

اشتهرت مدينة سبتة بوصفها مركزا للدراسات النحوية واللغوية، ويشبهها ابن الخطيب ب"بصرة اللسان"[401]، ويعود ذلك إلى قربها من الأندلس والتأثر بتقاليدها التعليمية التي تهتم باللغة والنحو منذ الطفولة في الكتاتيب، وإلى هجرة عدد كبير من الأندلسيين إليها، منذ القرن 7هـ، إلى سقوطها في يد الاحتلال البرتغالي سنة 818هـ.

كما اشتهرت مدينة تازة بالدراسات الأدبية منذ منتصف القرن 7هـ وطيلة القرن 8هـ، خاصة البلاغة إذ كانت القاعدة الأولى للمرينيين قبل احتلال فاس، فجلبوا لها الأدباء واللغويين لتدريس الأمراء.

أما مدينة سلا، فقد كان لعلمائها اختصاص، خلال القرن 8هـ، ببعض العلوم العقلية التي لا يتعاطاها غيرهم كالطب. فكان أعيان فاس يرحلون إليها لأخذه عن أبي غياث السلاوي وأبي الفضل العجلاني، وأبي عبد الله بن المجراد السلاوي الذي كان من أهل المشاركة في الكثير من العلوم منها الطب والتشريح وسواهما[402]. واشتهر علماء جزولة خلال القرنين 8 و9 الهجريين بتعاطي علم الفرائض والاهتمام بها، وبرز منهم عدد من العلماء يتقنون هذا الفن[403]. غير أن هذه الاختلافات الإقليمية لم تكن إلا مظهرا لبعض الخصوصيات المحلية في التعليم.

---

(398) المنوني، ورقات... م. س. ص 206.
(399) مجهول، الحلل الموشية... م. س. ص110.
(400) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ج 1 ص111.
(401) ابن الخطيب، معيار الاختيار... م. س. ص72.
(402) الدكالي محمد بن علي، كناشة منشورة في مجلة الإيمان عدد 136 سنة 1984 ص 34-35.
(403) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص 140-141، المختار السوسي، سوس العالمة... م. س. ص 50.

II- المناهج الدراسية

من الصعب الإحاطة بكل المناهج التعليمية بالمغرب، خلال العصر الوسيط، نظرا لتنوعها، وسنقتصر على ذكر ثلاثة عناصر، منها: الحفظ، وطرق التدريس، ولغة التدريس.

1- *هيمنة ظاهرة الحفظ*

كانت الذاكرة تلعب الدور الأساسي في تحصيل العلم لأسباب تقنية عديدة (غلاء الورق والرق والتكاليف الباهظة للنسخ اليدوي للكتب...)، لذا كانت الأدبيات التربوية تلح على الاهتمام بالحفظ. واشتهرت عدة مقولات في هذا الشأن، منها: "العلم ما حوته الصدور لا السطور"، ومنها في القرن 9هـ "من لم يحفظ نصا فهو لص"[404]، و"من حفظ حجة على من لم يحفظ"، وغيرها كثير. وكان المتعلم منذ نعومة أظفاره يبدأ بحفظ القرآن في الكتاب عن ظهر قلب، كما كان ملزما عندما يشرع في طلب العلم باستظهار أمهات الكتب أو المختصرات من كل فنون العلوم التي يقبل عليها، قبل محاولة فهمها. ويستظهر منظومات شعرية تتجاوز أبياتها الألوف، أو يستظهر كتبا تتكون من عدة مجلدات. وكان الطالب المبتدئ يختزن كميات هائلة من المعلومات، ما بين فترة الطفولة والمراهقة، وتذكر المصادر أمثلة كثيرة لطلاب اشتهروا بالحفظ في مختلف الأصقاع الإسلامية مثل محمد بن زرقون (ت 586هـ) الذي"كان شديد القوة الحافظة، فاستظهر في صغره أوان طلبه جملة وافرة من دواوين العلم"[405] تزيد عن الأربعين كتابا. ويقول المراكشي: "إن من يحفظ كتاب سبويه في النحو لا يعد مجتهدا"[406]، بل إن أبا محمد عبد المجيد بن عبدون كانت "أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره، وجودة قريحته"[407]. ولم يخرج المغاربة عن هذه القاعدة خلال العصر الوسيط، بل اشتهروا بقوة الحافظة أكثر

(404) ابن ميمون، الرسالة المجازة... م. س. ص 276، حجي، الحياة الفكرية ج 1 ص84.
(405) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص371.
(406) المراكشي عبد الواحد، المعجب... م. س ص431.
(407) نفسه ص88.

من غيرهم. وذكر ابن خلدون أن نتائج اهتمام الطلاب المغاربة بالحفظ أنك"تجد طلاب العلم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس التعليمية، سكوتا لا ينطقون، ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة. وإلا فحفظهم أبلغ من سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك"(408). وكانت قوة حفظهم تثير إعجاب الآخرين وتقديرهم، مثلما حدث لأحمد بن محمد التجيبي المشهور بابن القراف السبتي (ت 725هـ) الذي"استظهر بالقاهرة المعزية موطأ الإمام مالك حفظا من صدره عن ظهر قلب، فاحتفل له شيوخ المالكية، وضربوا الطبول على رأسه إشادة وتنويها"(409)؛ واستظهر أبو القاسم الحسين بن علي المغربي "القرآن وعدة من الكتب المجردة في اللغة، ونحو 15 ألف بيت من مختار الشعر.وبلغ من الحفظ ما يقصر عنه نظراؤه"(410).

أمام هذا الاعتماد الكبير على الذاكرة، كان بعض المتعلمين الذين لم تكن لهم ذاكرة قوية يلتجئون إلى الأطباء لاستشارتهم وطلب دواء يقويها، فكانوا يصفون لهم عدة وصفات أشهرها شراب مادة نباتية تعرف بالبلاذر أو بحب الفهم، والتي ساد الاعتقاد في الأقطار الإسلامية بأنها علاج فعال لتقوية الذاكرة، ويتم تناولها على الطريقة التي تناولها بها أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي (ت 750هـ)، وقيل إنه بفضلها استظهر الكثير من كتب اللغة(411). وكان هذا الدواء مستعملا بالمغرب منذ مطلع القرن 2هـ، وأقدم من من استعمله، حسب المصادر العربية، هو يونس صاحب المذهب البرغواطي بتامسنا الذي "شرب دواء للحفظ فحفظ كل ما سمع" (412). وكان عبد الله بن إبراهيم بن حمام

---

(408) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 773-774.

(409) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج.. م. س. ص68، انظر بعض الأمثلة الأخرى لمثل هؤلاء الحفاظ رغم ما يطبعها من مبالغة، نفسه، ص203، ابن القاضي، جذوة الاقتباس.. م. س. ص 345-346- 472.

(410) ابن بسام، الذخيرة... م. س. ص474.

(411) " فقد أخذ البلاذر ونقعه في الماء مع القمح حتى سرى فعله إليه، وأطعم ذلك الحب دجاجة، ثم إنه ذبحها وطبخ لحمها، ووقف في صهريج ماء مملوء عريانا، وأكل اللحم وشرب المرق على تلك الحال، قال، إن جسده ليشتعل من شدة حرارته، فبقي على ذلك مدة، ثم اعتدل مزاجه وتنبل عقله واشتد حفظه" مجهول، بلغة الأمنية... م. س. ص176.

(412) ابن عذاري، البيان المغرب... م. س. ج1 ص235.

السبتي قد شرب البلاذر فأعقبه خفة وتهورا، وكان أحفظ أهل وقته لمذهب مالك، وكان إذا ناظر في المدونة ألقاها من صدره.وقد تعجب أهل دانية من حفظه"(413). وكانت هذه المادة السامة تؤثر على مستعمليها، وذهب الكثيرون منهم ضحية استعمالها، لذلك كان بعض الطلاب يفضلون اللجوء إلى أدوية أخرى أقل خطورة، مثل عبد الملك السلمي (ت 238هـ) الذي "كانت له قارورة قد أذاب فيها اللبان والعسل يشرب منها كل غداة على الريق للحفظ" (414) وكان البعض الآخر منهم يلتجئ إلى الاستعمال الدؤوب للذاكرة لتجنب النسيان. وقد سئل أحدهم عن البلاذر فقال"إن أردت البلاذر فعليك بالدرس والتناظر، وإن أردت البلاذر الكبير فعليك بالدرس الكثير، ومد بها صوته" (415). وترجع شهرة أحمد بن عات النفزي (ت 609هـ) بالحفظ، إلى استظهار عدة كتب وتعهدها بالقراءة اليومية إذ "كان يقرأ من كل كتاب واحد (الموطأ والبخاري)، نحو عشرة أوراق عرضا بلفظه كل يوم لا يتوقف في شيء من ذلك" (416).

كما كان الأطباء ينصحون المتعلمين بالتقليل من الطعام، وخاصة الأطعمة التي يعتقد أنها تسبب البلادة كالتفاح الحامض، والباقلا وكثرة الألبان والأسماك، وسائر الأمور التي كان يعتقد أنها مورثة للنسيان (417). وقد تعجب الأندلسيون من نبوغ القاضي عياض عندما قدم قرطبة، ومنهم أبو الوليد بن رشد الذي"رأى نبله وفضل ذكائه، قال:عجبا لرجل ينشأ في البلاد البحرية على أكل السمك، من أين يكون له هذا النبل والذكاء! وعندما بلغ هذا الكلام القاضي عياض، قال: والله ما أكلت السمك منذ عقلت" (418). وقد أدى الحرص على الحفظ وتسهيله على المتعلمين إلى ظهور نوعين من التآليف التعليمية في شكل نَظْم أو نثر مختصر (المختصرات).

---

(413) القاضي عياض، ترتيب المدارك.م. س. ج8 ص 169-170، وممن أستعمله أيضا عبد الله بن إبراهيم الكتامي (ت 470هـ)، ابن الزبير، الصلة... م. س. ص529.
(414) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س ص 156.
(415) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق الهراس عبد السلام، دار الفكر- بيروت 1995 ج2 ص 244.
(416) نفسه، ص 60.
(417) ابن جماعة، تذكرة السامع... م. س. ص 74، 76-77.
(418) المقري، أزهار الرياض... م. س. ج 5 ص 79.

ظاهرة النّظم التعليمي والمختصرات :

أدت ظاهرة الحفظ إلى ظهور وانتشار نوع من الآداب التعليمية، سماها الأستاذ عبد الله كنون بالنّظم التعليمي، وهي آداب في شكل منظومات من أوزان مختلفة موجهة للمتعلمين، يقصد مؤلفوها تسهيل الحفظ ونقش المادة العلمية الأساسية في ذاكرة المتعلمين. وتركز في هذا النظم القضايا العلمية والقواعد التي تتضمنها مادة دراسية معينة كالنحو مثلا، وتتميز باختصارها الشديد لأنها تكتفي بالتلميح لتك القضايا والقواعد، ويكتنفها الغموض والتعقيد أحيانا مما يجعلها صعبة على فهم المبتدئين، وتتطلب أحيانا شروحا طويلة مما يقتضي استحضار جل ما كتب عن المادة نفسها. وقد ظهر هذا النوع في العصر العباسي، ويرجح عبد الله كنون أن أقدم من تعاطى لهذا الفن هو إبّان اللاّحقي الأديب، ومؤدب أبناء البرامكة الذي نظم كتاب كليلة ودمنة في رجز سهل الحفظ، كما نظم لهم رجزا في أحكام الصلاة والزكاة والصيام (419). وقد استطاع هذا اللون الأدبي أن يغزو تدريجيا كل العلوم المدروسة ابتداء بالقراءات والنحو وانتهاء بالطب والحساب، بل وامتد إلى بعض الصناعات كالخط والتجليد وبعض الألعاب كالرماية والشطرنج وغيرها. وقد اشتهر من هذا النظم الألفيات كألفية ابن مالك في الفقه، وألفية السيوطي في النحو والصرف وغيرهما (420). وكانت هذه المنظومات موجهة للمبتدئين فقط. وظهرت إلى جانب النظم التعليمي، خلال القرن السابع الهجري، كتب المختصرات الموجهة لطلاب العلم.

2- *طرق التدريس*

تنوعت طرق التدريس من أستاذ لآخر، حسب تجاربهم الشخصية وتكوينهم العلمي ومستوى الدراسي لطلابهم، وحسب المواد الدراسية التي يلقنونها. ورغم هذا التنوع كان جل المدرسين يراعون في دروسهم بعض المبادئ التربوية التي أثبتت فعاليتها والمعروفة لدى مؤلفي الأدبيات التربوية كالتي ذكرها ابن خلدون

---

(419) عبد الله كنون، نظم الفقهاء. دار الكتاب اللبناني، بيروت. د، ت. ص 232 وما بعدها.
(420) نفسه، ص235.

في المقدمة، مثل التدرج في التعليم من البسيط إلى المعقد، وتبسيط المعلومات لتقريبها لأفهام المتعلمين. كما كانوا يعملون على تحبيب الدراسة للطلاب بطرق مختلفة، ويحاولون أن لا تكون دروسهم مرهقة ومملة لطلابهم، فيعمدون إلى تطريزها -حسب تعبير المصادر- بالاستطرادات والإنشادات المتنوعة والحكايات التي يعتبرونها جندا من جنود الله[421]، فتصبح بعض حلقات الدروس "نزهة للسامعين"[422]، كما كانوا يعملون على إذكاء المنافسة بين المتعلمين وإسداء النصح لهم.

أما الطريقة الأساسية للتدريس، فقد كانت حصة التدريس تنطلق من كتاب معين في المادة المدروسة، ويكلف أنجب الطلاب في الحلقة بتلاوة النص، وهو المعروف بقارئ المجلس[423]. ولهذا أصبح مدلول القراءة مرادفا لمدلول الدراسة بالمغرب الوسيط. ويعلل ابن خلدون اعتماد هذه الطريقة لدى العجم بالضعف اللغوي لديهم، "ولهذا نجد علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهرا يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني» [424]. وتختلف طريقة تعامل المدرسين بعد ذلك مع النص المقروء، حسب طبيعة المادة المدرسة. ويمكن حصر طرق تدريس الفقه في خمس طرق أساسية:

أ) فمنهم من يكتفي بشرح ما يكتنف النص من غموض وإبهام دون زيادة، ويرى أن الزيادة على ذلك ضرر بالمتعلم، وهي طريقة محمد ابن عرفة (ت803هـ) [425]، ويترك للمتعلم حرية استنتاج ما يريد استنتاجه.

ب) الطريقة العراقية التي يغلب عليها المنهج العقلي تتخذ المتن أساسا للمناقشة من خلال تصنيف معلوماته والبحث في الأدلة واستعمال القياس، دون الاهتمام بتصحيح الروايات أو الوقوف عند معاني الألفاظ على طريقة القيراونيين في تدريس المدونة.

(421) المقري، أزهار الرياض... م. س ج3 ص 29.
(422) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص319.
(423) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 1 ص 445-446.
(424) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 1054.
(425) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص275.

ج) الطريقة القيروانية التي يغلب عليها منهج النقل في التعامل مع النص، إذ تهتم بإعراب ألفاظ النص والوقوف عند دلالاتها اللغوية، ثم نقد الروايات والتعرض لرجال السند وأخبارهم.

د) الطريقة المغربية والمعروفة لدى القاضي عياض (ت 544هـ)، وتتميز بالمزج بين الطريقتين[426] القيروانية والعراقية.

هـ) وظهرت طريقة أخرى بفاس، في القرن السابع الهجري، تتمثل في اتخاذ المدونة أساسا للدرس، وإغنائه بنقل ما قيل في الموضوع المدروس من المؤلفات الفقهية الأخرى[427]. وممن كان يطبق هذه الطريقة عبد العزيز العبدوسي(ت837هـ) الذي درس بها في تونس، سنة 817هـ. "فمن طريقه إذا أقرأ المدونة فاستمع لما يوحي يبتدئ على المسألة من كبار أصحاب مالك ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل إلى علماء الأقطار من المصريين والإفريقيين والمغاربة والأندلسيين وأئمة الإسلام وأهل الوثائق والأحكام حتى يكل السامع وينقطع عن تحصيله المطالع، وكذا إذا انتقل إلى الثانية وما بعدها". وكان يطبق نفس الطريقة في تدريس النحو من ألفية بن مالك [428]. وقد ظلت هذه الطريقة بفاس طيلة القرن 9هـ. وممن اشتهر بها الشيخ ابن غازي محمد القوري (ت 782هـ). يقول أحد تلاميذه عن مجلسه "بأنه كثير الفوائد مليح الحكايات. لازمته في المدونة أعواما، ينقل عنها كلام المتقدمين والمتأخرين من الفقهاء والموثقين، ويطرز ذلك بذكر موالدهم ووفياتهم وحكاياتهم وضبط أسمائهم والبحث في الأحاديث المستدل بها في نصرة آرائهم فمجلسه نزهة للسامعين"[429]. وتظهر هذه الطريقة بوضوح في الكتب المسماة بالطررأو التقاييد على المدونة، و التي قيدها الطلبة في حلقات أشهر الأساتذة كأبي الحسن الصغير (ت 719هـ)، وأبي زيد عبد الرحمان الجزولي (ت 741هـ) وغيرهما[430]، وكانت هذه الطريقة

(426) المقري، أزهار الرياض... م. س ج 3 ص 21-22، ابن خلدون، المقدمة... م. س، 1021-1022.
(427) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص 150.
(428) نفسه، ص 180-181.
(429) نفسه، 319.
(430) المقري، أزهار الرياض... م. س ج 3 ص 23-24.

معروفة لدى الأندلسيين، في القرن 6هـ، وانتقدها ابن العربي بشدة [431] وهي طريقة مناقضة لفكرة المختصرات، وهذا ما يفسر معارضة بعض المغاربة، في القرن 8هـ، للمؤلفات المختصرة في عدة علوم كمختصر خليل في الفقه مثلا، مثل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان الجدامي الفاسي (ت778هـ)، وعبد الرحمان بن محمد السجلماسي (ت 789هـ)[432]، ولم يدخل مختصر خليل في الفقه إلى فاس إلا سنة 805هـ على يد محمد بن الفتوح التلمساني (ت 818هـ)[433] غير أن طريقة استعراض كل ما ذكر في المسائل الفقهية من أقوال الفقهاء المتقدمين والمتأخرين وفي مختلف الأقطار الإسلامية يجعل استيعابها على الطلاب صعبا ويتطلب وقتا طويلا، وهذا ما يفسر جزئيا طول المدة الدراسية التي يقضيها الطلاب، في القرن 8هـ، بسكنى المدارس بفاس التي كانت تصل في المعدل إلى 16سنة، وهي مدة أطول بكثير من المدة التي يقضيها الطلاب بمدارس تونس التي كانت لا تتعدى خمس سنوات [434] ، وان كانت قد تقلصت إلى مثل هذه المدة في بداية القرن 10هـ حسب شهادة الوزان [435] .

بدأ النظام التعليمي في التحجر تحت ضغط التقاليد المتراكمة، مثل تقليد إلزام الطالب بقراءة ما كتبه المتقدمون والمتأخرون في المادة العلمية الواحدة والتي تزايدت أعدادها مع مرور الوقت، ومن هنا أضرت كثرة التآليف بالتعليم [436] .

غير أن أهم ما كان يطبع المنهج التعليمي هو الاقتصار على نقل المعارف المجردة التي لا علاقة لها بالواقع اليومي المعاشي إلا في الجانب الديني، والاعتماد على التفكير النظري المجرد من قياس وتعميم وغير ذلك من آليات

---

(431) الناصري، الاستقصا ج 1ص 141، محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في الفقه الإسلامي ج 4 ص 176-178.

(432) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص 50، المنوني، ورقات... م. س ص 217-218، حجي، الحركة الفكرية... م. س. ج 1ص 82.

(433) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س ص 292 المنوني، ورقات... م. س ص 199-200، ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 317.

(434) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 774.

(435) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ج1 ص177.

(436) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 1021-1023 .

المنطق الصوري، خاصة في العلوم الشرعية. ولم يكن المتعلمون يعتمدون على تحليل الوقائع الملموسة ودراسة كل حالة على حدة، وانعكس ذلك على تصرفاتهم وسلوكهم، فكان البعض منهم لا يحسن التصرف في أمور المعشية البسيطة خاصة التي تتطلب العمل اليدوي. ونجد أمثال عيسى بن سعادة الفاسي (355هـ) الذي" كان في الحفظ عجبا أبله في أمور دنياه" [437] وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الظاهرة حين لاحظ أن "العلماء من بين البشر أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها" [438] ، لأنهم كانوا يطبقون طريقة التفكير المجرد من قياس وتعميم التي ألفوها على الوقائع السياسية وأمورهم الدنيوية فيقعون في الغلط، وقارن طريقة تفكيرهم بطريقة غير المتعلمين من العامة في مواجهة المشاكل اليومية، فلاحظ أن بعض العامة يحسن معاشهم على عكس بعض المتعلمين الذين لا يدرسون كل حالة من الواقع على حدة.

والظاهرة الثانية، أنه يربي بعض المتعلمين على اتخاذ موقف أخلاقي من السلطة السياسية القائمة ورفض خدمة رجالها بالعلم؛ ويعتبر البعض العلماء المتعاملين معها من"أشر العلماء"، والسبب في ذلك ميل أغلبهم إلى التمسك بمقتضيات الشرع التي لا تتفق دائما مع متطلبات السياسة المتقلبة، وخاصة فيما يخص بعض الأمور، مثل جباية المال من طرف الحكام وما يطبعها- في الغالب- من ظلم وتعسف وغصب لا يتفق دائما مع مقتضيات الشرع. فكان المتعلمون ينتقدون بشدة سياسة الحكام في هذا المجال، كما فعل عبد العزيز القوري مع أبي الحسن المريني حين أمره بالخروج مع عامل الزكاة، فأجابه الفقيه: " أما تستحي من الله تعالى، تأخذ لقبا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم؟ فضربه السلطان بالسكين التي يحبسها على عادته في يده وهي في غمدها"[439] وبسبب هذا الاختلاف حول حلية أموال الحكام، نجد

---

(437) القاضي عياض، ترتيب المدارك... م. س. ج6 ص277، انظر أمثلة أخرى عند ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص279، وابن الخطيب، الإحاطة... م. س. ج 1 ص196.
(438) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 1045-1047.
(439) ابن قنفد، أنس الفقير... م. س. ص24.

البعض من المتعلمين يجعلون من سلوكهم اليومي، مقاطعة الحكام والتعامل معهم وتجنب أكل طعامهم، حسب ما لاحظه الحسن الوزان، بفاس أوائل القرن 10هـ: "إنك لا تجد من بين أهل العلم والاستقامة رجلا واحدا يقبل أن يصاهر الملوك أو يواكلهم، أو بالأحرى أن يأخذ منهم عطاء وهدية"(440) ، وقد سبق أن لاحظنا أن أحد أسباب معارضة الفقهاء لبناء المدارس كان هو شبهة المال المنفق عليها، واستغراق ذمم الحكام الذين بنوها. هذا الموقف الأخلاقي هو ما يفسر عزوف الكثير من المتعلمين عن تولي الخطط الدينية والإدارية، نذكر منها عادة رفض البعض منهم لتولي القضاء بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

3- *عادة التدريس بالأمازيغية أو بالحضرية*

لا تذكر المصادر ما يشفي الغليل من التفاصيل الضرورية فيما يخص لغة التدريس بالمغرب الأقصى، خلال العصر الوسيط، باستثناء بعض الإشارات المتفرقة التي يمكن أن يستنتج منها أن اللغة العربية الفصحى لم تكن اللغة المستعملة في حلقات الدروس، رغم أنها أصبحت لغة الدين والإدارة والعلم بعد الفتوحات الإسلامية، بل كانت اللغة المستعملة في التدريس هي اللغات الشفوية المتداولة في التخاطب اليومي كالأمازيغية والحضرية (اللهجة العامية) في بعض المدن التي تعربت شمال المغرب. ونعلم مثلا، أنه في المجال المصمودي الذي كان يشمل المغرب الحالي، قبل تعرب بعض أجزاءه الشمالية الواقعة شمال نهر أم الربيع، استعملت اللهجة المصمودية التي كانت تسمى باللسان الغربي في التدريس، بل قاموا في أول الأمر بترجمة القرآن مرتين، مرة في القرن 2هـ، على يد البرغواطيين، ومرة ثانية على يد حاميم الغماري، في سنوات 315-313هـ. وبعد ثلاثة قرون من ذلك، قام ابن تومرت بالتدريس باللسان الغربي في رباط هرغة، أوائل القرن 6هـ، ثم في تينمل بجبل درن. ومما يؤكد التدريس باللسان الغربي ما لاحظه أحد الطلبة الأندلسيين بسجلماسة، في القرن 6هـ، من أن فقيها مصموديا هو سالم بن سلامة السوسي (ت586هـ) "كان قديرا على أداء مسائل المدونة

(440) الوزان، وصف إفريقيا... م. س. ج، ص 223.

باللسان البربري[441]، مما يعني أن التدريس بهذا اللسان كان معروفا بالواحات الصحراوية كذلك. ولم يكن المصامدة متفردين باستعمال لهجتهم الأمازيغية في التدريس، دون بقية المجموعات القبلية الأمازيغية بالشمال الإفريقي؛ فقد استعملها كذلك أتباع المذهب الخارجي، إذ نعلم مثلا، أن أقدم كتاب ألف بالأمازيغية في الدين، هو كتاب مهدي النفوسي، أحد مشايخ نفوسة، في بداية القرن 3هـ، للرد على نفاث بن نصر الذي طعن في سلوك الإمام أفلح بن عبد الوهاب. ومن أسباب تأليفه بالأمازيغية "إنما وضعها واضعها باللسان البربري ليتناقلها البربر، فكالهم بصاعهم ولم يطفف ولم يبخس ولم يعد من الألفاظ ما يفهمونه، ولا أغرب ولا أعرب بحيث يتوهمونه"[442] كما أن الشيخ أبا مگدول الزنزفي، في النصف الأول من القرن الخامس، كان "أكثر ما يروى عنه باللسان البربري"[443] .

ومن الدلائل الإضافية على التدريس باللسان الغربي، ما وصلتنا من المصطلحات التعليمية التي استعملها المصامدة، مثل مصطلح تينمل عوض مصطلح المدرسة العربي، والذي سمي به مكان انطلاق الدعوة الموحدية، واستعملوا أنمال عوض المدرس والذي أطلق على زاوية بتازة هي زاوية أنمال [444]، ومصطلح وكاگ الذي يطلق على الطالب الملم بالقرآن ومبادئ الدين، وهو اللقب الذي حمله وكاگ بن زلو اللمطي شيخ عبد الله بن ياسن فقيه المرابطين[445].

ويلاحظ أن قبائل المصامدة غير المعربة، ظلت محافظة على عادة التدريس بلهجتها إلى ما بعد العصر الوسيط، كما يظهر من حالة عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي الذي كان يدرس مهمات الدين بالعربية والعجمية.

---

(441) ابن الآبار، كتاب التكملة لكتاب الصلة... م. س. ج 4 ص124.

(442) الدرجيني أبو العباس احمد، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم الطلا، البليدة 1974 ج 2 ص 314.

(443) نفسه، ص420.

(444) COLIN (G.S), La zawiya mérinide d'Ancmli à Taza, in *Héspéris*, 1953, p. 530-528.

(445) التادلي، التشوف... م. س. ص 89 هامش 24.

كما كانت بعض الكتب الدراسية تؤلف أو تترجم إلى الأمازيغية وتدرس بها، مثل كتب الفقه، كرسالة أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل، وشرح البردة وغيرها [446]. وما زال التدريس باللهجة المصمودية مستمرا إلى يومنا هذا بالمدارس العتيقة بسوس [447] وفي شرق المغرب.

والسبب في تشبث المجموعة المصمودية أكثر من غيرها بالمغرب الأقصى باستخدام لغتها في التعليم الديني كما عند قبائل برغواطة في القرن 2هـ، أو حميم المتنبئ بغمارة، في بداية القرن 4هـ، والمهدي بن تومرت، أوائل القرن6هـ، أن الفاتحين المسلمين لم يستقروا في هذه النواحي بأعداد مهمة. وثانيا، لأن سكانها أسلموا، اعتمادا على ذاتهم وبواسطة الرباطات، مما استغرق وقتا طويلا، فلم يتعمق إسلام أغلبهم مقارنة بباقي المناطق الأخرى، إلا في فترة متأخرة، وبالضبط في عصر الدولة الموحدية. وحين انتشر الإسلام بينهم، انتشر في لونه الصوفي؛ والمتصوفة كما نعلم، يعلمون باللهجات المحلية على عكس الفقهاء الذين يتشبثون باللغة العربية، ولا يقبلون غالبا أن يخلطوا فصاحتهم برطانة البربر[448]، نظرا لغطرسة أغلبهم وتعاليهم عن الرعية.

أما العامية المغربية، فتتميز بغلبة المفردات الأمازيغية واللاثينية على معجم ألفاظها، كالعامية الأندلسية، زيادة على اختلاف نطق الحروف وإيقاع الجملة في هذه العاميات عن نظيره في اللغة العربية الفصيحة، لدرجة أن المشرقي كان يجد صعوبة في فهم العامية المغربية التي يقول عنها المقدسي، في القرن 4هـ: "لغتهم عربية غير أنها منغلقة، مخالفة لما ذكرنا في الأقاليم"[449] رغم أننا لم نعثر، في المصادر التاريخية، على ما يفيد استعمال العامية المغربية لشرح الدروس، غير أنه يمكن القول، إنه ربما حدث بالمناطق التي تعربت

(446) المنوني، العلوم والآداب... م. س. ص156.
(447) جهادي حسين البعمراني، "التدريس بالأمازيغية في المدارس العتيقة بسوس"، ضمن تعليم الأمازيغية، اشكالات وتجارب، الجامعة الصيفية بأكادير 1999، ص 24-33.
(448) انظر اسكان الحسين، الدولة والمجتمع... م. س. ص47.
(449) المقدسي شمس الدين، أبي عبدالله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1909، ص333.

بالمغرب الأقصى، ما حدث في الأندلس في هذا الشأن، حيث ودرسوا بالحضرية الأندلسية. و يبدو أن المغاربة المعربين اختاروا كالأندلسيين الحفاظ على اللغة العربية الفصيحة في الأدب والعلم والمراسلات، واستخدام اللهجة العامية التي يفهمونها كلغة للتدريس ولشرح الدروس قصد تقريب معانيها لطلابهم، إلى درجة أن النحويين منهم والحريصين على سلامة اللغة العربية الفصيحة التي كانوا يدرسونها، ومنهم العالم والنحوي الشهير الشلوبيني في العصر الموحدي الذي كان يدرس بالعامية الأندلسية، ولو أن واحدا من العرب سمع كلامه لسخر منه ولضحك من شدة التحريف واللحن في كلامه، غير أن ما كان يهمه هو تقريب المعارف التي ينقلها إلى طلابه باللغة التي يفهمونها، ولأن الأندلسيين كانوا يستثقلون من يدرس ويتكلم بالعربية الفصحى ويستبردونه [450] وتذكر المصادر بعض من كان يشكل استثناء لهذه القاعدة العامة، مثل إسماعيل ابن واڪماتن الرڪراڪي (ت595هـ) الذي كان "لا يتكلم إلا بالكلام العربي الفصيح"[451] ببادية رڪراڪة التي لم تتعرب بعد، ومثل الكاتب أبي عبد الله محمد بن عياش كان " قاصدا الإعراب في كلامه، لا يخاطب أحدا من الناس على تفارق أحوالهم إلا بكلام معرب. وربما استعمل في مخاطبة خدمته وأمته من حوشي الألفاظ، ما لا يكاد يستعمله ويفهمه إلا حفاظ اللغة من أهل العلم، عادة ألفها واستمرت حاله عليها"[452]، أو مثل أبي عبد الله محمد حفيد القاضي عياض (ت565-584هـ) الذي كان"يعرب كلامه أبدا ويزنه"[453].

---

(450) المقري، نفح الطيب... م. س. ج 1 ص 220-221.
(451) ابن الزيات، التشوف.م. س. ص 350.
(452) المنوني، العلوم والآداب... م. س. ص 152-153، نقلا عن الإحاطة لابن الخطيب.
(453) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س. ص289.

الفصل الرابع
المتعلمون والمعلمون

انتشر التعليم في ظل الحضارة الإسلامية، بشكل كبير يفوق ما عرفته الحضارات الأخرى قبلها، وينطبق ذلك على المغرب، خلال العصر الوسيط، وتؤكده أحداث ووقائع تاريخية، منها أن بوابي المدن كانوا متعلمين، كما يظهر من وصية بواب مكناسة لابن غازي، في القرن 10هـ، عند ذهاب هذا الأخير للدراسة بفاس: "يا محمد عليك بالقراءة فمن بركتها بلغت هذا المنصب وهذه الخطة"[454]ويقرر المختار السوسي" أنه قلما تجد قرية، في غالب نواحي سوس، إلا وكان ربع سكانها أو ما يقرب خمسهم من حفظة القرآن، أما التي فيها الخمس، فمن الندور"[455]، وهي نسبة جد مهمة. ويعود هذا الانتشار جزئيا إلى عوامل دينية واجتماعية: من الناحية الدينية، تناقلت الأدبيات التربوية الإسلامية أقوالا كثيرة تشيد بالعلم والحث على طلبه، وخصص مؤلفوها أبوابا للحديث عن فضيلة العلم، يستعرضون فيها، بجانب الآيات القرآنية الواردة في الموضوع، جملة من الأحاديث النبوية التي تحض المسلم على طلب العلم بوصفه من أحد واجباته الدينية، منها قول الرسول (ص):"طلب العلم فريضة على كل مسلم"، ومنها ما يشيد بالعلماء وتفضيلهم على المجاهدين، وأنهم ورثة الأنبياء، ومنها ما يجعل العلم من أفضل العبادات، زيادة على مجموعة من الحكم والأقوال المتعلقة

---

(454) عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ابن غازي، دار الكتاب اللبناني-بيروت. د. ن. ص8 نقلا عن درة الحجال لابن القاضي.
(455) المختار السوسي، سوس العالمة... م. س. ص 32.

بالموضوع[456] وقد انتشرت هذه الأفكار حول أهمية العلم الدينية والدنيوية بالمغرب، ولا أدل على ذلك من الجملة التي بدأ بها ابن تومرت مؤلفه الأساسي: أعز ما يطلب وأحسن ما يدخر. فقد أدرك القدماء أن العلم ثروة لا تقدر بثمن ولا تتأثر بتقلبات الزمن وأهواله، جاء في وصية ابن الخطيب لأبنائه لحثهم على طلب العلم" والذي قليله يشفع وينفع، وكثيره يعلي ويرفع، لا يغصبه غاصب، ولا يسلبه العدو المناصب، ولا يبتزه الدهر إذا مال، ولا يستأثر به البصر إذا هال، ومن لم ينله فهو دليل وإن كثرت آماله، وقليل إن جم ماله" [457].

بالإضافة إلى ما تقدم، ساهمت الحوافز الاجتماعية في إذكاء إقبال الفئات الاجتماعية المختلفة على التعلم، سواء الموجودة في أسفل الهرم الاجتماعي أو الموجودة على قمته، وقد تقدم لنا أن أغلب الملوك والأمراء، كانوا علماء كبارا، مثل علي بن يوسف، أو خلفاء الموحدين، بدءا بعبد المومن إلى المأمون، ومثل أبي عنان المريني. ويظهر التنافس بين أبناء الفئات الاجتماعية المتباينة حول طلب العلم والحرص عليه، نظرا لأهميته الدينية والدنيوية، من خلال الحوار الذي جرى بين ابن حزم وبين أبي الوليد الباجي: "أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة من الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق، فقال ابن حزم:هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرجو به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة، فأفحمه"[458]. وبالفعل كان التعليم وسيلة مهمة للترقية الاجتماعية، خلال العصر الوسيط، إذ كان يفتح أمام المتعلمين مجالات واسعة للعمل في ظروف مريحة ويضمن لهم مكانة اجتماعية محترمة. فتلاميذ عبد العزيز

(456) يطول تتبع مثل هذه الأحاديث الواردة في فضل العلم، منها حديث : "لا حسد إلا في اثنتي، رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، وحديث، ما من رجل يسلك علما إلا سهل الله له طريقا إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"،ابن عبد البر، جامع بيان... م. س. ج 1 ص 40 وما بعدها؛ السمعاني عبد الكريم بن محمد، آداب الإملاء والإستملاء، تحقيق محمد شفيق زيغور، دار اقرأ-بيروت 1984 ص5.

(457) المقري، أزهار الرياض... م. س. ج 1 ص329.

(458) نفسه، ج 2 ص 77.

التونسي (ت 486هـ) من المصامدة الذين درسوا عليه الفقه بمدينة أغمات، "أخذوا عنه الفقه، ثم عادوا إلى بلادهم فسادوا في أقوامهم بما تعلموه من الفقه وصاروا قضاة وشهودا وخطباء وغير ذلك من المراتب"(459) وهي نفس الظاهرة التي استمرت حتى مطلع القرن 10 الهجري؛ فقد كان طلبة فكّيگ مثلا، يقصدون فاس ويتابعون بها دراستهم حتى يحصلوا على الإجازة، ويعودون إلى النواحي المجاورة لبلدهم، وتسند لهم وظائف متنوعة، ويحصلون من ذلك على أموال كثيرة"(460) وكان في وسع بعض الأفراد المنحدرين من أوساط اجتماعية متواضعة، أن يرتقوا بالدراسة إلى مصاف الوجهاء والأعيان وأن يتولوا وظائف سامية، وأحسن مثال على ذلك، أبو عبد الله محمد بن المحلى (ت 661هـ) الذي كان ابن مجرد قوال يغني في المحافل والأسواق، ولكن بفضل دراسته استطاع أن يتولى الكتابة لأحد أمراء بني عبد المومن على مدينة بلنسية، ثم تولى القضاء ببلده سبتة بالإضافة إلى مزاولة التدريس(461). ومثل عبد الله بن أبي مدين، في منتصف القرن 8هـ، الذي ينحدر من قبيلة أمازيغية مستقرة بمصمودة الغرب بجبال وزان، فبعد أن أكمل دراسته ابتدأ حياته كعدل بمدينة مكناسة، ثم انتقل إلى فاس كمؤدب لأبناء الحاجب محمد بن سعيد الكناني ولأبناء الوزير عمر بن سعود، وأخذ يرتقي بعد ذلك في الوظائف المخزنية حتى انتهت إليه الكتابة والعلامة والحجابة. وتحقق له بذلك ما كان يتمناه في صغره، إذ كان يقول لأصحابه: "لابد أن أخدم السلطان وأدبر الدولة، وأستولي على الأمر" (462)وحتى عندما ينحدر المرء من بيت عريق من الأعيان، فإن أصالته لا تضمن له ما يضمنه العلم والدراسة، مثل مالك بن المرحل المصمودي السبتي (ت 699هـ) الذي ينتمي لأسرة أمازيغية من الموالي نزلت الأندلس عند افتتاحها، وتولى القضاء مرارا، غير أن الذي أنهضه وجعله مشتهرا، هو نبوغه الشعري، إذ "أنهضه أدبه وشعره، وعوضه من الخمول الظهور، وكان شاعر المغرب"(463).

(459) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س. ص 93.
(460) الوزان، وصف إفريقيا م. س. ج 2 ص132-133.
(461) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص289.
(462) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى... م. س. ص 56.
(463) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص327.

I- المتعلمون

المصطلحات المستعملة بالمغرب، في الفترة الوسيطة، لنعت المتعلمين ومستوياتهم الدراسية، هي الولدان في المرحلة التعليمية الأولى، والطلاب في المرحلة التعليمية الثانية. وينقسم هؤلاء، حسب مستواهم العلمي العام وسنهم، إلى صنفين: الطلاب الصغار، والطلاب الكبار، أو خاصة الطلبة وعامتهم، وينقسمون كذلك، حسب مستواهم في علم أو مادة معينة، إلى: الطلبة المبتدئين والطلبة المنتهيين، لذا كان يخصص لأغلب المواد الدراسية، كتب موجهة للمبتدئين، وأخرى للمتوسعين.

1- الولدان

هم الأطفال الذين تتروح أعمارهم، في الغالب، بين 7 و 16سنة. وكان سن السابعة، هو السن المفضل لدى الفقهاء لدخول الطفل إلى المكتب؛ ويربطون ذلك بالحديث الذي يأمر الآباء والأولياء، بإجبار أبنائهم على الصلاة في هذه السن، وهو نفس السن الذي كان يبدأ فيها تعليم الأطفال في الحضارات السابقة كالحضارة الرومانية والحضارة الفارسية. وكان الطفل يستهل حياته الدراسية، كما جرت العادة، منذ القرون الهجرية الأولى، في مختلف الأقطار الإسلامية، أولا بحفظ القرآن، لسببين: لترسيخ الإيمان والعقيدة الإسلامية في الطفل، وباعتبار القرآن منبع الدين ومصدر العلوم الشرعية، وإيثارا للتبرك وابتغاء الثواب، وفي نفس الوقت خوفا من أن ينقطع الطفل – لسبب من الأسباب – عن التعليم فيفوته حفظ القرآن [464].

وكان الطفل يحفظ القرآن برواية ورش، وعلى مراحل تسميها الفتاوى الفقهية بالحدقة، إما حدقة سورة واحدة، أو حدقة ختم القرآن، ويستغرق في حفظه سبع سنوات في المعدل كما بفاس، في القرن 9هـ، إذا لم ينقطع عن

(464) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 1038-1042، ابن الحاج، المدخل إلى تنمية الأعمال.. م. س. ج2 ص317.

الدراسة (465). وتختلف طريقة تعليم الصبيان بين الأقطار الإسلامية وبين أقطار الغرب الإسلامي، وهذه الطرق ترسخت، في القرن 8هـ، حسب ابن خلدون وغيره، كما يلي:

فطريقة أهل المغرب في ولدانهم إلى سن البلوغ والشبيبة، فهي الاقتصار على تعليم القرآن فقط، مع طريقة رسمه وكتابته، ولا يخلطون ذلك في مجالس تعليمهم بغيره من العلوم كالحديث والفقه أو الشعر والأدب، حتى يحدق الولد القرآن أو ينقطع عن التعليم ويكون انقطاعه بكيفية نهائية في الغالب، ولا يتعلم معه ما يؤهله لمتابعة التعليم بعد ذلك.

أما أهل الأندلس، فمذهبهم أنهم جعلوا تعليم القرآن والكتابة أساسا لتعليم أطفالهم، ويخلطونه برواية الشعر في الغالب والترسل والنحو، ويركزون على تعليم الخط والكتابة، فيكتسب الطفل بذلك عدة ملكات تؤهله لمتابعة الدراسة في المرحلة الموالية.

أما أهل إفريقية، فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، وبمدارسة بعض العلوم الشرعية، وبالخط، مع التركيز على حفظ القرآن أكثر. وهذه الطريقة، فيما يبدو، طريقة الموحدين التي ورثها عنهم الحفصيون، وتُكّسبُ هذه الطريقة الأطفال بعض المؤهلات المحدودة لمتابعة الدراسة بالمرحلة الموالية.

أما أهل المشرق، فيخلطون تعليم القرآن بعدة علوم، ولهم مدارس مختصة بالخط بوصفه حرفة مستقلة لا علاقة له بالتعليم في الكتاب. ولم يظهر تعليم الخط بهذا الشكل إلا في القرن العاشر بمراكش(466).

ولاحظ ابن خلدون أن طريقة التعليم الأولي، في كل قطر، كانت ترتب عليها عدة نتائج، تهم مسار المتعلمين في المرحلة الثانية من التعليم التي

(465) الوزان، وصف إفريقيا.. م. س. ج1 ص203.
(466) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س ج 8 ص 433.

تصادف زمن الشبيبة : فطريقة أهل، إفريقية والمغرب ترتب عنها قصورهم في اللغة، وجمود العبارة وقلة التصرف في الكلام، وخاصة بالمغرب الأقصى. وعلى العكس من ذلك، فإن الأندلسيين، قد أفادهم تعليمهم الأولي في امتلاك اللغة والأدب. وهناك عوامل أخرى تفسر هذا الاختلاف غير ما ذكره ابن خلدون، كتأخر إسلام المغاربة مقارنة ببقية أقطار الغرب الإسلامي، وقلة تعريبهم، واستخدام الأمازيغية في التدريس، كما سبق الذكر. وعندما ينتهي الولد من حفظ القرآن، يبدأ في طلب العلم وهو في بداية سن المراهقة، ويطلق عليه آنذاك اسم الطالب الصغير، نظرا لصغر سنه وتواضع معرفته وعلمه.

2- صغار الطلاب

كان يطلق لقب الطالب حسب تعريف أبي سعيد بن لب الأندلسي (ت782هـ)، على المتعلم عندما يبدأ في حفظ القراءات السبع، ويشرع في طلب العلم والتردد إلى أهله (467)، ولا يقوم بذلك إلا في بداية سن المراهقة ابتداء من 12 أو 14 سنة في الغالب. وبعد حفظ القرآن برواية ورش، يبدأ بتعلم علوم القرآن، كالرسم والتجويد والقراءات السبع، وحفظ المتون المختصرة من كل علم من العلوم الشرعية أولا وعن ظهر قلب. ويتلقى كذلك الأدب والنحو، تحت إشراف مدرس النحو والأدب الذي يسمى أستاذا مقابل أجرة، وذلك قبل القرن 7هـ (468). وينحصر اهتمامه، في هذه المرحلة، في تدقيق وتصحيح ما يقرأه وفهم ما غمض منه، ولا يهتم باختلاف آراء العلماء في القضايا العلمية، ولا يطالع الكتب لعدم أهليته لذلك، في هذه المرحلة (469). وبعد تمكن الطالب من مبادئ العلوم الأساسية وحفظ المتون الأساسية عن ظهر قلب، يقوم برحلة إلى المناطق التي

---

(467) الونشريسي، المعيار المعرب... م. س ج 7 ص 264.

(468) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمان، حسن المحاضرة في أخبار القاهرة، القاهرة، 1327، ج 2 ص 125-125، ابن الخطيب، الإحاطة... م. س. ج 3 ص35 حسب شهادة أبي بكر بن العربي كانت طريقة للأندلسيين "وصار الطفل إذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم، علموه كتاب الله تعالى،ثم نقلوه إلى الأدب ثم إلى الموطأ، ثم إلى المدونة، ثم إلى وثائق ابن العطار، ثم يختمون له بأحكام ابن سهل"، الناصري، الاستقصا... م. س. ج 1 ص141.

(469) السمعاني، آداب الإملاء والإستملاء... م. س. ص 113.

يتواجد بها العلماء الكبار لاستكمال معارفه وتعميقها حسب ميوله، ويقصد إلى المشهورين في زمانهم الذين يشار إليهم بجمل مثل و"كانت إليه الرحلة في وقته" أو"كثر إليه الرحالون"، مثل ابن غازي، في القرن التاسع الهجري، بفاس الذي كان يقصده الطلاب من مختلف أنحاء المغرب. وكانت الرحلة تعد أساسية في تكوين الطالب. وهذه المرحلة من تعميق المعارف، غير مرتبطة بسن معينة ولا بفترة محددة، إذ كان في إمكان الطلاب الذين انقطعوا عن التعليم، لسبب من الأسباب، أن يستأنفوا الدراسة وقد تقدم بهم السن، ونجد منهم من بلغ 27 سنة وأكثر(470). ويستمرون في ذلك مدة طويلة، فمنهم من قضى في طلبه 5سنوات، ومنهم قضى 30 سنة (471) حتى يصلون إلى ما بعد سن الكهولة. وعند ظهور المدارس، كان لا يقبل بها إلا الطلاب البالغون عشرين سنة من العمر فما فوق، ويقضون في الطلب 5 سنوات في المعدل، ولا يسمح لهم بتجاوز 10 سنوات على الأكثر(472).

وترد، في المصادر، نماذج لبعض الطلاب والمراحل التي قطعوها في طلب العلم، منها مثال عبد الواحد المراكشي الذي ولد بمدينة مراكش سنة 581هـ، وذهب، في التاسعة من عمره، إلى فاس لقراءة القرآن وتجويده وتعلم النحو، ورحل سنة 603هـ إلى الأندلس في طلب العلم وهو ابن 22 سنة (473). ومثال أحمد رزوق (ت 899هـ) الذي حفظ القرآن وتعلم صناعة الخرز في طفولته، ثم بعد بلوغه 16سنة، شرع في دراسة العلوم واحدا بعد واحد ودرس التصوف على عدة شيوخ (474).

وكان طلب العلم، في هذه المرحلة الأساسية، يتطلب من الطلاب الجد والاجتهاد، وتبين الأدبيات التربوية الإسلامية أن "العلم لا ينال براحة الجسم"، بل"بالمصباح والجلوس إلى الصباح، وبالسفر والسهر والبكور في السحر"(475).

(470) ابن الخطيب، الإحاطة... م.س.ج3 ص 134، عباس بن ابراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش.. م. س.ج 7ص 235.
(471) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص203، 213.
(472) المنوني، ورقات... م. س. ص202.
(473)المراكشي، المعجب... م. س. ص 508.
(474) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص 48-85.
(475) القاضي عياض، الغنية... م. س. ص77، 154.

وكان أغلب الطلاب يقبلون في بداية حياتهم الدراسية على دروسهم، وتحصيل العلم بجد واجتهاد ويقسمون أوقاتهم بالساعة الرملية، فكانوا يحضرون حلقات الدروس من الفجر وطيلة اليوم كله، يشتغلون بالمطالعة ويسهرون ليلا لحفظ الدروس ومراجعتها، ولا يبقى لهم إلا الوقت القليل لإعداد الأكل والنوم(476). كما أن الآباء والأساتذة يحثون أبناءهم على الجد والاجتهاد بالترغيب بواسطة تقديم الهدايا والمال(477)، أو بالترهيب بالعقاب الجسدي، و لا يتساهلون معهم إلا في حالة استثنائية كالمرض وغيره. كما أن الأساتذة والمدرسين كانوا يؤاخذون طلابهم بالجد والاجتهاد، وينصحونهم. فكان الطالب يكاد يقطع صلاته بالعالم الخارجي أثناء الدراسة حتى بأقاربه، مثلما حدث لمحمد بن عات النفزي الذي بات عند أحد أقاربه فشغله ذلك عن حفظ درسه في مدونة سحنون، فغضب شيخه، وقال له:تركت وطنك وأتيت لطلب العلم ثم تفرط ولا تجتهد؟ وعندما اعتذر له بالضيف أجابه "ما ينبغي لطالب العلم أن يبيت عنده أحد، ولا أن يبيت عند أحد ولا ينزل عنده ضيف ولا يشتغل بأحد من معارفه ولا يصرفه عن ما هو بسبيله" (478).

ويظل المتعلم يحمل لقب الطالب، مجردا عن ألقاب أخرى، حتى تتسع معارفه ومداركه. وكان محمد بن أبي دليم (ت 372هـ)" لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيها حتى يكتهل ويكمل سنه ويقوى نظره، ويبرع في حفظ الرأي ورواية الحديث، ويتميز فيه، ويعرف طبقات رجاله ويحكم عقد الوثائق ويعرف عللها ويطالع الاختلاف ويعرف مذاهب العلماء والتفسير ومعاني القرآن، وحينئذ يستحق أن يسمى فقهيا، وإلا فاسم الطالب أليق به إلى أن يلحق بهذه الدرجة، ودعاء الداعي له باسم الفقيه مخزية"(479). ورغم أن بعض المتعلمين قد يتمكنون من تجاوز هذه الدرجة ويمتلكون ثقافة موسوعية، فإنهم مع ذلك يستمرون في طلب العلم، ويطلق عليهم آنذاك الطلاب الكبار، وخاصتهم.

---

(476) ابن ميمون الغماري، الرسالة المجازة... م. س. ص 40-44.
(477) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص425، عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س ج 8 ص382.
(478) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 6 ص307.
(479) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س. ص 254.

3- كبار الطلاب أو الفقهاء

هم الذين أخذوا المعارف الأساسية، وبلغوا الأربعين سنة فما فوق، ويشتغلون بعمل معين، ويتميزون في بعض المناطق بلباس العمامة. ورغم مكانتهم العلمية والاجتماعية يظلون يتابعون الدراسة قصد المزيد من تعميق معارفهم وتوسيع مداركهم في بعض المواد، إما في شكل مناظرات أو دروس عادية، على يد الشيوخ الكبار، كمحمد بن عمر بن رشيد الفهري (ت780هـ) الذي" عقد مجالس للخاص والعام" من الطلبة(480)، وكذلك فعل أبو سعيد بن عمر (ت361هـ) بالقيروان وأحمد المنجور بفاس. أما عبد المهين الحضرمي (ت 712هـ) المسمى ب"شيخ الفقهاء" أو "معلم الفقهاء" فقد "كان مجلسه يغص بعمائم العلماء، وكأنما على رؤوسهم الطير هيبة له وتأدبا معه"(481) . وكان بعض كبار طلبة أبي عبد الله اللخمي (ت 733هـ) "إذا فرغ أحدهم من الفن الذي اعتاد قراءته عليه يقوم منصرفا إلى مسجد فيدرس به العلم"(482). فالاستمرار في طلب العلم من التقاليد التعليمية المتأصلة لدى المتعلمين، وتلح الأدبيات التربوية الإسلامية على ذلك، إذ تخصص فصولا "للحض على استدامة الطلب" (483). وتؤكد الوقائع والأحداث التاريخية تشبث المتعلمين بهذا التقليد، إذ تنعت كتب التراجم بعض العلماء بعبارة مثل"كان يطلب العلم حتى مات". وقد سئل الحسن بن علي الفاسي الذي كان"يطلب ويختلف إلى العلماء محتسبا حتى مات، وسأله زميل متى تنقضي قراءتك على الشيخ ؟ فأجابه إذا انقضى أجلي"(484). ولا يتوقف طلب العلم عند سنة معينة، وهذا ما يفسر إطلاق كلمة الطالب بالمغرب والأندلس على العلماء، كما يظهر من تنظيمات الموحدين، إذ صنفوا فيها إلى صنفين: طلبة الموحدين

---

(480) نفسه، ص311.
(481) النباهي، المرقبة العليا... م. س. ص 132.
(482) مجهول، بلغة الأمنية... م. س. ص175.
(483) ابن عبد البر، جامع بيان العلم... م. س. ج 1 ص 114.
(484) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص178.

وطلبة الحضر[485]. ولا يطلق لقب الفقيه على المتعلم إلا إذا كان قديم الطلب واستمر في لقاء حملة العلم والأخذ عنهم[486].

وترجع أصول هذه العادة إلى عدة أحاديث نبوية تحث على الاستمرار في طلب العلم، منها "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"[487]، أو ما رواه ابن عباس" منهومان لا تنقضي نهمتهما طالب علم وطالب دنيا"[488]؛ والسبب أن العلم بحر لا ساحل له.

كما ترجع إلى عادة المشاركة التي تعني ضرورة إلمام الطالب بمبادئ العلوم المختلفة، وتعلل الأدبيات التربوية هذه الضرورة بتداخل العلوم فيما بينهما، وبكون الإنسان عدوا لما يجهله. وقد أدت المشاركة إلى لتكوين موسوعي اكتساب أغلبية المتعلمين المسلمين.

كما تتغذى هذه العادة من المنافسة بين المتعلمين، فابن عرفة (ت 803هـ) لامه البعض على كثرة الاجتهاد وتعب نفسه في النظر، فقال: "كيف أنام وأنا بين أسدين: الأبي بفهمه وعقله، والبرزلي بحفظه ونقله"[489].

وكثيرا ما يكتشف بعض المتعلمين بعض مواطن النقص في تكوينه، فيسعى لاستدراكه. فرغم أن ابن عات (ت 612هـ) استظهر الكثير من الكتب، وكانت له مكانة علمية كبرى ويفاخر به أهل شاطبة، فإنه لما حضر مجلس السلطان بمراكش، فتذاكروا علم الكلام ولم تكن له فيه معرفة كبيرة، انقطع عن المجلس وحفظ فيه نحو مائة ورقة ثم رجع يذاكرهم[490]. كما أن أبا الحسن الصغير(719هـ) تحدث في الفقه مع محمد بن يحي الباهلي المعروف بالمسفر، فرد عليه ملحونة، فلما فارقه قال لأصحابه بما يستدرك هذا، فقالوا بفصيح

(485) المراكشي عبد الواحد، المعجب... م. س. ص 293.
(486) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص 327.
(487) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري... ج 1 ص121.
(488) ابن عبد البر، جامع بيان العلم... م. س. ج 1 ص 121.
(489) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س ص 287.
(490) نفسه، ص60.

ثعلب، فذهب وحفظه في ليلة واحدة [491]. ويمكن أن نذكر حالة محمد القيسي القلعي (ت567هـ)المعروف بابن الرمامة، مستوطن فاس الذي كانت الدراية أغلب عليه من الرواية، إذ لم يتنبه لها إلا في سن الكهولة [492]. كما أن الاعتماد على الحفظ والذاكرة، كان يدفع بالطلاب إلى تعهد محفوظاتهم بالمذاكرة الدائمة.

وهذا الحرص على الطلب الدائم، جعل الطلاب والعلماء يتميزون بعدة صفات وسلوكات، منها:

أولا، كان المتعلمون يتواضعون في طلب العلم، إذ كانوا لا يستنكفون عن الأخذ عن "الصغير والنظير والكبير"، ويسمى الأخذ عن النظير والأقران بالتدبيج. ومثال الأخذ عن الصغير، ما يروى عن الحسن بن فيرة المشتهر بابن سكرة (ت 514هـ) الذي "استوطن مرسية وسمع الناس منه كثيرا، وسمع منه من هو في عداد شيوخه وممن سمع منه من قبل"[493]. أو ما يروى عن ابن عبد الملك المراكشي مع أبي القاسم البلوي (ت 651هـ) أحد شيوخه الذي يقول عنه: "لقد ذاكرني بمسائل من العلم وأنا ابن 16عاما ونحوها، فذكرت له ما عندي فيها، ثم بعد حين وقعت عليها مقيدة بخطه وقد ختمها بقوله: أفادنيها الطالب الأنجد الأنبل أبو عبد الله ابن عبد الملك"[494]. وحتى من لهم مجالس علمية مشهورة، في مادة معينة، لا يكفون عن طلب المزيد من التعمق فيها، كأبي الحسن علي البيدش (ت 428هـ) أحد شيوخ عياض، "كان مع تصدره وتقدمه لا يقطع الطلب السماع والرحلة. يقرأ على المقرئين ما فاته من روايات وهو مقرئ متصدر" [495]؛ بل إن علي بن عمران، في القرن 10هـ، "كان يقرئ مختصر الشيخ (خليل) مع جماعة من الطلبة بالقرويين من آذان الظهر إلى الصلاة، فإذا صليت الظهر

---

(491) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س ص240.
(492) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 198.
(493) القاضي عياض، الغنية... م. س. ص 129-131.
(494) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 1 ص455.
(495) القاضي عياض، الغنية... م. س. ص175.

يأتي معه أكثر طلبة مجلسه إلى مجلس الشيخ سيدي عبد الواحد الحميدي" [496]. كما أن أبا عنان المريني وجه عالمين لامتحان الفقيه الصرصري مدرس كتاب التهذيب بالمدرسة المتوكلية بفاس، ولما امتحنه العالمان ضجر وانقبض، وهو المشهور بإتقان تدريس ذلك الكتاب، فأرسل له أبو عنان مبررا امتحانه كما يلي: "كي تعلم ما عندك وما عند الناس. فلا يجب أن تتكل على ما حصل عندك ولا يمنعك ما أنت فيه من التصدي عن ملاقاة من يرد من العلماء والتنزل للأخذ عنهم، ولا يقدح ذلك في رتبتك عندنا" [497]. وفي تونس ترك القاضي أبو عبد الله الأزرق مجلس تدريسه ليحضر مجلس عبد العزيز بن موسى العبدوسي (ت837هـ) الذي نزل بالمدينة سنة 817هـ [498].

ثانيا، السعي للقاء العلماء: تلح الأدبيات التربوية الإسلامية كثيرا على الاحتكاك بالعلماء، وتورد أقوالا في هذا الشأن، منها قول أنس بن مالك: "بلغني أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء" [499]. وعندما دخل ابن حوقل مدينة سجلماسة، سنة 340هـ، أعجب بعلمائها وقال عنهم: "فلم أر بالمغرب أكثر مشايخ في حسن سمت **ومزاحمة للعلم وأهله**." [500]. وهذه العادة هي التي دفعت بأحمد ابن الصقر الأنصاري (ت 569هـ) إلى رفض عرض مغر ليؤدب ابن عامل دكالة اللمتوني بألف دينار مرابطية، وقال: "والله لو أعطاني ملء الأرض على أن أخرج عن طريقي وأفارق ديني من خدمة أهل العلم ومداخلة الفقهاء والانخراط في سلكهم ما رضيت" [501].

ثالثا، تكوين شبه منتديات علمية: دفعت ضرورة التقاء العلماء فيما بينهم إلى تكوين شبه منتديات، كمنتدى محمد ابن الحاج اللخمي (ت 654هـ) بمراكش،

---

(496) الكلالي إبراهيم بن عبد الرحمان الورياغلي، قطعة من "المسألة الأملسية"... م. س. ص252.
(497) المقري، أزهار الرياض... م. س ج 3 ص 27-28.
(498) المنوني، ورقات عن الحضارة... م. س. ص217.
(499) القاضي عياض، الغنية... م. س. ص 47.
(500) ابن حوقل، صورة الأرض... م. س. ص96.
(501) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س ص 49.

وهوعبارة عن دويرة "كان قد اتخذها للتفرغ فيها مع من يغشاه من أكابر أهل العلم ونبهائهم للنظر في العلم وأسبابه، والمذاكرة ومقابلة ما ينسخ أو يستنسخ، وهي بحومة المرج بمقرية من باب تغزوت داخل البلد"[502].

ونشأ عن هذا التقليد تقليد آخر هو عادة نزول المتعلمين في أسفارهم ورحلاتهم عند متعلمي البلد الذي يقصدونه ولو لم يكن لهم سابق معرفة بعضهم ببعض، وتحتفظ المصادر بأمثلة عدية عن هذه العادة، منها على سبيل المثال، نزول القاضي عياض بفاس لدى البيوتات العلمية المشهورة كبيت بني الملجوم، وبني الغدريس[503]، ومنها نزول ابن تومرت بعد عودته من رحلته المشرقية، أوائل القرن6هـ، لدى فقهاء المدن التي توقف فيها. وذكر البيدق أسماء العلماء اللذين نزل عندهم، كما ذكر المجالس العلمية التي عقدها مع علمائها[504] . وحتى عندما ينزل بعضهم بالقرى، فإنهم يفضلون النزول عند فقيه القرية، كما حدث لأبي إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل، واستفادا من هذا الطالب[505]. وقد انتقد ابن عبد السلام الناصري العبدري الحاحي صاحب الرحلة، قائلا:"إنه لم يمدح في رحلته إلا سكان تونس، ولو أمكن أن يهجو الحرمين لفعل، وما ذلك إلا أن الرجل بربري من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم، إنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة أو بفندق من جملة الغرباء ولا يتفطن له عالم ولا ذو مروءة"[506]. ومما يدل على رسوخ هذا التقليد إلى بداية القرن 10 الهجري، أن الحسن الوزان كان ينزل، أثناء تنقلاته العديدة، عند أئمة المساجد، كما فعل بمدينة بزو وفي آيت عياض مثلا[507]، أو يقيم عند زملائه أيام الدراسة بفاس، كإقامته عند فقيه بجبل شيشاوة أو عند إمام مدينة أغمات[508]. ويحرص المعلمون أثناء هذه اللقاءات على تسجيل الإفادات العلمية المختلفة التي اكتسبوها من نظرائهم.

---

(502) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 6 ص18-19.
(503) المقري، أزهار الرياض... م. س ج 1 ص23.
(504) البيدق أبو بكر الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت... م. س. ص 12-26.
(505) المقري، أزهار الرياض... م. س. ج 5 ص62.
(506) عباس بن إبراهيم، الإعلام... م. س ج 4 ص 230.
(507) الوزان، وصف إفريقيا... م. س ج 1 ص 146-134 .
(508) نفسه ج 1 ص108-111.

II- المعلمون ورسالة نشر العلم

1- *الحرص على نشر العلم*

كان جل المتعلمين، كيفما كان مستواهم التعليمي، يدرسون ويساهمون في نشر العلم. إذ يعتبر بث العلم ونشره، في شكل تدريس أو فتوى أو وعظ وتذكير، واجبا دينيا واجتماعيا على كل متعلم.

أ- العامل الديني: لم تكن الغاية من تحصيل العلم، حسب الأدبيات التربوية الإسلامية، التجمل به أو نيل المال والجاه، بل العمل به أولا، ونشره بين المسلمين لتعم فائدته، ثانيا(509). وقد ورد في القرآن والحديث ما ينهى المتعلم عن كتمان العلم، كقول الرسول (ص): "ما من رجل حفظ علما فسئل عنه فكتمه إلا جاء يوم القيامة ملجما بالنار"(510)، وتعتبر بعض الأحاديث النبوية نشر العلم من بين أفضل العبادات والصدقات. وعرف المغرب في العصر الوسيط متعلمين أبدوا حرصا كبيرا على نشر العلم وتعليمه، ولم تحل مهامهم المختلفة التي تقلدوها بينهم ولا كبر السن وبين القيام بهذا الواجب. فهذا أبو عبد له محمد ابن الرمامة الفاسي(ت 567هـ) اعتزل القضاء "وأقبل على نشر العلم والانتصاب لإفادته والجلوس للإقراء والسماع متحملا مشقة التدريس على كبر سنه رغبة في بث العلم وتحريضا وإعانة لملتمسيه"(511). وهذا أبو عبد الله المشهور باللخمي الفاسي (ت 794هـ) "جلس للإقراء بفاس مواظبا عليه صابرا محتسبا لله قرأ عليه خلق كثير حتى كبر وضعف وعجز عن خروجه فأقرأ بداره مدة ثم اشتد ضعفه فصار يقرئ في بعض الأوقات"(512). والأمثلة عن مثل هؤلاء المتفانين في التدريس كثيرة جدا.

ونعلم أن الخطباء وأئمة المساجد والقضاة كانوا يدرسون بجانب مهامهم هذه، وإذا علمنا أن عدد المنابر التي يخطب فيها يوم الجمعة بالمغرب والأندلس

---

(509) ابن عبد البر، جامع بيان العلم... م. س. ج 1 ص143-150.
(510) نفسه ج 1 ص4.
(511) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص327.
(512) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص 173.

كان أزيد من ألف وتسعمائة منبر في عصر يوسف بن تاشفين[513]، سيكون عدد المدرسين في هذه الجوامع وحدها أكبر من هذا الرقم بكثير.

ب - ***العامل الاجتماعي***: إذا كان تحصيل العلم يشكل أحد الوسائل الأساسية للترقية الاجتماعية بالمغرب الوسيط، إن لم تكن الوحيدة، فإن نشره وتدريسه يعزز أكثر، المكانة الاجتماعية للمتعلم، ويصبح "معظما عند الخاصة والعامة". إذ كانت مكانة المدرسين تفوق مكانة أصحاب الأنساب العريقة، أو أصحاب المناصب العليا في الدولة، فأبو الحسن بن حرزهم قدم مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للقراءة عليه والأخذ عنه، فدخل عليه أبو الحسن وهو على سريره، فجلس أبو الحسن تحته، فأمره أن ينزل عن سريره ليجلس عليه ويجلس الأمير تحته، وقال له: هكذا ينبغي أن يكون المتعلم مع المعلم"[514]. كما أن أجداد عيسى الموماني(ت 639هـ) لم يشعروا بالحاجة إلى إعلان نسبهم الشريف لأن التعليم والتدريس أغناهم عن ذلك، إذ إن آباءه "سكتوا عن إفشاء نسبهم الشريف لاشتغالهم بالعلم وتعاطي أسبابه الزمن الطويل"[515]. وكما يظهر من حادثة بمجلس أبي عنان المريني(749-761هـ)، إذ كان جميع من يحضر المجلس يقف إجلالا وتعظيما لمزوار الشرفاء، بما في ذلك السلطان نفسه، إلا محمد المقري؛ فاشتكى المزوار من هذا التصرف لأبي عنان، وعندما استفسر المقري، لماذا لا يقوم إكراما لشرف المزوار، فأجاب المزوار:"أما شرفي فمحق بالعلم الذي أنا أبثه، ولا يرتاب فيه أحد، أما شرفك فمظنون"[516]. وهذه المكانة تجعلهم في غنى عن تقلد الخطط والمناصب المغرية في جهاز الدولة، مثل أبو الفضل بن تميم القيسي(ت598هـ) الذي استدعي من بجاية إلى مراكش من طرف الموحدي" ليتولى منصبا يسمو به عن أمثاله، لكن عزة العلم أغنته عن الناس، وحصلت مزية في الأنفس أزيد مما يقاس"[517]. وكان التعليم يتيح للأفراد إبراز

---

(513) ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. ص 136.
(514) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س ص169.
(515) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س ج 4 ص 229.
(516) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص 253.
(517) الغبريني، عنوان الدراية... م. س. ص 53.

مواهبهم ومؤهلاتهم الفكرية، وجل النابهين تعرف الناس على كفاءاتهم ودرجتهم العلمية من خلال حلقات دروسهم في المساجد أو غيرها. فمكانة أبي موسى الجزولي (607هـ) وشهرته تكونت خلال تدريسه في مسجد هامشي بمراكش، وسرعان ما وصلت أصداء حلقته في النحو للبلاط الموحدي، فضمه يعقوب المنصور إلى طلبة الموحدين الذين يحضرون مجالس الخليفة[518]. ومثل محمد بن عبد الكريم الفندلاوي (ت 597هـ) الذي فضل الانقطاع إلى الانتصاب لإفادة العلم والتدريس، مكتفيا بالقليل في معيشته، رغم العروض المغرية التي قدمت له لتولي مهمة تدر عليه أموالا طائلة، فرفضها، بل رفض حتى طلب المنصور الموحدي ليكون من طلاب مجلسه فما قدر عليه البتة[519]. وهناك أمثلة عديدة لمدرسين برزوا، من خلال إلقاء الدروس، فاشتهروا وتجاوزت شهرتهم المغرب والأندلس لتصل إلى المشرق بواسطة طلابهم[520]. لذلك كان الحكام يسعون إلى تقريب العلماء واستقدام المدرسيين بشتى الوسائل لأخذ العلم عنهم كما تقدم، ولإسناد بعض الوظائف لهم، أو"للتجمل أو المباهاة بهم"، حسب تعبير كتب التراجم. وكانوا يعفونهم من الكلف والوظائف المخزنية التي تفرض على الرعية، ويصدرون لهم ظهائر التوقير والاحترام، إضافة إلى ما كانوا يصلونهم بهم من عطايا وهبات في المناسبات المختلفة. زيادة على النفوذ السياسي الذي كان لهم لدى الحكام خاصة في عهد علي بن يوسف، "إذ بلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر من فتح الأندلس"[521].

ولم يكن العلماء يحظون بالتقدير والاحترام من طرف الحكام وحدهم، بل يكرمون من طرف الرعية كذلك. ومن مظاهر هذا التكريم والإجلال أنهم كانوا يستقبلون بترحاب كبير يفوق أحيانا ما يخصص للأمراء. فعندما دخل القاضي عياض غرناطة، سنة 530هـ، "خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير

(518) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص432-249.
(519) نفسه، س 8 ص332.
(520) ابن الزبير، صلة الصلة... م.س. ص 564-432.
(521) المراكشي عبد الواحد، المعجب... م. س. ص 252-253.

مؤمر مثله، وحرزت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا، نيف على مائتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة"[522]. كما خرج سكان مدينة فاس، سنة 885هـ، لاستقبال أبي العباس أحمد الشهير برزوق[523]. بل إن سكان القرى بدورهم كانوا يحتفون بهم؛ فهذا محمد بن عبد الكريم الهزميري، في القرن 8هـ، زار بلاد لمطة، "فأتى إليه أهل القرية ومن حولهم من الديار بكل ما أمكنهم من الخبز والزيت والتمر وغير ذلك مما في بلادهم كأنما صاح بهم صائح"[524]. ومن مظاهر تقدير العلماء، أن العامة كانت تسمي الأزقة التي كانوا يدرسون بها بأسمائهم، كإطلاق اسم سعدون بن محمد فتوح الأنصاري على الزقاق الذي يدرس به بحومة الأرجوانيين بمراكش[525]. ومن مظاهره كذلك، أن العامة كانت تشارك بكثافة كبيرة في تشييع جنائزهم. ولم يزاحم المدرسون في هذه المكانة التي تربعوا عليها، إلا المتصوفة وأهل الصلاح، ابتداء من القرن السادس الهجري. فهذا مروان بن عبد الملك اللمتوني(ت 571هـ) استدعاه القاضي إلى مراكش ليتولى خطة الحسبة، وعند وصوله إليها سمع بعابد أجدم، وذهب لزيارته، "فرأى الناس يزدحمون عليه يقبلون رأسه ويديه، فقال: هذا رجل أمي لا علم عنده ويعظمه الناس هذا التعظيم، وأنا لم ينفعني الله بشيء مما تعلمته"[526].

2- الصفات المطلوبة في المدرسين

لا تخضع ممارسة مهنة التعليم لقوانين محددة وقواعد مضبوطة، كما لا تتطلب حمل شواهد علمية معترف بها، إذ لم تكن الإجازات التي تسلم للطلاب شهادات تثبت أهلية المتعلم لمزاولة التدريس، بقدر ما كانت إذنا للطالب من طرف شيخه بالتحديث بما روي عنه. فكان في إمكان كل من أنس في نفسه الكفاءة أن يزاول المهنة، "على أنه ينبغي لكل أحد من المفتين والمدرسين أن يكون له زاجر من نفسه يمنعه من التصدي لما ليس له أهل فيدل به المستهدي

(522) المقري، أزهار الرياض... م. س. ج 3 ص 11.
(523) دوحة الناشر ص21-49.
(524) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س ج 4 ص 272.
(525) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 4 ص22.
(526) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س. ص 238.

ويضل به المسترشد"(527). والشرط الوحيد الذي يشترطه الفقهاء، في الفترة الأخيرة من العصر الوسيط، هو أخذ العلم عن الشيوخ ولقاء حملته لا من الكتب (528). وقد أدرك مالك هذا، منذ القرن 2هـ، إذ روي عنه: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"(529)؛ مما يؤكد أهمية المشيخة العلمية.

أما أهم الصفات المطلوبة في المعلمين فهي عديدة، في مقدمتها، العلم والثقافة الموسوعية، وكان بإمكان بعضهم أن يديروا ظهرهم للقبلة بالمسجد ويقرؤون دولا مختلفة في فنون متعددة، بعد صلاة الصبح إلى زوال الشمس، مثلما كان يفعل أبو عبد الله اللخمي(733هـ) بمدينة سبتة(530). وكان البعض منهم يشتهر بإتقان تدريس بعض المواد، في منطقة معينة، ويقصده طلابها، مثل أبي محمد بن عبد الحق بن سعيد الذي التقى به ابن الخطيب بمكناسة، سنة761هـ، وقال عنه: "إنه كان من أهل العلم والحصافة، قائما على كتاب أبي عمرو بن الحاجب الفقهي في مذهب مالك، وكان ممتازا به فيما دون تلمسان"(531)، ومنهم من أصبح مؤلفا(532). ومن الكفاءات التي كانت لها أهميتها جودة الخط وحسن الوراقة، ويمثل ابن عبد الملك صاحب الذيل والتكملة مثالا بارزا للقدرة على التمييز بين خطوط أكبر الشيوخ والاطلاع عليها(533). ومن الصفات التي تميز بها البعض، صفات تتعلق بالأمانة العلمية والموضوعية مع ما يتطلبه ذلك من صرامة المنهج، والحفظ والتثبت، واليقظة والنقد والضبط، والصدق والإنصاف. وعندما تنعدم مثل هذه الصفات في مدرس معين، تختم ترجمته بجملة "لا يرضى حاله"إما بسبب كذبه أو سلوكه، مثل أبي عمر البيراقي الفاسي الذي "كان كذابا مزورا لخطوط المشايخ لنفسه ولأبيه ولغيرهما، وقد تقدم أنه ممن لا يرضى حاله"(534). وكان الإمام مالك يقول: "لا تأخذوا العلم عن أربعة، وخذوه عن

(527) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص389.
(528) الونشريسي، المعيار المعرب... م. س. ج 12 ص359.
(529) ابن خير محمد بن خير الأشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، تحقيق فرنشكة قدارة ريدن، مركز الموسوعات العلمية، بيروت -لبنان 1963 ص19.
(530) مجهول، بلغة الأمنية... م. س. ص 175.
(531) ابن الخطيب، نفاضة الجراب... م. س. ص 374.
(532) المقري، أزهار الرياض... م. س. ج 3 ص 23 وما بعدها.
(533) انظر مقدمة بن شريفة للسفر 8 من الذيل والتكملة لابن عبد الملك... م. س. ص 117.
(534) نفسه، س 8 ص234.

سواهم: لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا من صاحب هوى يدعو إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه بكذب على رسول الله (ص) ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف الحديث"[535].

وكانت للمدرسين، بالإضافة إلى هذه الصفات العلمية، خصال أخلاقية ودينية، في مقدمتها التدين والاستقامة والزهد والورع، وكان لا يقبل أن تصدر عن الأستاذ أو المدرس أي هفوة دينية مهما كانت صغيرة. فعبد الرحمان بن عجوز الكتامي أخطأ في كلمة قرآنية، فكفر وأفتى فيه بعض الفقهاء بفاس بالاستتابة فسجن، غير أنه تمكن من الهرب قبل قتله[536]. ومحمد بن عبد العزيز التازغدري قتل سنة 633هـ لأنه كان يفاضل بين الأنبياء كما جرت العادة بذلك [537]، ويهجر الطلاب المدرسين الذين لهم آراء غير مألوفة ومذهب غير المذهب السائد حتى في بعض العلوم كالنحو، مثل محمد بن طلحة بن حزم الأموي (ت 618هـ) الذي "كان مائلا إلى آراء أبي الحسن بن الطراوة في النحو، ثم غلب عليه ذلك فشرد عنه الجمهور"[538]. وعلى العكس من ذلك، كل من تميز بعداوته للبدع والأهواء، وبرهن عن تمسكه بالسنة تغص حلقاته الدراسية بجمهور واسع من الطلاب، ينجذبون إليها بهالة الاستقامة والنزاهة التي تكونت حوله، مثل أبي الحسن الصغير الذي لم تكن له مؤلفات كغيره من المغاربة المتأخرين بسبب "أن القوم كانوا أهل عمل ودين متين، وجري على سنن السلف الأقدمين الصالحين العاملين، فشغلهم ما أخذوا فيه من كد العمل، وأثقال التقلل والمجاهدة وتحري الحلال، والزهد والإقلال"[539].

وكان ما يميز علاقة الأساتذة بطلابهم، في الغالب، هو العطف والحنان والتودد للطلبة، ومباسطتهم والحرص على إفادتهم والبرور بمن تظهر نجابته

---

(535)ابن خير، فهرسة... م. س. ص 20.
(536) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 252.
(537) نفسه ص 239، درة الحجال... م. س. ج 2 ص108.
(538) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 6 ص236.
(539) أزهار الرياض... م. س. ج 3 ص31.

منهم، ولسان حاله يقول :

وفي شربه لو كان علي سبقيتكم ولم أخف عنكم ذلك العلم بالذخر[540].

ويسعى الكثير منهم إلى تقديم المساعدة المعنوية والمادية الممكنة لطلابه. فمحمد بن عياض السبتي (ت 655هـ) كان" محبا في العلم وأهله مقربا لأصاغر الطلبة ومكرما لهم ومعتنيا بهم معملا دهره في الدفع عنهم عسى أن يتوهم ويحبب إليهم العلم والتمسك به. وما رأينا في هذا مثله"[541]، ويتحمل البعض منهم هفوات الطلاب ولا يضجرون منهم مثل علي بن هديل الأصيلي (ت 564هـ) الذي كان متى توجه إلى "ضيعته صحبة طلبة العلم إليها للقراءة عليه والسماع منه، فلا يسأم من ذلك ولا يضجر منهم، طلق الوجه منشرح الصدر جميل الصبر، وينتابونه ليلا ونهارا فلا يسأم من ذلك ولا يضجر على كبرته[542]. ولكن في المقابل، كانوا يوجهون اللوم لمن أساء منهم الأدب أو تقاعس عن التحصيل والاجتهاد. لذا كانت وفاة الأستاذ بالنسبة للطلاب تشكل فاجعة حقيقية، وخسارة لا تعوض ويبكونه في حرارة صادقة وحزن عميق من خلال مراثيهم، وتشاركهم العامة والخاصة في حزنهم على وفاته وفي تشييع جنازته.

وكان من عادة أغلب الطلاب، الاشتغال بمهن أخرى، إما في بعض الخطط الدينية، أو تدريس الطلاب الصغار، أو غير ذلك، نظرا لطول المدة التي يقضونها في التحصيل، وذلك حتى بعد ظهور المدارس، في القرن 7هـ.

3- ***السن***

لا يتوقف احتراف التعليم عند سن معينة، وإنما كان يخضع لتقاليد متوارثة، وكان في إمكان كل متعلم أن يزاول التعليم خاصة تعليم الأطفال. غير أن العادة تقتضي في تعليم الكبار، أن لا تكون للمدرس حلقة علمية مشهورة، في جامع يتردد عليه الطلاب بكثرة، إلا بعد نمو واتساع معارفه، ولا يتم ذلك عادة إلا

---

(540) ابن القاضي، التعلل برسوم الإسناد... م. س. ص78، مجهول، بلغة الأمنية... م. س. 185.
(541) ابن الزبير، صلة الصلة... م. س. ص 517.
(542) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 5 ص369.

بعد أن ينضج سنه ويتجاوز الأربعين من عمره، وآنذاك يطلق عليه لقب الفقيه أو الشيخ[543]، ويستطيع إقناع الجميع بمؤهلاته العلمية وخصاله الذاتية واكتساب الخبرة والتجربة. أما قبل ذلك، فيطلق عليه لقب الطالب. والسن لها أهمية كبرى في المجتمع القبلي، وقلما تصدر الشباب للتعليم، باستثناء بعض الأفراد النجباء، مثل القاضي عياض رغم نبوغه ونضجه العلمي المبكر، فإنه لم يدرس الطلاب الكبار إلا بعد أن بلغ 32 سنة من العمر. ومن المدرسين في سن مبكرة، في القرن 8هـ، عبد الله بن الشريف التلمساني (ت 792هـ) الذي استطاع أن يدرس في حياة أبيه بفاس وهو دون الأربعين من عمره[544]. ويظهر لنا مثال الحسن بن عطية التجاني المكناسي المعروف بالونشريسي الذي كان حيا، سنة 790هـ، الصعوبة التي يواجهها صغار السن في تقلد بعض المهام، فقد أبقاه أبو عنان المريني بعد أن قلص من عدد عدول مكناسة إلى عشرة، وشق ذلك على العدول المعفون لحداثة سنه، ورغم أنه قارب الأربعين، وأثاروا ضجة بسبب ذلك، فرفع قصيدة لأبي عنان يبرز فيها مؤهلاته[545].

ومن العادات الأخرى التي تراعى، الامتناع عن تدريس نفس المادة التي يدرسها شيوخهم، حتى وإن لمسوا في أنفسهم الكفاءة اللازمة لذلك، تأدبا معهم واحتراما لهم، مثل رفض أحد الأساتذة المشارقة، في القرن 4هـ، أن يسمع البخاري للطلاب بالأندلس في حياة شيخه أبي محمد عبد الله الأصيلي، وقال: "لا يراني الله أحدث به والأصيلي حي أبدا، فلما مات أسعف"[546]. وهذا محمد بن طلحة بن حزم الأموي (ت 618هـ) الذي استطاع بفضل نبوغه المبكر أن يتصدر للتدريس في حياة شيخه أبي بكر بن صاف، فامتنع عن إقراء التجويد توقيرا له وتأدبا معه[547]. وعلى العموم، يندر أن يدرس الطالب، في حياة شيوخه، نفس المواد التي يدرسها شيوخهم.

---

(543) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س. ص 254، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س1 ص445.
(544) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص150.
(545) نفسه، 107-108.
(546) القاضي عياض، ترتيب المدارك... م. س. ج 7 ص139.
(547) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س6 ص 236، س 8 ص 287.

أما اعتزال التدريس، فغير مرتبط بسن محددة، ولا يقرره إلا الطلاب وحدهم، فمادام المدرس قادرا على إفادة طلابه، فإنهم يواصلون الأخذ عنه، لذا كان جل المدرسين يدرسون إلى آخر يوم من حياتهم، وإن طال عمرهم إلى أن يصل 120سنة، مثل عبد الرحمان بن عفان الجزولي (ت 741هـ) "الذي طعن في السن وعمره أكثر من مائة وعشرين سنة، وما قطع التدريس حتى توفي"[548]. وحتى وإن ضعفت القوى الجسدية لبعضهم، ولم يعد قادرا على القيام وحده من حلقات دروسه[549]، فإن أمراض الشيخوخة لم تكن تحول دون مواصلة تدريسهم للعلم. فهذا أبو عبد له محمد ابن الرمامة الفاسي(ت 567هـ) اعتزل القضاء" وأقبل على نشر العلم والانتصاب لإفادته والجلوس للإقراء والسماع متحملا مشقة التدريس على كبر سنه رغبة في بث العلم وتحريضا وإعانة لملتمسيه"[550] وهذا أبو عبد الله المشهور باللخمي الفاسي (ت 794هـ)"جلس للإقراء بفاس مواظبا عليه صابرا محتسبا لله قرأ عليه خلق كثير حتى كبر وضعف وعجز عن خروجه فأقرأ بداره مدة ثم اشتد ضعفه فصار يقرئ في بعض الأوقات"[551]. ولكن حين يلاحظ الطلاب تراجع الصفاء الذهني والملكات العقلية لمدرسهم أمام زحف أعراض الشيخوخة وأنه "اختلط في أخر عمره" أو "خرف آخر عمره"، مثل أبي عثمان الصنهاجي (ت 789هـ) بسبتة [552]، فإنهم يتركون الأخذ عنه.

4- *مستوى عيش المتعلمين والأساتذة*

اعتاد جل المتعلمين أن يولوا الجانب المظهري بعض الاهتمام، خصوصا أنهم كانت لهم الإمكانيات اللازمة للتأنق في الملبس والمسكن والمركب. وقد تميز المتعلمون بارتداء اللباس الأبيض من برنس وعمامة، ولا يشاركهم في هذا اللباس إلا السلطان نفسه، كما في العهد المريني مثلا [553]. وعادة، لا تغفل كتب

(548) ابن القاضي، جذوة الاقتباس.. م. س. ص402.
(549) ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س. ص248.
(550) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص327.
(551) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. ص 173.
(552) مجهول، بلغة الأمنية... م. س. ص180.
(553) العمري ص 305. الونشريسي، المعيار المعرب... م. س. ج 12 ص 322.

التراجم أن تذكر حسن هيئة المترجم لهم، وجميل شارتهم، وتذكر مبالغة البعض منهم في ذلك، مثل عمر بن عبد الله الأغماتي (ت603هـ) الذي "كان بهيج المنظر جميل الهيئة ولا يلبس إلا البياض ولا يركب إلا الحجور الناصعة البياض فكان يتلألأ نورا على نور" (554). ومن الذين اشتهروا بالتأنق في لباس البياض أبو الحسن الصغير الذي كان يرتدي أحسن ثياب صنفه من العلماء والفقهاء(555)، وابن البناء المراكشي (ت721هـ) الذي كان شديد التأنق في ملبسه ومأكله ومسكنه(556). وكان المخزن يحرص على أن يتميز العلماء المشتغلون معه بلباس أنيق وغالي الثمن. وكان من عادة الحكام أن يمنحوا كسوة سنوية للطلاب تضم6 قطع، كما كان يفعل الموحدون مع طلبة الموحدين وطلبة الحضر(557)، وورث عنهم المرينيون تلك العادة. فهذا أبو عنان بعث، سنة 750هـ، ليوسف الأنفاسي"كسوة سنية تشتمل على برنس وبرد كلاهما أبيضان من صوف وإحرام للتردية ومنديل للتعميم ودراعتين ملونتين وقبطية سوسانية العمل قيمتها أزيد من مائة دينار من الذهب"ليتميز بها عن غيره(558). وفي مقابل هؤلاء الذين يشتغلون مع المخزن، كان هناك مدرسون لا يولون أهمية للباس والمظهر، ويعتقدون أن أحسن زي يرتديه هو العلم، فهذا أحد الأساتذة في سبتة، في منتصف القرن 8هـ، "كان لا يتحلى بحلية الطلبة من الارتداء وما في معناه، وكان يقول أي شيء يزيد هذا صاحبه أو فاعله إذا لم يكن لديه معرفة"(559). ومن المبتذلين في لباسهم وهيئتهم عبد الرحمان بن يخلفتن الفزازي المتوفى، أوائل القرن 7هـ(560). وكان من عادة المدرسين التزين قبل بداية الدرس، تعظيما لمجلس العلم، غير أن المغاربة لم يخصصوا لباسا معينا لحلقات الدروس في المساجد وغيرها، كما هو

(554)ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 8 ص 231.
(555) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 272، ابن فرحون، الديباج المذهب... م. س. ص212.
(556) أحمد بابا، نيل الابتهاج... م. س. 287، ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص 148.
(557) البيدق، المقتبس ص 59.
(558) ابن القاضي، جذوة الاقتباس... م. س. ص64، وهذه القطع الستة كانت معروفة لدى الموحدين ولدى الأغالبة.
(559) مجهول، بلغة الأمنية... م. س. ص 178.
(560) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س ج 8 ص83.

الشأن بالنسبة للأساتذة بمصر، في بداية القرن 8هـ[561]. ويتأنقون كذلك في مركوبهم، ويتخذون في الغالب، البغال والخيل، ويستنكفون من ركوب الحمير كعادة أعيان مصر. فعندما زار ابن سعيد المغربي مصر، في القرن 7هـ، قدم له حمار ليركبه فأنف "من ذلك جريا على عادة ما خلفته في بلاد المغرب. وأخبر أن ذلك غير معيب على أعيان مصر، وعاين الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها"[562]. وبصفة عامة لا يرى المتعلمون مترجلين، مثلهم مثل الأعيان.

خلاصة التعليم الاحترافي

يتضح، من خلال ما تقدم، أن أهم التطورات التي عرفها التعليم بالمغرب الوسيط تنحصر في أمرين أساسيين:

أ ـ الانتقال التدريجي من تعليم سابق، لا نعلم عنه الشيء الكثير، إلى تعليم عربي إسلامي في الفترة الممتدة من القرن1 إلى القرن 6هـ؛

ب ـ الانتقال من مرحلة تم فيها الاعتماد، بشكل كبير، على التمويل الذاتي للمتعلمين، قبل القرن 7هـ، إلى مرحلة اعتمد فيها تمويله، بشكل كبير، على الأحباس. وقد دشن ظهور المدارس هذه المرحلة سنة 635هـ، وقلدتها المؤسسات التعليمية الأخرى السابقة لها كالمساجد والجوامع والزوايا في هذا التوجه.

وترتب عن هذين التحولين، تغييرات أساسية في حضارة المجتمع المغربي آنذاك، أهمها ترسيخ الدين الإسلامي، من خلال عملية مثاقفة بين الحضارة المشرقية و الحضارة المغربية، دامت من القرن 2 إلى القرن 6هـ. وخلال هذه المرحلة، كان سكان المغرب ينخرطون تدريجيا في الصراع بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، كما يظهر من تدخل الدولة والأفراد، في العمليات الجهادية بالأندلس، كدارس بن إسماعيل الفاسي، وابن عشرة السلاوي[563]. ويرمز الرباط الذي قام بدور مهم في عملية الجهاد لهذه المرحلة. وفي نفس الفترة استطاع

(561) ابن الحاج، المدخل إلى تنمية الأعمال... م. س. ج 1 ص 151.
(562) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش... م. س. ج 9 ص 164.
(563) القاضي عياض، المدارك... م. س. ج. 6 ص81-84.

التعليم الإسلامي المعتمد على اللغة العربية أن يحل محل التعليم الموروث عن العصور السابقة. وعرف التعليم أثناء هذه المرحلة أقصى ازدهار له، وتميز بالتفتح والاجتهاد والتألق الفكري، رغم أنه كان يمول من طرف الطلاب بالاعتماد على إمكانياتهم المادية الذاتية.

وبعد أن اسلم جل المغاربة، في القرن 6هـ، والذي صاحبه تبنيهم التدريجي للنظم المشرقية، في الأسرة والقبيلة والنظام السياسي، ظهرت أزمة عامة ذات أبعاد سياسية واجتماعية ودينية، أدت إلى فتور وتراجع في النشاط التعليمي، كما حدث قبل ذلك بالمشرق، فاضطروا للحفاظ على هويتهم الإسلامية المهددة بتفوق الضفة الشمالية المسيحية التي تشدد الخناق عليهم شيئا فشيئا، بدءا بهزيمة العقاب سنة 609هـ وانتهاء باحتلال سبتة ستة 818هـ، إلى تمويل التعليم بالأحباس، فظهرت المدارس التي جعلت المرحلة الثانية من التعليم مجانية، غير أن ذلك لم ينقذ التعليم من الجمود والتراجع المتواصل. ويمكن أن يرمز لهذا التغيير الاجتماعي والتعليمي، بتحول الرباط إلى الزاوية التي اقتصرت على التعليم ولم تعد تهتم بالجهاد، كما كان الشأن في الرباط من قبل.

وفي نفس الوقت، بدأت الوضعية المادية للأطر التعليمية تتأثر، ابتداء من القرن7هـ إلى نهاية العصر الوسيط، بالأوضاع العامة للمغرب المتميزة ببعض الفتن والاضطرابات، فبدأت الإمكانيات المادية للبيوتات العلمية في التقلص، على غرار تقلص موارد بيت المقري السابق الذكر، وأخذت التجارة تختفي من ضمن الأنشطة التي يزاولها بعض المتعلمين، والتي كانت تساعدهم على الرحلة في طلب العلم، ولم نعد نصادف في كتب التراجم طلابا وعلماء تجارا، كما كان الشأن في القرون السابقة. وأصبحت مهامهم تقتصر على الوظائف الدينية والإدارية، ورغم أن فئة التجار كانت قد ساهمت إلى حد كبير في تقدم العلم والمعرفة من خلال الجمع بين التجارة والعلم والمتاجرة في الكتب، فإن دورها هذا، سيتقلص بعد القرن 7هـ. كما أن سوق العلم التي كان يروجها السلطان عرفت بدورها تراجعا، لانعدام دولة مركزية قوية، بعد وفاة أبي عنان.

كان التعليم مرتبطا بمحيطه الاقتصادي والاجتماعي، وموجها لسد حاجات معينة في المجتمع، وفي مقدمتها الحاجات الدينية التي تطلبها الرعية، في حين كانت حاجة الدولة تشمل، بالإضافة إلى العلوم الدينية، علوما أدبية وبعض العلوم البحتة التي تحتاجها في إدارتها كالمرسلات والتكسير والتدريب على الفروسية. فلم تكن أية فئة اجتماعية، باستثناء الحكام، تتخذ العلم وسيلة من وسائل عملها. غير أن ازدهار هذه العلوم الدينية والعقلية، كان يتطلب توفر حد أدنى من الاستقرار السياسي الضروري لخلق تراكم معرفي وتطوير العلم، وهو الشيء الذي لم يكن متاحا دائما بسبب التوترات الاجتماعية والتقلبات السياسية.

تلك هي أهم التحولات في مجال التعليم الإحترافي، فماذا عن التعليم الديني الشفوي للراشدين؟

الفصل الخامس

التعليم الديني للراشدين بالمغرب
من القرن الأول
إلى القرن السادس الهجري.

لا يمكن فهم تاريخ المغرب السياسي والحضاري، دون فهم الدور الذي لعبه التعليم الديني، فبواسطته تم إسلام سكان المغرب تدريجيا، وبواسطته تمت المحافظة على هويته الدينية طيلة العصر الوسيط. كما ساهم أيضا في رسم مسار التاريخ السياسي والديني للمغرب، وفي إحداث تغييرات فكرية وسياسية بالمغرب الوسيط، مثل قيام الدولة المرابطية التي كان وراءها رجال مارسوا التعليم مثل أبي عمران الفاسي، وگاگ بن زلو اللمطي، وعبد الله بن ياسين، ومثل الانقلاب السياسي والفكري الذي تزعمه الموحدون بالغرب الإسلامي بقيادة عالم، هو ابن تومرت بعد رجوعه من رحلته المشرقية. ومثل هذا الدور لا نجد له نظيرا في التاريخ المشرقي أو الأندلسي، كما لا يمكن فهم الأساس الديني للدولة بمعزل عن هذا النوع من التعليم، إذ تقوم بدور لا يختلف كثيرا عن دور الرباط أو الزاوية في هذا المضمار، كما سنوضح بعد حين.

أما مفهوم التعليم الديني (أو التربية الدينية)، فهو الذي يستهدف كافة المسلمين الراشدين من العامة والخاصة في دار الإسلام، مهما كانت وضعيتهم:

ذكورا وإناثا، أحرارا وعبيدا، عربا وعجما[564]. ويندرج مضمونه ضمن ما سماه الفقهاء فيما بعد "علم فرض عين"، ويقصدون به الحد الأدنى من المعارف الدينية الواجب على كل مسلم ومسلمة تعلمه ومعرفته[565]. ويرى أغلب الفقهاء، ومنهم ابن حزم الأندلسي، أن على الدولة أن تتدخل وتسهر على تعليم رعاياها المسلمين[566].

I - *الفتوحات والبدايات الأولى للتعليم الديني بشمال إفريقيا*

ظهر التعليم الديني مع ظهور الدعوة الإسلامية، وانتقل إلى الأقاليم المفتوحة، وكان يقوم به صنفان أول الأمر: القصاص والقراء. أما القراء فهم حملة القرآن والعارفون به. وعند ظهور الفقه في القرن 2هـ حل محلهم الفقهاء والعلماء[567] والمتصوفة فيما بعد، فعنهم كان يؤخذ الدين وكان الناس يستفتونهم فيما أشكل عليهم من أمره. وتركز هذا التعليم أساسا في الرباطات الأولى التي بناها الفاتحون، كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان أول رباط في شمال إفريقيا سنة 50هـ [568]، وفي المساجد الأولى التي بنيت بالبلاد المفتوحة. وأما ما تذكره بعض المصادر المتأخرة أن عقبة بن نافع ترك صاحبه شاكر سنة 62هـ لتعليم البربر بالمغرب الأقصى على نهر تانسيفت[569]، فهو أمر مستبعد تاريخيا، ولا ينسجم مع تطور الأحداث التاريخية اللاحقة، كما أن المصادر تعده ابن المنطقة وينتمي لقبيلة ركراكة، واسمه شاكر بن يعلى بن واصل الركراكي، وتجعله متأخرا عن القرن الأول[570].

فالتعليم الديني لم يبدأ حقيقة، بشمال إفريقيا، إلا في عهد الوالي حسان بن النعمان(73-86هـ) وموسى بن نصير(86-96هـ) ففي سنة 82هـ اشترط حسان

---

(564) الغزالي، إحياء علوم الدين، نشر دار الرشاد الحديثة، بدون تاريخ، ص 15.
(565) نفسه، ونفس الصفحة.
(566) المنوني، منهجية التعليم في الإسلام، مجلة دعوة الحق، السنة 19 عدد 1 يناير 1978 ص 13-14.
(567) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة... م. س. ص 798-799، 1048.
(568) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب... م. س. ج 1 ص 19.
(569) نفسه، ص27.
(570) العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 10 أجزاء. ط. المطبعة الملكية - الرباط 9 ص 310.

بن النعمان على البربر أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدته اثنا عشر ألف يجاهدون العدو، فأجابوه لذلك، وجعل على قيادة هذا العسكر ابني الكاهنة، وعهد بمهمة "تعليمهم القرآن ومبادئ الشريعة" إلى ثلاثة عشر من التابعين[571]. ولما فتح موسى بن نصير المغرب الأقصى قبض رهائن المصامدة وجعل قيادة تلك الجيوش لمولاه طارق بن زياد سنة 85هـ، وترك بطنجة مع هذا الجيش17 رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام[572]، وكان ضمن هؤلاء الرهائن مزادنة ملك السوس وأولاد الكاهنة[573]. غير أن الإسلام لم يترسخ بعد حتى بين الموالي (أي المتحالفين مع الفاتحين)، مما جعل البربر يرتدون 12مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم تستقر كلمة الإسلام عندهم إلا بعد فتح الأندلس والجواز إليها، حسب أبي زيد القيرواني[574]. لكن المرحلة المهمة التي بدأ الإسلام يترسخ فيها بين الموالي، كأقلية محدودة بالشمال الإفريقي، هي فترة حكم عمر بن عبد العزيز (99-101هـ)، والتي كانت فترة قصيرة جدا، ولكنها كانت حاسمة في تبني الإسلام بصفة لا رجعة فيها، نظرا لأن هذا الخليفة، كان من أنصار إدماج الموالي بإعطائهم بعضا من الامتيازات التي كانت حكرا على الفاتحين وحدهم إلى ذلك الحين، وهو ما يفسر اختياره لأحد الموالي لولاية إفريقية وهو إسماعيل بن أبي المهاجر دينار سنة 100هـ الذي "مازال على دعاء البربر حتى أسلم بقية البربر على يديه. **وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام**"[575]. وينسب ابن عذاري لعمر بن عبد العزيز أنه أرسل مع الوالي الجديد عشرة من التابعين وهم الذين بينوا لأهل لإفريقية تحريم الخمر[576].

---

(571) ليفي بروفنصال، نص جديد عن فتح المغرب لعبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني سنة 1954 ص 223 ص223، انظر عن عادة أخذ الرهائن والهدف منها اسكان الحسين، الدولة والمجتمع في العهد الموحدي (515-668هـ)، مرقونة بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس سنة 2001 ص 249.
(572) ابن عذاري، البيان المغرب... م، س، ج 1 ص41.
(573) نفسه ص44-45.
(574) الناصري أحمد السلاوي، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، ط. دار الكتاب الدار البيضاء 1954 ج 2ص 188 ج 1 ص 100-136.
(575) نفسه ص48.
(576) نفسه ونفس الصفحة.

وتذكر كتب الطبقات لائحةً بأسماء هؤلاء[577]، و كان يوجد ضمنها أربعة من الموالي، واثنان من قضاة الجند، والمفتي، مما يعني أن المتعلمين كانوا من الموالي والرهائن الذين كانوا جندا. والملاحظة الثانية، أن جل هؤلاء العشرة كانوا مستقرين بالقيروان، قبل عهد عمر بن عبد العزيز، وظلوا بالقيروان حتى وفاتهم، مما يعني أن نشاط هؤلاء، تزايد في عهد عمر بن عبد العزيز، وانتفع بهم أهل إفريقية. وأصبحت القيروان مقر الجيوش الإسلامية العربية والقبائل الأمازيغية المتحالفة معهم، هي المقر الأساسي للتعليم الديني، بين سنوات 85-122هـ، تليه أماكن ثانوية حيث ترابط الحاميات العسكرية كمدينة طنجة[578].

وكان التعليم، خلال هذه المرحلة، مقتصرا على الموالي فقط، ولم يمتد بعد إلى الجماهير الواسعة التي ظلت على ديانتها القديمة. لكن سرعان ما تعرض رغم محدوديته لنكسة في بدايته، إذ إن الوجود الإداري الأموي لم يعمر طويلا بالمغرب الأقصى ولم يتجاوز الأربعين سنة (85-122هـ)، لأن ثورة البربر بزعامة ميسرة المظغري، 122هـ، أدت إلى فرار أغلب العرب المستقرين بشمال المغرب الأقصى، إما إلى إفريقية أو الأندلس، مع ما ترتب عن ذلك من نقص في الأطر الدينية اللازمة لاستمرار التعليم بالمغرب الأقصى، بل إن المستفيدين الأوائل من الموالي من هذا التعليم، انتقلوا مع الفاتحين للأندلس، مثل بيت الفقيه يحيي بن يحيي وسلاسن الليثي المصمودي. لهذا ظل التعليم الديني للمغاربة ناقصا مقارنة بإفريقية وبالأندلس[579]، وهو ما يفسر الانحرافات المذهبية التي ظهرت بالمغرب، كمذهب برغواطة بتامسنا، أو ديانة حاميم بالريف، في القرن الرابع الهجري. ويفسر سبب اتهام سكان قبيلة بجبال درن

---

(577) المالكي أبو بكر عبد الله، كتاب رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان1981. ص99-117، أبو ضيف مصطفى، أثر القبائل في الحياة المغربية. ط. دار النشر المغربية، 1986. ص 93-94.

(578) ابن خلدون عبد الرحمان الحضرمي، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المقدمة منه من طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979، أما الجزء 6 و 7 فمن طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت-لبنان 1979 ج 6 ص 283.

(579) يرى خلدون أن دولة الأدارسة عند البربر "لا تعد فيهم عربية، لأن البربر هم الذين تولوها" المقدمة... م. س. ص659-658.

(الأطلس الكبير) بعبادة الكبش، في القرن 5هـ[580]. لقد كان على سكان المغرب أن يتعلموا الإسلام بالاعتماد على أنفسهم فطال أمد تعلمهم، وتعلموه تدريجيا بواسطة الرباطات حتى مطلع القرن السادس الهجري، أو بواسطة الكيانات السياسية التي ظهرت بين القرنين 2و 6هـ.

2- دور الرباطات في التعليم الديني حتى القرن 6هـ

قامت الرباطات، منذ ظهورها أواخر القرن 2هـ إلى بداية القرن السادس الهجري، بدور أساسي في تعليم الدين الإسلامي وترسيخ مبادئه بشمال إفريقيا، كما قامت بالحسبة وبالجهاد ومحاربة المذاهب المنحرفة بالسيف[581]. وكان الجهاد المسلح للدفاع عن دار الإسلام من بين المبادئ التي تقوم عليها الرباطات. ومن أدوارها الأساسية كذلك، محاربة أصحاب المذاهب المنحرفة عن المذهب السني، شأن الرباطات الأولى المبنية، على سواحل شمال إفريقيا، والرباطات المحيطة ببرغواطة شمالا وجنوبا، كرباط شاكر على نهر تانسيفت الذي كان يحتفظ فيه، إلى سنة 627هـ، بطبل بانيه يعلى بن يمصلين الرجراجي الذي حارب برغواطة[582]، أو رباطات شالة في شمال برغواطة. وأما المحاربون لها فسموا ركراكة، ومنها اسم نهر بوركراگ المشتق من البركة[583]. ومن الرباطات التي تبنت هذا المبدأ، رباط عبد الله بن ياسين، في النصف الأول من القرن 5هـ، ورباط ابن تومرت، في أوائل القرن 6هـ. لذا أولت حركة المرابطين والموحدين عناية كبرى للجهاد، سواء الداخلي أو الخارجي، خاصة بالأندلس.

---

(580) انظر اسكان الحسين، الدولة والمجتمع في عصر الموحدين، مرقونة بكلية الآداب ظهر المهراز – فاس ص 35.

(581) انظر حول ظهور الرباطات وانتشارها الجغرافي بشمال إفريقيا ووظائفها المتعددة اسكان الحسين، الدولة والمجتمع... م. س. ص38-50.

(582) ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1984، ص 52.

(583) التوفيق، من رباط شاكر إلى رباط أبي محمد صالح، مقال ضمن أبي محمد صالح، المناقب والتاريخ، منشورات كلية الآداب الرباط، 1990 ص50.

لم يقتصر دور تلك الرباطات على العمليات الجهادية فقط، بل كان لها دور تعليمي تربوي، إذ شكلت الرباطات مركزا لنشر الإسلام والتعليم الديني، يجتمع فيها العاملون على ترسيخ مبادئ الإسلام، سواء بتعليم العلوم النظرية كالفقه، أو التربية الصوفية عن طريق القدوة الحسنة التي يعطيها الشيخ، أو بواسطة وعظ المريدين والعامة. ومعلوم أن الطريقة البيداغوجية في الرباط، كانت مخالفة لطريقة تدريس العلوم في المساجد والمدارس التي ظهرت فيما بعد القرن 6هـ، لأنها بيداغوجية تطبيقية عملية، تستهدف تغير السلوك والأخلاق أكثر من الاعتماد على نشر المعرفة النظرية فقط. وللاطلاع على دور الرباطات بالمغرب الأقصى، سواء في التعليم والتربية أو الجهاد أو الحسبة، ومنهجها التربوي والتعليمي، ننظر في نموذج رباط عبد الله بن ياسين، ورباط ابن تومرت بهرغة.

اتخذ عبد الله ابن ياسين، بعد ثورة القبائل الصنهاجية عليه بسبب ثقل شرائع الإسلام عليها، رباطا في جزيرة غير آهلة ببلاد قبيلة ݣدالة[584] ونظمه على طريقة رباط أستاذه وݣاگ بن زلو، على ساحل البحر بالقرب من مدينة تزنيت الحالية، و بناه لطلبة العلم، ولكن كذلك **"للدعاء إلى الخير"**. وفيه تفرغ عبد الله ابن ياسين للعبادة هو ويحيى بن عمر مع سبعة رجال من ݣدالة. وقد حذا في تنظيم حياة نزلائه - وأغلبهم من الراشدين- حذو ربط المغرب وإفريقية في هذا المجال، فوضع شروطا للانخراط في الرباط تطبق على كل من انخرط فيه طوعا أو كرها، كما وضع قوانين وقواعد يخضع لها جميع النزلاء، لضمان التسيير الجيد للرباط وتغيير سلوك المريدين.

فمن شروط الانخراط، إعلان التوبة. والتوبة كما هو معلوم من المفاهيم الأساسية لدى الصوفية وهي أول مراتب التصوف ومقاماته. ولا يكفي الإعلان الشفوي عنها، بل على المنخرط أن يطهر نفسه وذاته من الذنوب التي اقترفها في الماضي، بأن تقام عليه حدودها، فيجلد 100 سوط على الزنى، وما يجب على

(584) اختلفت القدماء والمحدثون حول مكان هذا الرباط انظر حول هذه الأماكن المحتملة، عصمت دندش، حول رباط عبد الله بن ياسين، مجلة المناهل عدد 11 السنة الخامسة مارس 1978م ص 354-365.

شرب الخمر، وعلى الافتراء وغير ذلك من الحدود الشرعية. وعليه كذلك أن يطهر ماله المختلط من المال الحرام بإخراج ثلثه ليحل له الباقي. وهذه كذلك قاعدة متعارف عليها لدى بعض الصوفية المغاربة طيلة العصر الوسيط[585]، وقد انتقد الفقهاء عبد الله بن ياسين في هذه المسألة، إذ رأوا أن حكمه فيها مخالف للمذهب المالكي واتهموه بالجهل[586]. ومن الشروط أيضا، فرض أداء صلاتين إذا دخل وقت كل صلاة من الصلوات الخمس. والهدف من ذلك أن يتمكن المنخرطونِ من أداء الصلوات التي تكون قد فاتتهم قبل توبتهم.

ويتضمن القانون الداخلي للرباط، فرض عقوبات مختلفة، أغلبها عقوبات جسدية، عن المخالفات التي يرتكبها النزلاء، منها ما يتعلق بالتأخر عن أداء الصلاة مع الجماعة في وقتها، وتتمثل العقوبة في 5 سياط عن كل ركعة، مما يعني 20 سوطا لمن تأخر عن صلاة بكاملها، مما جعل الكثير منهم يصلي بغير وضوء إذا حان الوقت وأعجلهم الأمر خوفا من الضرب، وفي عدد معين من السياط لمن رفع صوته في مسجد الرباط، وغير ذلك من المخالفات. أما من ارتكب جريمة القتل فعقوبته القتل، وذلك لخلق الانضباط داخل الرباط.

ويشترط على النزلاء، التزام الزهد والتقشف والورع، قدوة بشيخهم عبد الله بن ياسين الذي كان يتجنب أكل طعام قبائل صنهاجة "فكان طول إقامته فيهم لا يأكل شيئا من لحمانهم ولا يشرب من ألبانهم، فإن أموالهم كانت غير طيبة لشدة جهلهم"، وكان يكتفي بالصيد[587].

أما التعليم، فكان مقتصرا، في أغلبه، على تعليم أركان الإسلام الأساسية، كالصلاة والزكاة ومعرفة الحلال والحرام، وحفظ ما تصح به الصلاة كالوضوء والفاتحة وبعض الآيات القرآنية، والاستماع إلى التذكير والوعظ باللغة الأمازيغية،

(585) عن حكم الأموال المختلطة لدى المتصوفة، انظر، التادلي، التشوف... م. س. ص 229، الماجري أبو أحمد بن إبراهيم – المناهج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح. ط 1 بمصر 1933م ص 258.
(586) البكري، كتاب المغرب... م. س. ص 168-169، ابن أبي زرع الفاسي، القرطاس ص125، ابن عذاري، البيان المغرب... ص. ج 4.
(587) الناصري، الاستقصا... م. س. ج 2 ص 18، ابن أبي زرع، روض القرطاس... م. س. ص 132، لاحظ مصطلح الدراهم الطيبة لدى المتصوفة في عدد من المصادر ومنها التشوف مثلا.

إذ نعلم أن" يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي"[588] رغم أنه كان من المريدين الأوائل الملازمين لهذا الرباط.

ويمكن أن يستخلص من هذه النظم ومن نوعية التعليم، أنه كان تعليما صوفيا، كما هو معروف، في القرن الخامس الهجري وما بعده. فعبد الله بن ياسين، يعد شيخ تربية أكثر منه فقيها مالكيا، وليس من قبيل الصدفة أن يتهمه الفقهاء المالكيون بالذات بجهل أحكام الفقه في عدة أمور، ومنها تطييب المال المختلط بالكسب الحرام عن طريق إخراج ثلثه[589]. وبعد أن تزايد أتباعه دعاهم للجهاد المسلح لنشر الدين الإسلامي جنوب الصحراء ومحاربة برغواطة شمالها.

هكذا دشنت الرباطات ببلاد المصامدة دينامية دينية وسياسية، استطاعت أن تحارب المنحرفين كبرغواطة، ثم أدت، بعد ذلك، إلى قيام الدولة المرابطية التي اعتمدت على أهم وأول مبادئ الرباط وهو جهاد عدو الإسلام، والدعوة إلى السنة، أو إلى ما يسمى في المعجم اللغوي للرباطات، بالحق والقيام به أو الدعاء إلى الخير[590]. ونلاحظ هذه الدينامية في سلسلة شيوخ هذه الرباطات، وأولهم عبد الله بن تيسييت متزعم حرب برغواطة الذي كان شيخا لوكاگ بن زلو، وكان هذا الأخير شيخا لابن ياسين، وقد انتقد ابن خلدون ما كانت تدعيه قبيلة كدالة في عصره من أنهم ينحدرون من رباط ماسة أو قائمون بدعوته، وأكد أن ذلك زعم لا مستند له[591]. لكن الأحداث ومصادر أخرى تؤكد ذلك[592].

وفي سنة 515هـ، ظهر رباط أخر أقامه ابن تومرت بهرغة المشهورة برباطها بإيكلي، والقريبة جدا من رباط ماسة، ومن رباط وكاگ.

---

(588) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج 6 ص111، ومنشور كذلك في البيان المغرب ج 4 ص 113.

(589) البكري، كتاب المغرب... م. س. ص 169، ابن عذاري، البيان المغرب... م. س. ج 1 ص 16، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب.م. س. ص 132.

(590) انظر تحليل هذا المفهوم عند ابن تومرت، ضريف محمد " تاريخ الفكر السياسي بالمغرب... ص150.

(591) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص 583، وعن عبد الله بن تيسييت، التشوف... م. س. ص 52.

(592) مجهول، كتاب مفاخر البربر، نشره محمد يعلى ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996 ص 213.

أنشأ ابن تومرت رابطة ونسري، بجبل إيگليز بقرية تعرف حاليا بتفگيت في هرغة[593]، وفي موقع منيع، "لأنه مكان لا يصل إليه أحد إلا من طريق لا يسلكها إلا راكب بعد راكب يسد خللها أقل عصبة من الناس لما فيها من التوعر"[594]. وفي رباط هذا الحصن انهال عليه المصامدة من كل حدب وصوب. وتركز نشاطه في هذا الرباط على قضيتين أساسيتين، هما: التعليم والتربية، والأمر بالمعروف والجهاد على ذلك، والدعوة إذ كان يرسل أتباعه إلى القبائل المصمودية [595].

كانت التعليم مركزا على تعليم المريدين أركان الإسلام والدعوة لعبادة الله، كما في باقي الرباطات، مع اختلاف واحد، هو التركيز على أول أركان الإسلام ومبدأ التوحيد المتضمن في الشهادتين، إذ "كان أول ما دبر بهم أمرهم أنه ألف لهم كتابا سماه التوحيد باللسان البربري، وهو سبعة أحزاب" على أيام الأسبوع يقرؤونه بعد صلاة الصبح مع حزب من القرآن [596]. وقد أصبح هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز[597]. كما لا تختلف طريقة التربية، برباط هرغة خلال ثلاث سنوات (515 ـ 518هـ)، كثيرا عما شاهدناه في رباط عبد الله بن ياسين، إلا في تشددها وصرامتها الزائدين، وفي بعض الجزئيات الأخرى، إذ لم يكتف ابن تومرت بوضع قوانين متشددة وعقوبات زجرية صارمة لمن خالفها، كتلك التي وضعها عبد الله بن ياسين من الضرب والتعزير بالسياط فقط، بل فرض القتل في 18مخالفة، منها الكذب ومنها المداهنة على الأقارب أو الأصدقاء، ومنها ترك امتثال الأوامر، ومن تخلف عن الحضور أدب بالضرب بالسياط مرة ومرتين، وفي الثالثة يقتل. في حين لم يفرض سابقه ابن ياسين

---

(593) عن هذه القرية التاسافتي، رحلة الوافد... م. س ص186، ويدعى أهل القرية الآن أنهم شرفاء قدموا من نواحي سيدي بوعثمان الحالية ربما يقصدون السراغنة، و لهذا المكان علاقة بلقب اسرغن دون شك، وينبغي التحقق من مكان الرباطين وتحديد مكان ولادة ابن تومرت.

(594) مجهول، الحلل الموشية... م. س ص 102 ابن القطان، نظم الجمان... م. س ص 82-85-84-86، 91، عنان محمد، عصر المرابطين والموحدين... م. س ق 1 ص 178.

(595) البيدق، أخبار المهدي... م. س ص 94.

(596) ابن القطان، نظم الجمان... م. س ص. 27-26، 127 الناصري، الاستقصا... م. س ج 2 ص 83، مجهول، الحلل الموشية. م. س. ص 109، النجار 124-125.

(597) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب... م. س. ص 177، الناصري، الاستقصا... م. س ج 2 ص 90.

القتل إلا في قضية واحدة فقط. وهكذا يظهر أن رباط هرغة كان أكثر تشددا من رباط عبد الله بن ياسين في عقوباته الزجرية، التي اعتبرها البعض مخالفة للشرع، لأنها سفك للدماء من غير مبرر شرعي[598].

وكان يشترط، بدوره على المنخرط، أن يتوب عن أفعاله السابقة، كما لدى عبد الله بن ياسين في رباطه، ووضع ابن تومرت مقالة في موضوع التوبة وشروطها[599]، ولم يكتف لترسيخ قواعد الدين الإسلامي، بالوعظ والتذكير، بل وضع مؤلفات تربوية سهلة بالعربية والأمازيغية لأتباعه ودرسها لهم بالأمازيغية، وزاد على ذلك بأن جعل على أصحابه وظيفا يوميا، يتمثل في قراءة حزب من القرآن، وحزب من التوحيد بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العشاء، سواء في حلهم أو في ترحالهم. وقد عمم الموحدون هذه الظاهرة الفريدة في العالم الإسلامي بفرضها على مجموع الغرب الإسلامي، وهكذا أحدث ابن تومرت الوظيف، مثل الوظيف المعروف في الطرق الصوفية ابتداء من أبي محمد صالح الماجري، في النصف الأول من القرن السابع الهجري. وكان أتباعه يكثرون من "الإكثار من ذكر الله، وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم"، كما حدث في الغزوة الثانية للمهدي، سنة 518هـ[600].

أما طريقة تعليمه للراشدين، فمبتكرة وطريفة تنم عن بيداغوجية أصيلة، إذ كان يقوم بنفسه على تعليمهم أو يستعين بأعيان أصحابه، وقسم المتعلمين إلى مجموعات تتكون من 10أشخاص يتكلف نقيب بتعليمهم على الطريقة التي ذكرها الناصري لتحفيظ الفاتحة لمن صعب عليه حفظها لشدة عجمة لسان المصامدة، "إذ عدد كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلا، فصفهم صفا وقال لأولهم:

---

(598) ابن القطان، نظم الجمان... م. س ص26-29، الشاطبي أبو إسحاق اللخمي، الاعتصام، تحقيق محمد رشيد رضا. ط. المكتبة التجارية الكبرى - مصر ص 205-206، عنان محمد، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس... م. س ج 2 ص 174-175.

(599) انظر تحليل النجار لمعنى التوبة عند ابن تومرت، المهدي بن تومرت .. 261، وانظر البيدق، أخبار المهدي م. س ص 12 كيف استتاب سارقا في قسنطينة وبين له شروط التوبة، عن التثويب الحسيسن عبد الهادي، مظاهر النهضة الحديثية ... م. س. ص 167 نقلا عن الشاطبي.

(600) البيدق، أخبار المهدي... م. س ص 35.

اسمك الحمد لله، وللثاني رب العالمين، وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة. ثم قال لهم: لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا الأسماء على نسقها في كل ركعة، فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن"[601]. وربى أصحابه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الانضباط للأوامر، وعلى الطاعة المطلقة للشيخ كما لدى عبد الله بن ياسين، بل وصل الأمر بأتباعه إلى أنهم كانوا "يستحون من رفع رؤوسهم نحوه حتى يأمرهم" [602]. ولو أمرهم بقتل أقاربهم لفعلوا دون تردد، كما لدى أتباع عبد الله بن ياسين[603]. وستتعزز هذه الطاعة المطلقة أكثر في تينمل، حين سيصبح ابن تومرت إماما معصوما ومهديا، لا تقبل قراراته النقاش أو النقد، وإلا تعرض المنتقد أو المتشكك للقتل، مثل الشيخ الأفريقي من أهل العشرة الذي قتل وصلب، حين أنكر على المهدي قتل أهل تينمل سنة 519هـ[604]، كما أخذهم بالتقشف والزهد في حياتهم، "والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن"[605]، ونهاهم عن التخاطف فيما بينهم على الدنيا[606]. كما رباهم على الأخوة الصوفية، وكان أتباعه يسمي بعضهم البعض بالأخ، مثل قول المهدي لعبد الواحد الشرقي الذي كانت له بغلة "ركب أخاك وامش" يقصد عبد المومن، ومثل مخاطبة إسماعيل إكَيكَ للمريد يللتن بكلمة "يا أخي"برباط الغار من هرغة[607]. وبعد استقراره بمدينة تينمل آخى بين أتباعه، ومنع عليهم الاقتتال بينهم[608].

ويمكن، على ضوء السياق التاريخي المتقدم، فهم محتويات كتاب "أعز ما يطلب."فهما تاريخيا، إذ نجد فيه من التعاليم والمبادئ التي نجدها في الرباط، مثل الحرص على تعليم أركان الإسلام. وما التوحيد إلا تفصيل وتركيز على أول

---

(601) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب... م. س ص 177، الناصري، الاستقصا... م. س ج 2 ص 94.
(602) ابن القطان، نظم الجمان... م. س. ص 84.
(603) المراكشي، المعجب... م. س ص 280-281.
(604) ابن القطان، نظم الجمان... م. س ص97، النجار، المهدي بن تومرت.. م. س ص 126-127.
(605) ابن الأثير، الكامل في التاريخ... م. س 8 ص296.
(606) البيدق، أخبار المهدي... م. س ص41.
(607) نفسه، ص18، 33، أنظر عن عقد المؤاخاة بين الأفراد والقبائل ابن القطان، نظم الجمان م. س ص 97، الناصري، الاستقصا م. س ص 80، النجار، المهدي بن تومرت.. م. س. ص. ص 127.
(608) المراكشي، المعجب.. م. س ص 281، النجار، المهدي بن تومرت... م. س. ص. م. س. ص126.

تلك الأركان، وهي الشهادة على وحدانية الخالق، كما أفرد فصلا للصلاة، وآخر للطهارة، وثالثا لتحريم الخمر، وخصص قسما منه للمواعظ والأقوال المأثورة في الجنة والنار، ثم الدعاء والابتهال، وأنهاه بباب الجهاد[609].

يتبين من خلال التربية في الرباطات وغيرها، أن المجتمع تبنى العنف والضرب كعقاب تربوي، وينطبق الأمر نفسه على المجالات الأخرى، كمجال الأسرة أو مجال تعامل الدولة مع الرعية.

إذا كان هذا هو دور الرباطات في التعليم الديني، فما هو دور الدولة المنبثقة عن الرباط في ذلك؟

3- دور الإمارات والدول في التعليم الديني، نموذج الدولة الموحدية

كانت جل الكيانات السياسية التي ظهرت، خلال الفترة المذكورة، تحاول أن تقوم بمهام الرباطات، إذ تعمل على تعليم الإسلام ونشره، لأنها تعتبر ذلك جزءا من مهامها الأساسية. فإذا كان الإسلام لا يعترف بطبقة كهنوتية تحتكر مهمة تحديد العقيدة والحفاظ عليها، فلأن الدولة كانت تقوم مقامها ومكلفة بذلك، واعتبر الفقهاء أن الدولة ملزمة بالسهر على تعليم رعاياها، فالخليفة، حسب ابن خلدون، "مأمور بتبليغ التكاليف الشرعية وحمل الناس عليها"[610] وينوب عن الرسول(ص) في "**حفظ الدين، وسياسة الدنيا به**"[611]، ومن بين وسائل ذلك، تعليم الرعية. ويوضح ابن حزم دور الدولة، في هذا الشأن بقوله : "ويجبر الإمام الأزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواما لتعليم الجهال"[612]. ومن ضمن اختصاصات الخلفية خمس خطط دينية منها، ثلاث مرتبطة بتعليم الإسلام داخل دار الإسلام والدفاع عنه خارجها، وهي: الفتيا

---

(609) النجار، المهدي بن تومرت... م. س. ص 146-156، وابن تومرت، أعز ما يطلب... طبعة أبو العزم ص 412-479، عنان محمد، عصر المرابطين والموحدين... م. س ج 1 ص 210-215.

(610) بن خلدون، المقدمة... م. س. ص286.

(611) نفسه 339، 386.

(612) المنوني محمد، منهجية التعليم في الإسلام، مجلة دعوة الحق، السنة 19 عدد 1 يناير 1978 ص16.

والحسبة والجهاد[613]، لذا كانت الدولة تعين المفتين، وتحارب الفرق الضالة بواسطة المحتسب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالأمر بالصلاة، ليس عن طريق تعيين المحتسبين فحسب، ولكن بإصدار رسائل رسمية من طرف الأمير أو الخليفة الذي يأمر فيها ولاته وأعوانه بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وتظهر الوقائع التاريخية اهتمام الحكام بالغرب الإسلامي بالتعليم الديني لرعاياهم، منذ الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري إلى نهاية العصر الوسيط، ومن ذلك قادة الكيانات السياسية التي ظهرت بالمغرب الأقصى كإمارة الحميريين في نكور، والمدراريين في سجلماسة، والأدارسة بفاس وكدول المرابطين والموحدين والمرينيين. جاء في خطبة المولى إدريس لقبيلة أوربة: "وأعلموا عبد الله أن ما أوجب على أهل طاعته، المجاهرة لأهل عداوته ومعصيته باليد واللسان، فباللسان الدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة والنصيحة والحض على طاعة الله، والتوبة عن الذنوب بعد الإنابة والإقلاع والنزوع عما يكرهه الله، والتواصي بالحق والصدق والصبر والرحمة والرفق، والتناهي عن المعاصي كلها، **والتعليم والتقديم لمن** استجاب لله ورسوله حتى تنفذ بصائرهم وتكتمل وتنتظم"[614]. ولكي لا نطيل في تتبع الأحداث التاريخية المتعلقة بدور كل إمارة أو دولة في التعليم الديني، من القرن 2 إلى القرن 6هـ، نكتفي بنموذج الدولة الموحدية التي انبثقت من الرباط وستحاول أن تقوم بدوره.

حرص المهدي على طبع الكيان السياسي الذي أسسه بتينمل، سنة 518هـ، بالطابع الديني التصوفي البدوي، كما عرفه في بيئة الرباطات السوسية. وتلونت سياسة الدولة الموحدية بالمذهب التومرتي في زهده، وفي موقفها من كتب الفقه وتدريسه، وفي نظمها وتنظيماتها، وبالأخص في تقاليد الحركة العسكرية، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبعبارة أخرى، حاولت الدولة الموحدية أن تقوم بالوظائف التي كان يقوم بها الرباط وجل المتصوفة ببلاد المصامدة، من تعليم لسكان إمبراطوريتها بمختلف شرائحهم الاجتماعية، ومن أمر بالمعروف

(613) بن خلدون، المقدمة... م. س ص387-400.
(614) حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ. دار الشاد الحديثة. ط 2 سنة 1984 ج 1 ص 424-425.

ونهي عن المنكر، وحمل الناس على أداء الشعائر الدينية وإجبارهم على أداء الصلاة في وقتها، والقيام بالجهاد. وهذه بعض المظاهر الدينية في الدولة الموحدية [(615)].

أ - العادات الدينية في نظم الدولة

يتجلى الطابع الديني للدولة الموحدية في العادات الخاصة بالحركة العسكرية، إذ يُفْتَتَح الاستعداد لها بعادة زيارة الخليفة، برفقة أعيان الموحدين، قبيل انطلاق الحركة، لقبر المهدي قصد التبرك به، وهناك كانت تعقد الأعلام لفرق الجيش[(616)]، ومنها عادة جمع الأحاديث الواردة في فضل الجهاد وحفظها كما حدث في عهد يوسف[(617)]. أما العوائد الدينية أثناء تنقل الحركة فمنها: عادة نداء البراح الذي ينبئ بانطلاق المحلة بقوله: "الاستعانة بالله والتوكل عليه"، وهي عبارة تحيل على التواكل كما لدى المتصوفة. ومن هذه العوائد أيضا، تدشين الرحلة اليومية وختمها بدعاء الخليفة شخصيا للمسلمين والوزير يؤمن. والعادة الثالثة المهمة، هي قراءة حزب قرآني، أثناء سير الحركة، مع شيء من الحديث وتأليف المهدي في العقائد باللغتين العربية والأمازيغية ويسهر على ذلك 50 من طلبة الموحدين، ويلزم الجميع بقراءتها في المحلة أثناء توقفها، كما فعلت القبائل الموحدية، في إحدى المناسبات أيام عبد المومن، حين أخذت كل طبقة وبصوت عال، بالقراءة والتعلم ومدارسة التوحيد، وحفظ ما تقام به الصلاة من القرآن[(618)]. والعادة الرابعة، هي التبرك بتقديم مصحف عثمان أمام موكب الحركة وهو موضوع في أغشية من الفضة والذهب والحرير المزخرف بأنواع الجواهر والياقوت ومحمول على هودج على جمل أبيض ومعه أعلام ملونة، ويليه موطأ المهدي على ظهر بغل أبيض، ثم أضيفت، في أواخر الدولة على عهد

---

(615) انظر عن الصبغة الدينية في الحكم الموحدي ما كتبه النجار، المهدي بن تومرت... م. س. ص386-396.

(616) ابن عذاري، البيان المغرب... ق. الموحدين، م. س. ص407.

(617) المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. نشره محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي. ط دارا لكتاب. ط السابعة 1978 ص369.

(618) رسائل موحدية. ص 53-54.

المرتضى، بقية الكتب الحديثية الصحيحة الستة[619]. وأخيرا، الحرص على أداء الصلوات، تقصيرا في السفر وتطويلا عند التوقف في الحضر، ولا يسمحون لأحد بالتخلف عن صلاة الجماعة مما يظهر مرة أخرى حرصهم الشديد على الانضباط. وإذا اجتمعت المحلة في مكان واحد تصلي بإمام واحد[620]، بل إنهم كانوا لا يعطلون ولا يؤخرون الصلاة عن وقتها حتى أثناء بعض معاركهم أحيانا[621].

هكذا تصبح الحركة أداة للتربية الدينية، والإعداد النفسي للمجاهدين، أي أننا أمام رباط متنقل، كما تتحول إلى مناسبة لإبراز أيديولوجية الدولة من خلال استعراض بعض رموزها. فقد علق ابن عبد المالك المراكشي على موكب الحركة كما شاهدها في طفولته، على عهد المرتضى وأبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المومن، والتي يتقدمها العلم الأبيض والمصحف المذكور، قائلا :"وكأن لسان حال هذه الهيئة يقول إن هذه الراية منذرة بإطلال صاحبها على مقصوده، وأنه داع إلى ما يقتضيه الكتاب والسنة، فمن أطاعه كان مسالما له، ومن عصاه حاربه بهذا الجيش الذي هو من حزبه"[622]. ويظهر الطابع الصوفي كذلك في استعمال مصطلحات المتصوفة في لغتها الإدارية مثل إطلاق مصطلح "البركة"الصوفية على العطاء النقدي للجند بدل مصطلح الراتب أو الجامكية المتداول لدى الدول الأخرى، وإطلاق مصطلحي الإحسان والمواساة على أنواع أخرى من العطاء[623]، أو مصطلح الهجرة على الانضمام للحركة الموحدية، والارتداد عن معارضتها، ومصطلح المؤمنين للموحدين والكفار لغيرهم، ومصطلح التمييز (تمييز الخبيث من الطيب) على الاستعراض العسكري، إلى غير ذلك. كما رمزوا للجهاد في

---

(619) ابن القطان، نظم الجمان .م. س ص 127-128، مجهول، الحلل الموشية م. س ص 152-153، المراكشي، المعجب... م. س ص484-485.
(620) التجاني، رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب ليبيا – تونس 1981 ص 346.
(621) ابن القطان، نظم الجمان... م. س ص 121.
(622) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 1 ص 169، ابن مرزوق التلمساني محمد بن أحمد 781هـ/1379م – المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر 1981 ص 436.
(623) راجع عن أنواع العطاء في العهد الموحدي اسكان الحسين، الدولة والمجتمع في العصر الموحدي... م. س. الفصل الرابع ص 185-188.

مبانيهم بكتابة الآيات القرآنية على باب القصبة الشرقي للرباط "يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله"، إلى قوله "وبشر المؤمنين"، كما نقشت صورة سيفين عظيمين مسلطة رأسيهما إلى السماء على إحدى نوافذ صومعة حسان من جهة البحر كرمز للاستعداد للجهاد(624).

ب. الزهد والتقشف

أما الزهد فقد ظهر في محاربة الموحدين لكل مظاهر الترف والبذخ في بناياتهم الأولى من مساجد وحصون، كما أن فقهاء فاس وأشياخها اضطروا لستر الزخارف المنقوشة بالذهب واللازورد التي كانت تزين محراب مسجد القرويين بالجص، وذلك قبيل دخول عبد المومن للمدينة سنة 541هـ خوفا من أن ينتقد عليهم الموحدون ذلك النقش والزخرف"لأنهم قاموا بالتقلل والتقشف"(625). ولم يحتفظوا من الآلات الموسيقية التي كانت تستخدمها الجيوش الوسيطية، إلا بالطبول، كما لم تنفق لديهم الموسيقى، حسب أبي بكر بن طفيل الذي كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من مهندسين وأطباء وشعراء وأجناد وغيرهم، وكان يقول: "لو نفق عندهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم"(626). ونعلم كذلك أن المنصور حارب القيان والمغنيين لأول ولايته، وحذر السادات والأشياخ "من الطبل، فإنه مما يخفف الأدمغة ويحول العقول"(627)، يقصد بذلك أحواش المعروف عند المصامدة. ولم يستعمل الموحدون الملابس المطرزة بالحرير "لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب"(628)، ولم يتخذوا دار الطراز(لصناعة الملابس وتطريزها)، في أول أمرهم، كالدول الوسيطية الأخرى،

---

(624) المنوني، العلوم والآداب... م. س. ص 13.
(625) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب... م. س. ص 26-62.
(626) المراكشي عبد الواحد، المعجب... م. س ص350، المنوني، العلوم والآداب... م. س. ص238.
(627) ابن عذاري، البيان المغرب... ق الموحدين م. س ص 231-174.
(628) ابن خلدون، المقدمة... م. س ص 472-473.

بل إن يعقوب المنصور كان لباسه من الصوف[629]. والاستثناء الوحيد الذي تساهل الموحدون في تزيينه وزخرفته، هو مصحف عثمان الذي يجعلونه في مقدمة حركتهم، إذ بالغوا في ترصعيه بذخائر من الياقوت والجوهر وثياب الديباج الفاخرة [630].

ج ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قامت به الدولة الموحدية من خلال رسائل تكاد تكون دورية يصدرها الخلفاء، وترسل إلى كل الأقاليم وتقرأ على الناس في المساجد بالمدن، وتحضر لسماعها القبائل، وأولها رسالة الفصول التي أصدرها عبد المومن، 16 ربيع الأول سنة 543هـ، من مدينة تينمل[631]، وتتضمن التنديد ببعض العمال ممن لا يخافون الله ويتسلطون على الأموال والأبشار حسب أهوائهم ضاربين بأحكام الشرع عرض الحائط، ويبتدعون مظالم شنيعة من قتل للمسلمين ومن استباحة لأموالهم، وضربهم بالسياط لابتزازهم وأخذ أموالهم. وتوعد عبد المومن هؤلاء بالعقاب، وفصلت الرسالة في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي، وابتزاز أموال المسافرين والتجار وغيرها من المظالم المنتشرة والمناقضة للمبادئ الدينية للدولة الموحدية. وأمر أشياخ الموحدين أن لا يعتمدوا على غيرهم في تسيير شؤون ولاياتهم، ومنع قتل الناس إلا بعد الحصول على إذن من الخليفة، وأشارت الرسالة كذلك إلى انتشار بعض المنكرات، منها بيع الإماء من غير استبراء، فأصدر تعليمات لتفادي هذه الظاهرة، كما أمر بالاجتهاد في إراقة الخمر وكسر دنانها، وبمراقبة أماكن صناعة الرب واعتصاره، وأن لا يسمح ببيع إلا ما هو حلال شرعا منها. وتوقفت الرسالة عند تعسفات الرقاصين على الرعية وتكليفها مؤونتهم وعلف دوابهم، وأمر بقطع هذه العادة. ونبهت الرسالة

(629) الناصري، الاستقصا... م. س ج 2 ص 193.
(630) عن تاريخ هذا المصحف وزخرفته، راجع المراكشي، المعجب... م. س ص366-367، الناصري، الاستقصا... م. س ج 2 ص121، ابن مرزوق، المسند الصحيح... م. س. ص 436 وما بعدها.
(631) ابن عذاري، البيان المغرب... م. س ق. الموحدين ص37، عزاوي، رسائل موحدية جديدة 61-71.

في الأخير، إلى امتداد أيدي بعض المسؤولين لأموال المخزن والعبث بها والتعدي عليها، وأمر بعدم التصرف في تلك الأموال إلا بعد أخذ إذنه، وأمر باتباع وتنفيذ التعليمات التي تتضمنها هذه الرسالة.

وعلق ابن عذاري على رسالة الفصول، بأنها جمعت قوانين العدل والفضل والسياسة والرئاسة، فكانت حجة بأيدي الناس، ومؤمنة لهم من البأس. وفعلا شجعت تلك الرسالة الناس على التظلم من الأضرار التي تلحقهم من المسؤولين الإقليميين، وقد سار خلفاؤه على نهجه هذا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأصدر يوسف العسري، في 13 رمضان 561هـ، رسالة مماثلة لها نفس المحتوى تقريبا[632]، وذلك بمناسبة كتابة علامته. وفي سنة 617هـ كتب المستنصر رسالة أمر فيها بأخذ الناس بإقامة الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على الصلاة وصلاة الجماعة، وإلزامهم بقراءة التوحيد وسائر الشعائر الدينية، كما فعل جده عبد المومن ويوسف[633]. وأصدر المأمون، سنة 626هـ، رسائل مشابهة، إذ خطب أول أمره "صادعا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على الصلوات وإيتاء الزكاة وإيتاء الصدقات والنهي عن شرب الخمر والمسكرات.."[634]. ونعلم كذلك أن من عادة الموحدين، قتل تارك الصلاة. وورثت الدول اللاحقة هذه عادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما فعل المولى الحسن حين أصدر الرسالة القرنية مثلا[635].

د- *تأثير المذهب على سياسة الدولة ورجالاتها*

يتجلى تأثير المذهب على سياسة الدولة الموحدية في أمرين هامين: الأمر الأول، هو سياسة الجهاد ضد المسيحيين، إذ نسب ليعقوب المنصور رغبته في

(632) الناصري، الاستقصا... م. س ج 2 ص 193.

(633) ابن عذاري، البيان المغرب... م. س ق. الموحدين ص94، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي ط. 3 سنة 1987 ص 225-229.

(634) ابن عذاري، البيان المغرب... م. س. ق. الموحدين ص265.

(635) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب... م. س ص253، الناصري، الاستقصا.م. س ج 2 ص232، ابن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان محمد، من 4 أجزاء، القاهرة، المجلد الأول ص 412-413.

جعل الأندلس دار إسلام، ورغبته في تطهير مصر، كما اتخذ الموحدين موقفا صارما من اليهود أول الأمر، وغيرها من المسائل المعروفة (636). ويتجلى هذا الطابع كذلك في بناء الرباطات، كرباط تازة، ورباط الفتح.

الأمر الثاني، هو السياسة الاجتماعية الداخلية للدولة. فالذي كان يقسم الموحدين إلى اتجاهات وأحزاب سياسية، هو المسألة الدينية نفسها ومدى تطبيق الدين في سياسة الدولة. ظهر ذلك في عدة مناسبات، منها: مناسبة خلع محمد بن عبد المومن من ولاية العهد والخلافة سنة 558هـ، إذ كان عدم تدينه وإدمانه على تناول الخمر من أسباب عزله (637).

وظهر كذلك، بمناسبة وفاة المستنصر، سنة 620هـ، حين اجتمع أهل الحل والعقد للتشاور في من يقلدونه الأمر، وانحصرت الاقتراحات في ترشيح أميرين، فريق يقترح ترشيح الأمير أبي محمد عبد الواحد، وكان مشهورا بحزمه وصلاحه، رغم كبره، وأشار الفريق الآخر بتقديم أبي محمد بن عبد الله الذي سيعرف بالعادل فيما بعد، وكان يرمى بالميل إلى البطالة وإيثار الشهوات والإخلاد إلى الراحات، وكان ابن القطان حاضرا في ذلك المجلس وأنشد متمثلا ومنبها على الفرق بين الرجلين :

إذا رُتِّل القرآن في جُنْح ليله   أبيٌّ بن كعب لم يُغن مُخارق

ومعلوم أن أبيا بن كعب، كان من الصحابة الذين شهدوا بدرا ومن كتاب الوحي، بينما مخارق هو أبو المهنى مخارق من المغنيين المشهورين في العصر العباسي(638). ويؤكد المراكشي ذلك، قبل عدة سنوات من انعقاد المجلس السابق الصفات الدينية لعبد الواحد (المخلوع) التي تشبه صفاته صفات الأولياء، ويقول في وصفه كما عرفه هو شخصيا: "إنه - فيما علمت - صوام قوام،

---

(636) التوفيق أحمد، المجتمع المغربي... م. س. ص478، انظر هذه الرسالة في الإتحاف في ترجمة المولى الحسن

(637)المنوني، العلوم والآداب... م. س ص 12-13.

(638) المراكشي، المعجب... م. س ص. 344 ابن عذاري، البيان المغرب. ق. الموحدين... م. س. ص 78، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ... م. س. ص 154-155.

مجتهد في دينه، شديد البصيرة في أمره قوي العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه في الحق لومة لائم، أرطب الناس لسانا بذكر الله، وأتلاهم لكتاب الله، شهدته والولاية قد اكتنفته، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته، وهو في كل ذلك لا يخلُّ بشيء من أوراده، ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها على نفسه من أخذ العلم وقراءة القرآن، وأذكار رتبها على أوقات الليل والنهار"(639). وكان أحد أسباب اختياره للخلافة، تدينه، وعلى أساسه تمت المفاضلة بينها. كما تفاءل المراكشي، وهو بالمشرق، بتعيين هذا الأمير، وتوقع أن تعرف الإمبراطورية خيرا شاملا، إذا صح خبر تعيينه.

كما ظهر أيضا، بمناسبة اختيار المرتضى للخلافة سنة 646هـ، حين برَّر مزوار الأشياخ أبو عبد الله محمد الكَنفيسي تفضيله للمرتضى بقوله:"غفلتم يا جماعة الموحدين عن السيد التقي العالم الزكي أبي حفص في رغبتكم له في الولاية عليكم أمر الخلافة وتبايعونه لطهارته وصيانته"(640). بل يقال عنه أنه كان "ينتمي إلى التصوف والزهد والورع، وسمي بثالث العمرين"(641)، وقد احتفل بعيد المولد النبوي في بلاطه بإشارة من أبي القاسم العزفي، وأنشأ المدارس على الطريقة المشرقية قبل تأسيسها من طرف المرينيين(642).

كما تأثر العديد من رجالات الدولة بطابعها الديني، وتحدثت المصادر عن بعض من أصبح منهم زهادا، كالوزير المعروف بالفيل الذي ترك الوزارة، في عهد المنصور، وتزهد بالأندلس، أو يعقوب المنصور نفسه الموصوف بالتدين والزهد كما سنرى. ويظهر كذلك في اتخاذ رجال الدولة الموحدية لأسماء إسلامية، خاصة أسماء الصحابة التي عوض بها ابن تومرت أسماءهم الأمازيغية القديمة(643)، على عكس المرابطين الذين احتفظ جلهم بأسمائهم الأمازيغية

---

(639) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س س 8 ص 173-174.
(640) المراكشي، المعجب... م. س ص470.
(641) ابن عذاري، البيان المغرب... ق. الموحدين م. س ص 388.
(642) الناصري، الاستقصا... ج 2 ص251، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ... م. س. ص 259.
(643) ابن عذاري، البيان المغرب... ق. الموحدين م. س ص 446، راجع عن تأسيس الموحدين للمدارس الفصل الثاني من هذا العمل.

القديمة، مثل تاشفين، ينتان، فانو... والأهم من هذا، أن الموحدين كانوا ينقسمون إلى جناحين أساسيين تجاه السياسة التي يتعين إتباعها، فريق يسعى لتطبيق المبادئ الإسلامية في السياسة الداخلية، وفريق يسعى لتطبيق السياسة القبلية المشرقية. وقد ساند فريق من الموحدين بقيادة بيت أبي حفص الهنتاتي يعقوب المنصور الذي اتخذ منه المنصور وزراءه، في إتباع سياسة دينية إسلامية تضمن العدل والمساواة بين سكان الإمبراطورية. وقد أكسبت هذه السياسية يعقوب المنصور، تعاطف العامة والمتصوفة وغيرهم، إذ رفضت العامة أن تصدق وفاته ونسبت له أنه تزهد[644]. والفريق الآخر، وهو الغالب، يحاول تطبيق سياسة قبلية مشرقية تستغل سكان الإمبراطورية لصالح العصبية الحاكمة من القبائل الموحدية والمتحالفين معها.

يصعب تتبع كل المجالات التي شملتها السياسة الدينية للموحدين ونتائجها على المستوى الفكري والديني والعلمي والفلسفي وغيرها[645]، وقد ساهمت هذه السياسة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في انتشار التصوف في عهدها سواء، بترسيخ أفكار ابن تومرت التصوفية، أو بسلوك عصبيتها المتناقضة مع المذهب التومرتي نفسه، أو تعليم مختلف شرائح الرعية وتربيتهم الدينية[646].

هـ - التعليم الديني للرعية

كانت الدولة الموحدية، منذ انطلاقتها، تفرض على رعاياها، أن يتعلموا القدر الضروري من العقائد والعبادات وحفظ ما تيسر من القرآن، وأوجبوه على كل مكلف، رجالا ونساء، أحرارا وعبيدا، مع الترخيص لمن لا يعرف العربية

---

(644) انظر عن تغيير الأسماء الأمازيغية بالعربية، اسكان الحسين، الدولة والمجتمع في العصر الموحدي... م. س. ص 281.

(645) عن هذه السياسة راجع اسكان الحسين، الدولة والمجتمع... م. س. ص306-322.

(646) النجار، انظر أثر المذهب التومرتي السياسي والاجتماعي، والأثر الأصولي الفقهي والعقدي للمذهب التومرتي، المهدي بن تومرت...م. س. ص 377-502، وراجع عن الأثر الأدبي للمذهب، حسن جلاب، الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب، منشورات الجامعة، الدار البيضاء 1983م، الحسيسن، مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي. ط دار إحياء التراث الإسلامي، تطوان المغرب 1982م.

بقراءة مؤلف التوحيد لابن تومرت بالأمازيغية، وعين عبد المومن، سنة 556هـ، من طلبة الموحدين من يقوم بالسهر على هذا التعليم الإلزامي للراشدين من رعايا إمبراطوريته (647). وما قام به الموحدون يتفق تماما مع اقتراحات الفقهاء مثل ابن حزم السابق الذكر وغيره.

انتهى دور التعليم الديني للراشدين في العصر الموحدي، خلال القرن 6هـ، بعد معرفة الرعية أو العامة بالمغرب الأقصى لأساسيات الدين الإسلامي بواسطة الرباطات والكيانات السياسية التي تعاقبت على حكم المغرب. لكن المحافظة على الهوية الدينية والوحدة المذهبية كانت تتطلب تربية دائمة للرعية بوسائل متعددة، منها الحسبة والوعظ والتذكير، أو ما سمي فيما بعد بالتوريق.

فالحسبة تنطلق من مبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي نوعان: نوع موجه للرعية يقوم بها المحتسب تحت إشراف القاضي، ونوع موجه للحكام يقوم بها الحاكم نفسه، في شكل رسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القصد منها حمل أعوانه وأنصاره من العصبية الحاكمة على التخلي عن الانغماس في الملذات والكف عن ظلم الرعية، كما تقدم في رسائل الأمر بالمعروف.

أما الوعظ والتذكير، فالقصد منه حمل الناس بالإقناع عن طريق الترهيب والترغيب على ترك المعاصي والتوبة إلى الله. وقد ازدهرت هذه البضاعة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين على يد المتصوفة بالخصوص، ومن أشهر الوعاظ بالمصمودية أبو ولكوظ تونارت ابن وكرام الهزميري (ت608هـ)(648) وكانت طريقة الوعاظ في حلقاتهم هي تفسير بعض الآيات القرآنية، مع ذكر شيء من أخبار وسير الصالحين مما يلائم موضع تلك الآيات القرآنية، ثم شيء من النظم والأشعار وبعض من سيرة الرسول (ص). ولكن المهم أكثر، هو قدرة الواعظ على التأثير في نفوس العامة بحسن الصوت والإيراد قصد دفع المذنبين

(647) المنوني، العلوم والآداب.. م. س ص 27- 28.

(648) برو فنصال ليفي، مجموع رسائل موحدية... الرباط 1941، ص 52-54، 137-138. المنوني، العلوم والآداب...م. س ص 27، 189.

والمسرفين إلى البكاء وإلى التوبة. ومن أشهر الوعاظ محمد التلمساني المعروف بابن الحجام (558-614هـ) الذي استدعاه يعقوب المنصور لمراكش، وألف كتابا في الموضوع سماه"حجة الحافظين ومحجة الواعظين"[649]. وقد وفد على المغرب عدد من الوعاظ المشارقة منهم الواعظ عمر بن مودود الفارسي الذي وصل مراكش سنة 635هـ وأجرى له الرشيد الموحدي عطايا مهمة[650]، ومنهم أبو عبد الله محمد بن رشيد البغدادي الذي قدم مراكش، سنة 655هـ[651]. وقد لعبت الدولة الموحدية، في النصف الأول من القرن 7هـ، دورا كبيرا في رعاية وتشجيع الوعظ والتذكير، بسبب الاضطرابات السياسية خلال هذه الفترة.

كان الوعاظ يعظون ويذكرون العامة مجانا، وكان يعاب على الذين يتخذونه وسيلة للكدية، مثل الواعظ محمد الأموي الليثي (ت620هـ) الذي كانت له "مآخذ غريبة في الكدية" ينتزع بها المال من جمهور حلقاته بعدة مدن[652]، ومثل محمد عبد الوهاب الأنصاري الدمشقي (ت655هـ) الذي دخل المغرب، سنة 651هـ، وعقد مجالس للوعظ والتدريس، "وكان مستحسن المنزع رحمه الله لولا حرص كان فيه في باب التكسب بتحرفه الوعظي، نفر عنه بعض أصحابنا بسبب ذلك"[653]. وكانت التحولات الاجتماعية والدينية المصاحبة للفتن والاضطرابات السياسية السابقة الذكر، تهدد الوحدة الدينية والمذهبية للمجتمع المغربي، مما فرض تمويل هذا النشاط المجاني، ابتداء من 651هـ، بالأحباس التي وفرت الأجر للوعاظ من خلال أوقاف كراسي التوريق المحبسة لهذا الغرض في أهم الجوامع، مثل جامع القرويين كما تقدم ذكره[654].

---

(647) المنوني، العلوم والآداب.. م. س ص 27- 28.
(648) برو فمصال لبفي، مجموع رسائل موحدية... الرباط 1941، ص 52-54، 137-138. المنوني، العلوم والآداب...م. س ص 27، 189.
(649) ابن الزيات التادلي، التشوف... م. س، ص 401.
(650) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س. س 8 ص226، ومن الوعاظ المغاربة المشهورين في هذه المرحلة أبو بكر يحي بن محمد بن بقي السلوي الذي كرس حياته للوعظ، نفسه، س8، ص 413، ويحي بن يوسف الأزدي (ت 544هـ)، ابن القاضي، جذوة.. م. س. ص 84.
(651) عبد الملك، الذيل والتكملة... م. س، س8، ص242-243.
(652) نفسه، س 8 ص274، وعن المشارقة الآخرين نفسه، ص562-410-322-240.
(653) نفسه، س 6 ص 346.
(654) نفسه، س 8 ص515.

خلاصة الفصل الخامس

لعب التعليم الديني بالمغرب دورا هاما في عملية المثاقفة، خلال الفترة الممتدة من القرن الأول إلى القرن السادس الهجريين، وعمل، بصفة خاصة، على ترسيخ الدين الإسلامي وتبني المذهب السني، وعلى الحفاظ على هذه الهوية الدينية الجديدة، ابتداء من القرن 7هـ. وكان تعليما مجانيا، وخاطب العامة بلغتهم كالأمازيغية أول الأمر، وكالعامية في المناطق التي تعربت بعد ذلك. وقامت عدة مؤسسات، مثل الرباطات والزوايا والمساجد والدولة، بدور كبير في هذا النوع من التعليم. و نظرا لأهميته الاجتماعية والدينة، فقد اهتمت الدولة به أكثرمن اهتمامها بالتعليم الاحترافي.

البيبليوغرافيا

1- المصادر

- أبو العرب محمد ابن تميم القيرواني، طبقات علماء إفريقيا، تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر 1968.

- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل، تقويم البلدان، ط.دار صادر، بيروت -لبنان.

- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب السيرة و أخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمان أيوب، طبعة 1985 .

-ابن إبراهيم العباس بن محمد السملالي المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1974-1983م في 10 أجزاء.

- ابن أبي أصيبعة موفق الدين (ت668)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت 1965.

- ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، نشر محمد الشمام. المكتبة العتيقة - تونس 1967م.

- ابن أبي زرع الفاسي علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس من أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر عبد الوهاب بن منصور. دار المنصور للطباعة والوراقة-الرباط سنة 1973م.

- ابن أبي زرع الفاسي علي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972.

- ابن الآبار محمد بن عبد الله، (ت 658هـ/12060م)، الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة 1963-1964.

- ابن الآبار محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار، مطبعة السعادة – مصر 1955.

- ابن الأثير عز الدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار صادر ت. بيروت لبنان 1997.

- ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف الأنصاري، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972.

- ابن الحاج إبراهيم النميري، مذكرات ابن الحاج النميري، تحقيق دوبريمار، والملحق بمؤلفه:

Premare (A.l.de, Maghreb et Andalousie au XIV siècle, Presse universitaire de Lyon, 1981.

- ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطينة والزاب، دراسة ونشر محمد ابن شقرون، الرباط 1984.

- ابن الحاج محمد العبدري الفاسي، المدخل إلى تنمية الأعمال، 2 دار الفكر 1977.

- ابن الخطيب لسان الدين، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة ـ المحمدية 1976م.

- ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق مختار العبادي، الدار البيضاء 1985م.

- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة ن تحقيق محمد عبد الله عنان، من 4أجزاء، القاهرة 1973.

- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال لأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق مختار العبادي وإبراهيم الكتاني، الدار البيضاء 1964.

- ابن الخطيب، مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، دار المنصور- الرباط 1973.

- ابن الزبير أحمد الثقفي، صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنصال، الرباط1937، وقطعة منها متعلقة بالغرباء منشورة بتحقيق محمد بن شريفة ضمن السفر الثامن من الذيل والتكملة، الرباط 1984.

- ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1984.

- ابن السكاك محمد،نصح ملوك الإسلام، طبعة حجرية، فاس، د. ت.

- ابن الشاط السبتي، برنامج أبي الربيع الأندلسي، نشره عبد العزيز الأهواني بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلدين الأول والثاني سنة 1955.

- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، بدون تاريخ.

- ابن الفرضي عبد الله بن محمد، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق عزت العطار، مطبعة السعادة مصر 1954.

- ابن القاضي أحمد المكناسي، درة الحجال في أسمال الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث - القاهرة 1971.

- ابن القاضي أحمد، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط 1973.

- ابن القطان المراكشي حسن بن علي الكتامي، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمد علي مكي، منشورات كلية الآداب بالرباط 1964.

-ابن بسام علي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت 1978.

– ابن بشكوال خلف الله بن عبد الملك، كتاب الصلة، القاهرة 1955.

– ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779هـ/1377م)، تحفة النظار في غرائب الأقطار وعجائب الأمصار، تحقيق علي المنتصب، بيروت – لبنان، سنة 1985.

– ابن تومرت، محمد (المهدي) أعز ما يطلب، تحقيق وتقديم عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغنى للنشر-الرباط 1997، وطبعة 1903 بالجزائر نشر لوسياني.

– ابن جبير محمد، رحلة ابن جبير، تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار ومكتبة الهلال – بيروت 1981.

– ابن جماعة بدر الدين، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتاب العلمية – بيروت، د. ت.

– ابن خلدون عبد الرحمان الحضرمي، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، استعملنا المقدمة منه من منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979، أما الجزء 6 و 7 فمن منشورات مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت – لبنان 1979.

– ابن خلدون عبد الرحمان الحضرمي، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1951.

– ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمن، مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة – بيروت 1968 في 7 أجزاء.

– ابن خير محمد الأشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، تحقيق فرانشكة ريدين، مركز الموسوعات العالمية – بيروت 1963.

- ابن رسته أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، ليدن - أبريل 1981.

- ابن رشد أبو الوليد محمد، فتاوي ابن رشد، تحقيق المختار التليلي3 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت -لبنان 1980.

- ابن رضوان المالقي، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق سامي النشار، الدار البيضاء 1980م.

- ابن زيدان عبد الرحمان العلوي المكناسي، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، مطابع إديال، ط. 2، سنة، 1990.

- ابن صاحب الصلاة عبد الملك، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، سنة 1987.

- ابن عباد محمد الرندي، الرسائل الكبرى، طبعة حجرية، فاس 1620هـ.

- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله القرشي المصري، فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع. دار الكتاب اللبناني - بيروت 1964.

- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس وإفريقيا والمغرب ج. 1إلى الجزء 3 من تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنصال، بيروت لبنان 1967- الجزء الرابع من تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ط 3 سنة- 1983القسم الثالث الخاص بالدولة الموحدية، من تحقيق إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر وأخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، سنة 1985.

- ابن عرضون أحمد بن الحسن، مقنع المحتاج في أدب الأزواج، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 766.

- ابن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. تحقيق محمد حجي، دار المغرب 1976.

- ابن عطية عبد الحق المحاربي، فهرست ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان، محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980.

- ابن غازي محمد المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الأمنية- الرباط 1951.

- ابن فرحون إبراهيم بن علي المدني، كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان. د. ت.

- ابن قنفد أحمد بن الخطيب القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق أدولف فور و محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1965.

- ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيوس باغيرا، الجزائر1981.

- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر 1984.

- ابن ميمون الغماري، الرسالة المجازة في معرفة الإجازة، نشرها محمد الفاسي في مجلة رسالة المغرب عدد 11 سنة 1943.

- ابن ناجي أبو القاسم، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد ماضور، تونس 1978.

- ابن ناصر محمد الدرعي، الأجوبة الناصرية الدرعية، ط. حجرية بفاس، د. ت.

- الإدريسي أبي عبد الله محمد الحمودي الحسني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط. عالم الكتاب - بيروت، ط.1 سنة 1989.

-البادسي عبد الحق الخزرجي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية - الرباط 1982.

- الباروني النفوسي عبد الله، الأزهار الرياضية في أئمة الملوك الاباضية. دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس 1986.

- البرزلي أبو القاسم أحمد بن محمد. البرزلي، نوازل البرزلي مخطوط القرويين رقم 384.

- البرزلي أبو القاسم بن أحمد، جامع مسائل الأحكام، ميكروفيلم، خ.ع. الرباط رقم 782.

- البكري أبو عبيد الله، المسالك والممالك،"كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب" نشرة و ترجمة دوسلان Adrienne-libraire d'Amérique et d'orient, Maisonneuve, Paris, 1965

-البلوي أبو القاسم البلوي، تاج المفرق في تحية علماء المشرق، تحقيق حسن السائح، مطبعة فضالة - المحمدية، د. ت.

- البيدق أبو بكر الصنهاجي، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط 1971م.

- البيدق أبو بكر الصنهاجي، كتاب أخبار المهدي ابن تومرت و ابتداء دولة الموحدين. تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة و النشر- الرباط 1971م.

- التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد، رحلة التجاني. قدم لها حسن حسني عبد الوهاب. الدار العربية للكتاب - ليبيا تونس 1981.

- التجيبي أبو القاسم، برنامج التجيبي، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس 1981.

- التميمي أبو عبد الله محمد الفاسي (ت 604)، كتاب المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، مصورة من مخطوطة الأستاذ محمد المنوني. وقد نشر مؤخرا من طريف الشريف.

- التنبكتي أحمد بابا السوداني، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية. بيروت بدون تاريخ.

- الجزنائي علي، جني زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس. المطبعة الملكية ـ الرباط 1972.

- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار. تحقيق إحسان عباس، بيروت ـ لبنان. ط. 2، سنة 1984.

- الخزاعي علي بن محمد، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعملات الشرعية. تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1975.

- الخشيني محمد بن الحارث، كتاب طبقات علماء إفريقية. دار الكتاب اللبناني د. ت.

- الدباغ عبد الرحمان محمد الأنصاري، معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان. تحقيق إبراهيم شبوح. مكتبة الخانجي – مصر 1968.

- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب. تحقيق إبراهيم طلاي. ط. مطبعة البحث ـ قسطنطينة 1394هـ.

- الدكالي محمد بن علي السلاوي، الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين. تحقيق مصطفى بو شعراء، نشر الخزانة الصبيحة بسلا 1986م.

- الرصاع محمد الأنصاري، فهرس الرصاع، تحقيق محمد العنابي، تونس 1967.

- الرعيني أبو الحسن الأشبيلي، برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق إبراهيم شبوح، دمشق 1962.

- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، مطبعة الدولة التونسية المحروسة سنة 1966م/1289هـ.

- الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، طبعة وزارة الأنباء، الرباط1967.

- السبتي عبد الله محمد بن القاسم، اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور. الرباط 1983م.

- السمعاني عبد الكريم، في كتابة آداب الإملاء والإستملاء، تحقيق شفيق زيغور، دار اقرأ بيروت 1984.

- السوسي محمد المختار، خلال جزولة، المطبعة المهدية تطوان بدون تاريخ.

- السوسي محمد المختار، المعسول 20 جزء، مطبعة النجاح ومطبعة الجامعة -الدار البيضاء 1960 -1963م.

-السوسي محمد المختار، سوس العالمة، مطبعة فضالة 1960م.

- السوسي محمد المختار، الالغيات، مطبعة النجاح - الدار البيضاء 1963.

- الصومعي أبو العباس أحمد بن القاسم التادلي، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى،تحقيق علي الجاوي / من منشورات كلية الآداب بأكادير 1996.

- العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 10 أجزاء. ط. المطبعة الملكية - الرباط 1974.

- العبدري محمد بن محمد الحيحى، رحلة العبدري. تحقيق محمد الفاسي. الرباط 1968م.

- العزاوي أحمد، رسائل موحدية جديدة. منشورات كلية الآداب بالقنيطرة، جامعة ابن طفيل. ط 1 سنة 1995م.

- العزفي أبو العباس أحمد،دعامة اليقين في زعامة المتقين،مناقب الشيخ أبي يعزى، حققه أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب الرباط 1989.

-العمري ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء 1988.

- الغبريني أبو العباس أحمد البجائي، عنوان الدراية فيمن عرف المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد أبي شنب، 1961.

- القابسي أبو الحسن علي، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين، الملحقة بكتاب، التربية والتعليم في الإسلام، لأحمد فؤاد الأهواني، منشورات. بيروت 1957.

- القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. نشره نبيل خالد الطيب. دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1987م.

- الكانوني محمد بن أحمد العبدي، آسفي وما إليه قديما و حديثا. بدون تاريخ ومكان الطبع.

- الكلالي إبراهيم بن عبد الرحمان الورياغلي، قطعة من "المسألة الأملسية"، نشرها المنوني محمد تحت عنوان، فصلة تصف الدراسة في القرويين أيام المنصور السعدي، مجلة البحث العلمي، عدد 7 السنة الثالثة، يناير/أبريل 1966.

- الماجري أبو العباس أحمد بن إبراهيم المغربي، المناهج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح. الطبعة المصرية ط 1سنة 1933م.

-المالكي أبو بكر عبد الله ابن محمد، رياض النفوس. تحقيق البشير البكوش. ط دار الغرب الإسلامي – بيروت لبنان 1981.

- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. نشره محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي. دار الكتاب ـ ط السابعة 1978.

- المراكشي محمد بن عبد المالك الأوسي الأنصاري، الذيل والتكلمة لكتابي الموصول و الصلة. أسفار، 1ـ2 دار الثقافة ـ بيروت الأسفار تحقيق محمد بنشريفة 4، 5، 6، تحقيق إحسان عباس ـ بيروت. السفر الثامن حققه وعلق عليه محمد بن شريفة. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984م.

- المغرواي أبو جمعة عبد العزيز، جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين والصبيان، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 7579.

- المقري أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. وزارة الأوقاف. الرباط.

- المقري أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت 1986 12جزءا.

- المنجور أحمد بن علي، فهرس المنجور، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر1976.

- الناصري أبو العباس أحمد السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى. حققه وعلق عليه جعفر الناصري ومحمد الناصري. دار الكتاب - الدار البيضاء 1955.

- النباهي علي بن عبد الله، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتوى، دار الآفاق الجديدة بيروت1983.

- النعمان القاضي النعمان بن محمد (363هـ)، رسالة افتتاح الدعوة. تحقيق وداد القاضي. دار الثقافة -بيروت، لبنان 1970.

- النعمان القاضي النعمان بن محمد (363هـ)، المجالسات و المسايرات. تحقيق إبراهيم القفي وآخرون. الجامعة التونسية 1978 دعائم الإيمان. دار المعارف ـ القاهرة 1972.

- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق أبو ضيف مصطفى. ونشره تحت عنوان، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، دار النشر المغربية د. ت. والقسم الخاص منه بالدولة الفاطمية ببلاد المغرب، نشره مستقلا. مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء 1988.

- الواد آشي ابن داوود، تبث الواد آشي. تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980.

- الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1980-1982.

- الونشريسي أبو العباس أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب والأندلس. نشر وزارة الأوقاف؛ دار الغرب الإسلامي- بيروت لبنان 13جزء 1981.

- برو فنصال ليفي، رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المومنية. جامعها مجهول، تحقيق ليفي بروفانصال. الرباط 1941م.

برو فنصال ليفي، نص جديد عن فتح المغرب لعبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني سنة 1954.

بن زنجويه حميد(251هـ)، كتاب الأموال، تحقيق شاكر ديب فياض،مركز فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية – الرياض 1986.

- بن عبد البر بن عمرو القرطبي،جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله دار الفكر، د. ت.

- بن عيشون الشراط أبي عبد الله، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1997.

- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم. تحقيق حياة علوان. ط دار الطليعة بيروت- لبنان 1985.

- عياض بن موسى اليحصبي القاضي السبتي (544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تحقيق مجموعة من الباحثين. وزارة الأوقاف المغربية في 8 أجزاء، الرباط 1983.

- عياض القاضي السبتي، الغنية، فهرسة شيوخ القاضي عياض. تحقيق ماهر زهير جرار.ط دار الغرب الإسلامي. ط 1 بيروت 1982م.

- عياض القاضي السبتي، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام تحقيق محمد بن شريفة. ط دار الغرب الإسلامي – بيروت 1990م.

- مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط 1984م.

- مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب نشره محمد بن تاويت في مجلة تطوان، عدد 9 سنة 1964ص 173-193.

- مجهول، بيوتات فاس الكبرى. نشره عبد الوهاب بن منصور. دار المنصور للطباع والوراقة، الرباط 1971.

- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة. ط. دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء 1979.

- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. الإسكندرية 1958.

- مجهول، كتاب مفاخر البربر، دراسة و تحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996م.

- محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية الرباط. ط -III 1996.

- محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، الملحق بكتاب، التربية والتعليم في الإسلام، لأحمد فؤاد الأهواني، بيروت 1957.

- محمد داوود، مختصر تاريخ تطوان. المطبعة المهدية- تطوان- المغرب د. ت.

2- المراجع بالعربية

- أبو ضيف مصطفى، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، دار النشر المغربية 1986.

-أبيض ملكة، التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى.

– أطلس محمد، التربية في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت 1957.

– اسكان الحسين، الدولة والمجتمع في العهد الموحدي (515-668هـ)، أطروحة دكتوراه الدولة مرقونة بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس، سنة 2001.

– اسكان الحسين، جوانب من تاريخ التعليم بالمغرب الوسيط، رسالة دبلوم الدراسات العليا مرقونة بكلية الآداب بالرباط 1988.

– الأهواني أحمد فؤاد، التربية والتعليم في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1955.

– التازي عبد الهادي، جامع القرويين، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1973.

– الخولي عبد البديع، الفكر التربوي في الأندلس، دار الفكر العربي سنة 1982.

– الفياض سعيد إسماعيل، معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي 1986.

– المعموري الطاهر، جامع الزيتونة، ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، الدار العربية للكتاب، تونس 1980.

– المنوني محمد، تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة. منشورات كلية الآداب بالرباط سنة 1991.

– المنوني محمد،ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1979.

- بل الفرد، الفرق الاسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمان بدوي، بيروت1981.

- ربيرا خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف – القاهرة.

- شفيق محمد، المعجم الأمازيغي- العربي، طبعة أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1990.

- غنيمة محمد، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، تطوان 1953.

- محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، 1982.

3- المقالات

- أبوطالب محمد، الكتاتيب القرآنية بين الأمس واليوم،ضمن أعمال ندوة : الطفل بالمدرسة العليا للأساتذة، الرباط ماي 1979.

- الجراري عبد الله، جامع القرويين من خلال التاريخ، مجلة دعوة الحق، السنة 9، عدد 9 يوليوز-غشت 1966، ص116-118.

- السعداني عبد اللطيف، مناهج التربية التقليدية عند المسلمين، المناهل عدد21 سنة 1981.

- القبلي محمد، قضية المدارس المرينية، ملاحظات وتأملات، مقال ضمن، في النهضة والتراكم. دراسات مهداة للأستاذ محمد المنوني، دار توبقال للنشر الدار البيضاء 1986.

- المنوني محمد، كراسي الأساتذة بجامعة القرويين، مجلة دعوة الحق، السنة 9عدد الرابع ص91-97.

- الورياغلي حسن، شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة، المناهل عدد 22 السنة 9 يناير 1982.

- بن تاويت محمد، فجر اللغة العربية بالمغرب الأقصى أو المراكز الثقافية الأولى،دعوة الحق،عدد 8، السنة 11، يونيو 1968 ص 94-103.

- تامر البشير، جوانب من تاريخ التربية في المغرب، التعليم في الكتاتيب القرآنية في القرن 10هـ/16م، مجلة تاريخ المغرب، السنة الرابعة، عدد 4 غشت 1984.

- زنيبر محمد، سبتة رائدة الثقافة المغربية، مجلة المناهل، عدد 22السنة 9 يناير 1982 ص191-294.

- زيغور علي شفيق، من صياغات التربية ونفسانية المتعلم في الفكر العربي الإسلامي، مجلة الفكر العربي، عدد 19 سنة 1981.

- عبد العزيز بن عبد الله، تاريخ التعليم الإسلامي بالمغرب، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ج 6 المجلد الأول والثاني سنة 1958.

- المنوني محمد، نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط، المناهل، عدد33 ص 77-115.

- هاينز هالم، أصول المدرسة في الإسلام،مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، طرابلس عدد 20 السنة 3، 1981، ص 11-17.

4- المراجع باللغات الأجنبية

- Bel (A), «Les inscriptions arabes de Fès», *Journal asiatique*, T.X. 1917 et XII, 1918. P. 199.

- Brignon (J), et autres, *Histoire du Maroc*, éd. librairie Nationale. Casablanca 1967.

- Benjalloun (L.L), *Les bibliothèques au Maroc*, éd. Maisonneuve et la rose, Paris, 1990.

- Binbine (A.Ch), Histoire des Bibliothèques au Maroc, Najah Eljadida-Casablanca, 1992.

- Brunschvig (R), «Quelques remarques historiques sur les medressa en Tunisie». **Revue tunisienne**, n° 6, 1931, pp : 261-285.

- Cenival (P. de), «La légende du juif Ibn Mechial et la fête du sultan des tolba a Fès», Hespéris. T. V. 1925, 2ém tri. pp : 137-218.

- Glovan (L), *La mosquée ses origines, sa morphologie, ses divers fonctions, son rôle dans la vie musulmane plus spécialement en Afrique du Nord*, Alger, 1960.

- Isray (D.S), *Histoire des universités Français et étrangères, ses origines a nos jours*, éd. Auguste Picard, Paris, 1933.

- Khanboub (M), «L'enseignement sous les premiers Mérinide (1269-1331) interférences entre le politique et le religieux», in *Horizon Maghrébin*, N° 7 et 8 été- automne 1986.

- Le Conte (G.L), «Sur la vie scolaire a Byzance et dans l'Islam : l'enseignement primaire et le Kuttab», in *Arabica*, 1954, T. 1 fasc 3, pp : 234-330.

- Marcais (G), *Manuel d'art Musulman*, Picard, Paris; 1926.

- Maslow (B), *Les mosquées de Fès et du Nord*. éd. d'art et d'Histoire, Paris, 1937.

- Perite (M.A), «Les Médrasas de Fès», in *Archéologie Marocaines*, N°. 18, Rabat, 1912.

- Premare (A.l.de), *Maghreb et Andalousie au XIV siècle*, Presse universitaire de Lyon, 1981.

- Shatzmeller (M), «Les premiers Mérinides et le milieu religieux de Fès, Introduction aux Médrasas»; in Stvdia Islamica T.XLIII. p. 109-116.

- Sourdel (D), «La diffusion de la Medrasa en Orient, du XII au XIII siècle», *R.E.I*, T. XLIV, 1976, pp. 165-185.

- Sourdel (D), «La Mosquée et la Medrasa», in *Cahier de civilisation médiéval*, T. XII, 1970, pp. 95-115.

- Sourdel (T.H), «Locaux d'enseignement et Medrasa dans l'Islam médiéval», *R.E.I*, T. XLIV, 1976, pp. 185-197.

- Terrasse (CH), *Médrasas du Maroc*, éd. Albert Moracé, Paris, 1928.

- Terrasse (H), *La grande Mosquée de Taza*, éd. d'art et d'histoire, Paris, 1940.

- Urvoy (D) «La structuration du monde des Ulamas à bougie (VIII XIIIs)» *S. I. T*: XLIII, 1976, pp. : 87-107.

- Urvoy (D), *Le Monde Des Ulémas andalous* du XI au XIII siècle, Genève libraire Doz 1978.

فهرس الأعلام والجماعات البشرية

الإسـم | صفحة

ا

الإسم	صفحة

الإســـم	صفحة

الإســم	صفحة

الإســم	صفحة

الإســم	صفحة

الإســـم	صفحة

الإســـم	صفحة

فهرس الأماكن

الإســـم	صفحة

الإســم	صفحة

الإســم　　　　　　　　صفحة

الفهـــرس

الفصل الثالث

يستحق موضوع التعليم دراسة علمية جادة لما له من أهمية كبرى، ولعل أول ما ينبغي القيام به بدايةً، هو معرفة الظاهرة التعليمية معرفة عميقة في بعدها التاريخي . وهذا الأمر لم يحصل بعد. حقا، هناك بعض الدراسات الجزئية، لكنها لا ترقى إلى المستوى الأكاديمي المطلوب، شكلا ومضموناً، وتنحو منحى إيديولوجيا واضحاً مما يبعدها أكثر عن الواقع التاريخي الذي ينبغي أن لا يغيب عن ذهن الباحث في التاريخ، لكي لا يسقط في الإنتقائية، وبالتالي إهمال جميع الروافد المكونة لحضارة وتاريخ المغرب.

ويعتبر تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (1 - 9 هـ / 7 - 15 م) من بين المقاربات التاريخية الجادة والرصينة، تتبع فيها المؤلف الأستاذ الحسين اسكان الإشكالات التاريخية التي شهدها تاريخ التعليم بالمغرب، منذ وصول الإسلام إلى الشمال الإفريقي إلى غاية القرن الخامس عشر الميلادي، متتبعاً مسار تطورهذا التعليم، خلال هذه المدة الطويلة نسبيا، ومبرزا لأهم تحولاته الكبرى على مختلف المستويات، من خلال الرجوع إلى المصادر وشرح المعلومات المتنوعة التي تتضمنها وتحليلها.

